

الجزء

2

جهينة

رواية



إسلام عبدالله

شيخ المدينة

دار نهضة مصر

لكل جديد وقديم وكل ما هو نادر

من كتب ومجلات ومجلات

تابعوا دودة الكتب



T.ME/BOOK100100



FACEBOOK/BOOK100100

موقعنا

www.doda100100.blogspot.com

جهينة
(توقع ألا تتوقع)

تأليف:

إسلام عبد الله

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين

أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي: 978-977-14-5547-9

رقم الإيداع: 16361 / 2017

طبعة: أغسطس 2017

تليفون: 02 33472864 - 33466434

فاكس: 02 33462576

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -

المهندسين - الجيزة

وما الدنيا إلا متسع عقلك.. وما العالم إلا ما تصنعه أنت

*** * ***

إذا عاد أحد أحبائك من الموت.. فهل ستكون سعيدًا؟

*** * ***

ما الذي يجعل البشر.. بشرًا؟

*** * ***

جهينة اسم لقبيلة من قبائل العرب المعروفة قديماً،
وفي المثل: وعندَ جهينةَ الخبرُ اليقينُ.

تحت جناح الليل وفي وسط ظلامه الدامس .. وقف
شابان يتجادلان للحظات .. وفي وسط انهماكهما في
الحديث وقف أحدهما وهو يشعر بالتوتر الشديد
يجتاحه .. فأغلق عينيه للحظات ثم تنفس بقوة وفتح
عينيه وأخرج من ملبسه سكيناً متوسط الحجم وتقدم
به بسرعة شديدة، وبدون تردد غرسه بعنف في قلب
غريمه .. الذي شعر بالطعنة تخرق قلبه لتمتص الحياة
منه .. حاول أن يفهم ما حدث .. ولكن سرعة الموقف
وغرابته جعلتاه يشعر بالبلاهة .. جسده هو الذي تحرك
بمفرده .. يدها أطبقتا على يد زميله التي تحمل السكين
تحاولان أن تمنعاه من النفاذ في جسده أكثر وأكثر .. وهو
يصرخ غير مصدق.

«ماذا فعلت أيها اللعين؟! .. ماذا فعلت؟!».

ظل زميله يغرس السكين أكثر في قلبه وهو يحدثه
بحنق: «إني أفعل ما أخبرتني به منذ قليل .. أقتل الشيطان
لكي أخلص العالم من شروره».

كهف الوحوش

على بُعد ملايين الأمتار عن كوكب الأرض وهناك بغياهب الظلام كان يسير مع أقرانه في مدار ثابت بين آلاف القطع الأخرى في حزام الكويكبات ما بين مداري المريخ والمشتري، ولكنه انحرف قليلاً بسبب تعارض مجاله مع إحدى القطع الطائشة الهائمة في الفضاء.. تلك الانحرافات الصغيرة جعلته يصبو في طريقه إلى كوكبنا الأزرق الصغير؛ كوكب الأرض.. وظل يقترب ويقترب وهو يقطع آلاف الأمتار، وتمرمات السنين وهو يستمر بطريقه إلينا.. لقد احترق غلافنا الجوي فاحترق، كان حجمه يقارب حجم قارب صغير، ومعدل سرعته كان 20 ألفاً من الكيلومترات بالثانية الواحدة؛ أي ما يكفي لإيصال مسافر إلى القمر بأقل من 20 ثانية؛ لذلك دبت فيه حرارة هائلة معدلها 2000 درجة مئوية نتجت من احتكاكه بالغلاف الجوي، فجعلته جمره متوهجة من النيران فوق سماء مصر.. توهج مبهر وصوت فرقعة ضخمة صاحب هذا الكويكب في رحلة هبوطه السريعة إلى الأراضي المصرية.

كان في ذلك الوقت يسكن بالأراضي المصرية بشر قديماً.. أقدم من بناء الأهرامات والحضارة المصرية نفسها.. عاينوا سقوط هذا

اللهب من السماء في منطقة بعيدة عنهم نسبيًا، ولكن مشهد ارتطام هذا اللهب بالأرض وسماع صوته الضخم قد خيل إليهم أنها نهاية العالم الذي لم يبدأ بعد.. تجمع بعض سكان الوادي ممن تملكتهم الشجاعة وحب المغامرة مع بعضهم، وكونوا عصبة سريعة من عشرين فردًا، معظمهم من الشباب والرجال شديدي البنيان، وشدوا رحالهم لمعرفة ما الذي سقط من السماء، وليعاينوه لأول مرة في تاريخهم.. استمرت رحلتهم على الأقدام ما يقارب الثلاثين يومًا.. لم يكن يهديهم أي شيء في طريقهم سوى آثار النيران التي مازالت مشتعلة ولم تخدم بعد، ودخانها ينبعث منها، ويشاهدونه على بعد كيلومترات.. فلقد كانت مصر في تلك الحقبة عبارة عن أراضٍ ممتلئة بالسهول العشبية والغابات، وكانت جنة خضراء لم يصبها التصحر إلا بعد ذلك بسنوات طويلة.. وكان المغامرون يقتاتون في سفرهم على الفواكه وبعض الحبوب التي كانوا يزرعونها، وحملوها معهم، وكانوا يصطادون الوعول الكبيرة والماشية التي كانت تقابلهم في طريقهم.. اقتربوا من مقصدهم أخيرًا، ولحسن حظهم كانت النيران هدأت قليلًا، وهدأ معها الدخان المصاحب من اشتعال النيران في هذا الجزء من الغابة أو ما كان يسمى غابة، فلقد دلف المغامرون إلى المنطقة التي سقط بها النيزك، ويا لهول ما شاهدوه! فلقد أذهلهم منظر الدمار الشاسع الذي أمامهم، إذ كانت الأشجار المتفحمة ملقاة في صفوف على امتداد الأفق مدمرة تمامًا، وبحر من الأراضي السوداء على بعد كيلومترات حولهم، فلقد أدى انفجار النيزك واحتكاكه بالأرض إلى خلق نيران

تصل إلى 2000 درجة مئوية تقريباً، حرقت ودمرت جميع من حولها، وأصبح نصف الأرض مغطى بطلاء أسود من مادة مصهورة من اختلاط الصخور والأشجار والتربة، وبعضها تبلور، وتحول لونه إلى الأخضر والأصفر.. درجة الحرارة كانت مرتفعة على الرغم من مرور ثلاثين يوماً على سقوط النيزك بالفعل، ووسط هذا الدمار والأرض الصخرية السوداء المتفحمة تلك شاهدوا حفرة عملاقة على بعد 300 متر تقريباً قطرها يصل لأربعين متراً، وعمقها وصل إلى 13 متراً تحت الأرض.. تردد المغامرون كثيراً في الاقتراب من تلك الحفرة التي صنعها هذا اللهب الساقط من السماء، وهموا بالتراجع حينها، ولكن بعضهم أراد أن يكمل مغامرته حتى النهاية، فتطوع ثلاثة أفراد ليتقدموا إلى تلك الفوهة الضخمة التي كان يراها أي شخص في الحال فيعتقد أنها بالتأكيد الطريق إلى باب الجحيم.. اقترب المغامرون الثلاثة من الفوهة بحرص شديد، ومن خلفهم كانت عبارات الحذر تزفهم، وعيون متابعيهم تحرسهم من بعيد.. اقترب المغامرون على استحياء ليروا ما بداخل تلك الحفرة الضخمة وهم مسلحون ببعض العصي الخشبية الغليظة التي كانت تقوم بدور جيد في صيد فرائسهم.. كانت الأرض مازالت ساخنة أسفل أقدامهم العارية على الرغم من ثخن طبقات جلدهم لتحركهم الدائم وهم حفاة، لكن كانت درجة حرارة الأرض السوداء أسفل منهم مرتفعة بحق.. فجعلتهم يتحركون بخفة وسرعة، ولكن بحذر شديد، وكانوا يختارون مواضع أقدامهم بعناية، وعلى الرغم من سطوع الشمس أعلاهم فإنه كانت هناك ظلمة شديدة

بداخل تلك الحفرة التي صنعها هبوط النيزك.. حاول أحدهم أن يتحقق مما بداخل تلك الظلمة من بعيد، فلم يستطع، فاقترب غريزياً قليلاً من الفوهة بدافع الفضول، فتهاوت تحت أقدامه الأرض التي كان يقف عليها.. ولم يشعر بنفسه إلا وهو يسقط بداخل الفوهة، انتابه الذعر وهو يوقن بأن تلك نهايته.. صريره الحاد وسقوط الأرض من تحته عوامل بثت الرعب بزملائه عندما شاهدوه يسقط فهربوا من المكان على الفور، وأطلقوا سيقانهم للريح وتركوه لمصيره وحيداً.. سقط الشاب بداخل الحفرة بسرعة شديدة، وظل يصرخ وهو يهوى ويهوى إلى الأسفل، اجتاحت الآلام فجأة عندما لامس جسده قاع الحفرة التي كانت ساخنة للغاية.. لدرجة جعلته ينسى أنه سقط من الأعلى، فلم يتدرك نفسه إلا وهو يقفز بمكانه ويمسك قدميه من سخونه الأرض أسفله، ظل يقفز سريعاً كالأرنب البري لا يستطيع ملامسة الأرض إلا ويجد نفسه يقفز من جديد لجهة أخرى.. ظل على هذا الحال لعدة لحظات حتى شعر بقدمه تقف فوق مكان بارد عن باقي الأرض أسفل منه.. شعر بالاندهاش الشديد واقترب أكثر لهذا المكان البارد ليجد نفسه أمام شيء غريب للغاية.. المكان بأكمله أسود بفعل النيران والأرض والصخور المنصهرة حوله، ولكن في منتصف تلك الحفرة بالضبط كان يقبع شيء مثير داخل الظلام.. صخرة بيضاء ناصعة لا شية فيها برزت وسط كل ذلك السواد الذي يحيطه، وكانت تخرج دخاناً أبيض.. منظر تلك الصخرة البيضاء أثار انتباه الشاب وفضوله؛ فحاول أن يمد يده ليلمس تلك الصخرة التي أمامه ولكنه

سحب يده إلى جسده سريعاً وهو متخوف ومتردد.. لكن صدور الدخان الأبيض من تلك الصخرة البيضاء أثار فضوله الشديد فتخلى عن خوفه ومد يده ببطء يحاول أن يتلمس تلك الصخرة وهو على أشد حذر؛ لأن صدور ذلك الدخان الأبيض يدل على السخونة الشديدة لتلك الصخرة.. مد يده وتلمس الحجر بسرعة فائقة وهو يتوقع أن تعود محترقة، ولكنه كان مندهشاً عندما شاهدها سليمة ولم تحترق.. مد يده مرة أخرى بصورة أبطأ قليلاً تلك المرة، وتلمس الصخرة البيضاء، وياللعجب! حيث لم يجد أي حرارة تصدر من الصخرة؛ بل على النقيض من ذلك وجد أن الصخرة باردة للغاية، وأن الدخان الذي حول الحجر ليس دخاناً؛ بل بخار ناتج عن التباين في درجة برودة الصخرة والجو الساخن المحيط بها.. انتاب الشاب الفضول الشديد وأخذ ينظر إلى الصخرة أمامه التي كانت في حجم متوسط على شكل هرمي غير مستوي، وقاعدتها عريضة أكثر من ارتفاعها، ولونها أبيض ناصع، وملمسها أقرب إلى ملمس المعدن عن الملمس الصخري.. شعر الشاب بالانبهار وهو يحرك يديه ببطء على الحجر ويضعها بعد ذلك فوق أنفه يحاول أن يتشمم رائحتها.. وهنا لم يجد أي رائحة غريبة تذكر.. تلمس الصخرة مرة أخرى ثم وضع أطراف أصابعه على لسانه يحاول أن يتذوق طعم هذه الصخرة، وهنا سمع صوت صراخ فشعر بالخوف الشديد، وتحرك من مكانه فأهبت الأرض قدمه بسخونتها مرة أخرى فعاد مسرعاً ومرغماً إلى جهة الصخرة البيضاء من جديد، ثم نظر إلى أعلى ليجث عن مصدر الصوت الذي سمعه ليسمع مرة

أخرى أصواتًا تناديه.. إنهم رفقاًؤه ينادونه قلقين.. أجابهم مبتسماً وهو يطمئنهم.. فعاودوا الصياح عليه وهم فرحون.. ظلوا يصنعون أدوات لإخراجه من تلك الحفرة باقى اليوم، وعندما شارف اليوم على الانتهاء أخرجوه من الحفرة وأخذ يتحدث معهم عن تلك الصخرة البيضاء الغريبة التي وجدها بالأسفل وأنها باردة وملمسها مختلف عن بقية الصخور، وأخذ يسرد ويسرد حتى أقنع الجميع بجدوى إخراج تلك الصخرة والعودة بها لقبيلتهم.. وبالفعل تم الاتفاق على ذلك، وفي بداية اليوم التالي لهم هبط أكثر من شخص ليحضروا تلك الصخرة، وكم كانت دهشتهم من ملمسها ومنظرها الأبيض الناصع! ولكم دهشوا أكثر عندما وجدوا أن تلك الصخرة ليست ثقيلة للغاية! فيستطيع أي شاب منهم أن يحملها بمفرده وبدون مشقة كبيرة.. استطاع المغامرون إخراج الصخرة، وحاولوا أن يُجروا عليها بعض التجارب والاختبارات باقى يومهم ليجدوها صخرة قوية ولا تتحطم بسهولة على الرغم من وزنها الخفيف نسبياً، وهنا قام الشاب الذي وجدها أول مرة بإخبارهم بأن هذه الصخرة مقدسة؛ لأنها سقطت من السماء ويجب أن يبجلوها ويظهروا لها الاحترام المناسب، وبالفعل شعر الجميع بأهمية ذلك، وبدءوا بتبجيل تلك الصخرة وإحاطتها بمشاعر الاحترام والتقديس، وفي اليوم التالي صادف بعضهم عند رحيلهم غزال شارد كبير.. فقام بعضهم بالتهيؤ لصيد هذا الصيد الثمين، وأخذوا يتبعون ذلك الغزال بتربص وبخفة ليجدوا أن هذا الغزال قد تجمع مع قطع كبير من الحيوانات حول عين ماء عذبة

وحولها الكثير من الأشجار والنخيل والكثير من السهول الخضراء، فأخذ المغامرون يتجولون في ذلك المكان الرائع ليجدوا كهفًا متوسط الحجم وله مدخل صغير تستطيع الدلوف إليه عن طريق الزحف فقط؛ ولذلك هو آمن ويتسع لأعداد كبيرة للعيش بداخله، فرشح الجميع ذلك المكان وذلك الكهف للعيش به والانتقال بقبيلتهم إليه، وارجعوا نجاحهم في العثور على هذا المكان إلى بركة عثورهم على تلك الصخرة البيضاء.. انتقل الشاب ومعه عشرة أشخاص من المغامرين للسكن في هذا الكهف وإعداده لاستقبال القبيلة، ووضعوا الصخرة البيضاء بداخل الكهف، وأخذوا يتبركون بها ويتقربون إليها.. بعد مرور عدة أيام انتقل باقي أفراد القبيلة إلى الكهف وسكنوه، وعاشوا في ذلك المكان لفترة طويلة.. تلك الحكاية حدثت منذ وقت ضئيل في عمر الكون عظيم في عمر الإنسان.. لقد حدث هذا الأمر منذ عشرين ألف عام قبل الميلاد..

* * *

(صديق قديم)

عام 1987

تكبدت الشمسُ السماءَ، وطغت على الأرض بأشعتها، وغمرتها بدفئها وهي تعانق وسط الصحراء بحرارة شديدة، فلم يكن يتحمل ذلك العناق أي كائن حي حينها إلا شخص واحد فقط ظل واقفاً متحدياً الشمس وأشعتها بمظلته الصغيرة التي فوق رأسه.. كان يدعى (مدحت فراج)، هذا الفنان الذي أخذ ينقش بفرشاته على لوح أبيض أمامه جزءاً من الحياة حوله يطبعها بكل دقة وحرفية على لوحاته التي كانت تنبض بالحياة على الرغم من عدم اكتمال الرسم بداخلها.. واقفاً ثابتاً يغزو العرقُ شعر رأسه المكتسي بالشيب الوليد، ويزحف على لحيته الشعثة ليتساقط بالنهاية على ملابسه البيضاء المكتنزة على جسده الذي أكل عليه الزمان وشرب وهو لم يكمل عامه الخامس والأربعين بعد.. انعزل عن كل ما يحيط به وأخذ يصب تركيزه على مشاهد الصحراء البيضاء أمامه.. تلك الصحراء التي حباها الله جمالاً ورونقاً خاصاً يجعلها قبلة الباحثين عن المتعة والمغامرة في صحارى العالم.. فرمال هذه الصحراء تكاد تكون بيضاء كالثلج، وممتلئة

بالصخور الضخمة الطباشيرية، والعديد من التشكيلات الصخرية التي تم تكوينها نتيجة للعواصف الرملية في المنطقة؛ مما حبا الطبيعة منحوتات طبيعية تتحدى أعتى نحاتي أثينا قديماً.. فتجد صخوراً على هيئة جمال وعلى هيئة أبي الهول، وبعضها كان أشبه براقصات الباليه (الباليرينا) وبعضها اتخذ شكل حصان الشطرنج، والعديد العديد من المنحوتات الطبيعية التي صنعتها الرياح فجعلت جماها متاحاً لجميع راغبي السكون والراحة وجمال الطبيعة، وتقع هذه الصحراء في مصر على بعد 45 كيلومتراً إلى الشمال من واحة الفرافرة بمحافظة الوادي الجديد، وعلى مسافة 500 كيلومتر تقريباً من القاهرة.. مسافة كبيرة على أي شخص من سكان العاصمة أن يأتي إلى هنا لكي يمكث بالصحراء، ولكن كان الأمر مختلفاً مع مدحت؛ فهو يذهب إلى الصحاري والمناطق المنسية في مصر لالتقاط واقتباس بعض مظاهر الحياة هناك، وبعثها من جديد على أوراقه لنفسه أولاً ولجمهوره الذي أصبح يتهافت على معارضه ويقتني لوحاته.. لم يكن يعكر هدوءه وتركيزه ذلك أي شيء.. فهو اعتاد على مشاهد العقارب والثعابين وهوام الصحراء.. فالواضح أن الإنسان يخاف مما يجهله فقط، أما إذا اعتدت على شيء فسيفقد رهبته في نفسك حتى ولو كان مصاحبة الجن واللعب مع الشياطين.. كان لا يترك فرشاته من يده قط إلا في حال أن يجف حلقه عطشاً فيذهب مسرعاً إلى سيارته ذات الدفع الرباعي ليلتقط زجاجة المياه الملفوفة بالخيش المبلل لتحافظ على نسبة صغيرة من برودتها الخافتة.. يدفع المياه إلى حلقه دفعاً وينطلق سريعاً إلى لوحته ليغوص

في أعماق الصحراء البيضاء من جديد.. كان الأمر بالنسبة إليه كمتعة تناول الطعام لا تمل منها أبدًا، وعندما تتركه لعدة ساعات يضربك الجوع لتذهب وتتناوله من جديد حتى ولو لم يصبك الجوع وأصابك الإحباط أو الحزن أو حتى الفرح، فالطعام هو رفيقك الحنون؛ وكذلك الرسم لمدحت فراج.. فهو كان متذوقًا للفن عاشقًا للمغامرات وروح التحدي؛ تلك الأمور التي لم يجدها في وظائف القاهرة أو بزواجه من ابنة خالته وإنجابه ثلاثة أطفال.. كل تلك الأمور الروتينية كانت تقتله قبل أن تقتل شغفه.. فترك هذا كله وانطلق وراء شرارة الفن وروح التحدي.. كان يقاتل ويتعاش من بيع رسوماته، ولكن -كما تعلم- الفن لدينا غير مرغوب، ولا يصل بك أبدًا إلى حد الكفاف.. ولكن حينما تطارد حلمك ستجدك سعيدًا بما لديك ولو أقل القليل.. ظل مدحت على حاله هذا وقتًا طويلًا حتى انتصف النهار وهو مازال منهمكًا في رسمته التي أمامه لا تقاطعه أي هامة أو لامة.. ولكن في ظل انشغاله ذاك ترمى إلى سمعه صوت محرك سيارة يزأر من بعيد.. التفت إلى مصدر صوت السيارة القادمة من خلفه فوجد سيارة بيضاء تقطع الصحراء بسرعة ثابتة. ترقبها وهو حائر؛ من الذي حضر ليقطع خلوته مع الطبيعة الآن؟! توقفت السيارة بالقرب منه وهبط منها شخصان تقدا في اهتمام جهته، أحدهما أجنبي من ملامح وجهه الغربية، والآخر شعر بأنه يعرفه ولكنه لم يتذكره.. اقترب الرجلان منه وبادر أحدهما بتحيته وعلى وجهه ابتسامة عريضة، وهو يرفع يديه بالترحاب وينادي عليه بلهجة غير مصرية.. دقق مدحت في ملامح

الرجل غير مصدق: هل يكون هذا الرجل هو «يونس المهدي»؟
لم يتأكد من أنه هو إلا عندما احتضنه بحميمية وهو يحويه بلهجة أهل
المغرب العربي؛ هنا قطع الشك باليقين وتأكد أنه صديقه يونس المهدي
فأخذ يبادل له الترحاب الشديد وهو غير مصدق لرؤيته بعد السنوات
الخمس السابقة.. أخذ يونس بيده وهو قابض عليها تحت ذراعه متأبطاً
إياها وهو يحدثه مبتسماً وتطرقا إلى حديث ودي سريع دام لدقائق ثم
قطع حديثهما تقدم الرجل الأجنبي جهة مدحت وهو يصفحه، فأخذ
يونس يعرفه إلى صاحبه وهو مبتسم:

«صديقي مدحت.. أعرفك بالدكتور هانزل جرلي عالم فيزيائي
في جامعة ستانفورد، وهو نرويجي الجنسية».. تبادلوا المصافحة سريعاً
وأخذا يتحدثان معاً بحميمية ولكن أشعة الشمس المرهقة أجبرتهم على
اتخاذ مخبأ مؤقت داخل سيارة مدحت الذي رحب بهما وقام بإعطائهما
بعض زجاجات المياه التي معه فشربا في عجلة وهما مستمتعان، وأخذ
مدحت يراقبهما مندهشاً من زيارة يونس المفاجئة تلك.. هل هي
مصادفة من ترتيب القدر أم هي مقصودة؟ فبالطبع لا يكون القدر
كريماً هكذا بإعطائه التفاصيل الكاملة لمكانه وهو في وسط الصحراء
البيضاء في أقصى مكان في مصر.. فضوله القوي لم يمنعه من سؤال
يونس في الحال عن بعض ما يدور بخلده:

«أخبرني يا يونس هل أتيت من المغرب إلى مصر لكي تقابلني
خصيصاً أم أن الأمر محض مصادفة؟»..

«بالطبع يا صديقي لقد أتيت إلى مصر خصيصًا لرؤيتك، ولكن في نفس الوقت أتابع بعض الأعمال».. وأخذ يضحك ببلاهة.. وهانز بجواره لا يفهم من حديثهما شيئًا ولكن يضحك على ضحكهما.. تابع مدحت أسئلته الفضولية:

«كيف علمت مكاني هنا؟»..

«..أنا ذهبت لمنزلك بالقاهرة فأخبروني أنك في واحة الفراشة.. فسافرت إلى هناك وبحثت عن منصور البدوي الذي كان يصاحبنا في الماضي، ولكنني وجدته توفي -رحمة الله عليه- ولكن لحسن حظي كان ولده يعلم بوجودك بهذا المكان وهو الذي اصطحبنا إلى هنا»..

«أطل مدحت برأسه إلى خارج النافذة ليرى السائق بالسيارة الثانية فأشار إليه بيده، وبادله السائق تحيته.. ثم عاد إلى يونس وأخذ يتحدث..»
«أخبرني.. ماذا تريد مني يا صديقي؟ ما الذي جعلك تقطع تلك المسافة الكبيرة للغاية وتحضر هذا الأجنبي معك؟ بالتأكيد هناك شيء مهم خلف ذلك»..

«أنت شخص ذكي ولماح كما عهدتك يا مدحت.. بالفعل هناك شيء مهم أريد أن أخبرك به.. ولكن لا أفضل أن نتحدث الآن وبطني يزقزق شنبوره أو كما تقولون عصافيره.. لنأكل أولاً، لقد أحضرت بعض الطعام معي من الواحة لكي نأكل في الهواء النقي هذا والطبيعة الخلابة تلك»..

نظر مدحت في ساعة يده وتحدث إليهما.. حسناً لقد اقترب الليل من الهبوط.. لنُقمُ نَحِيماً هنا الليلة ونتحدث معاً حتى الصباح.. فلقد

أوحشتني جلساتك وتندراتك.. أريدك أن تخبرني عن أخبار منتخب المغرب وماذا فعل في كأس العالم في المكسيك.. أنا لم أتابع الأخبار للأسف».. رفع يونس يده فرحاً: «أوه.. لقد حققنا إنجازاً تاريخياً يا صديقي بتصدرنا المجموعة السادسة على حساب منتخبات قوية مثل المنتخب الإنجليزي والمنتخب البرتغالي، وبلغنا دور ثمن النهائي كأول منتخب عربي وإفريقي يصل إلى هذا الدور، وواجهنا منتخب ألمانيا الغربية».. أو ما يونس برأسه عابساً: «ولكننا انهزمنا بصعوبة شديدة بهدف من ركلة حرة غير مباشرة نفذها لوثر ماتيسوس بطريقة مباشرة، وخرج المنتخب المغربي مرفوع الرأس.. سوف أسرد لك كل شيء، ولكن بعد أن نتناول الطعام أولاً».. وأشار إلى الأجنبي بجواره: «هانز أكيد يسب أبويننا الآن لعدم تناوله الغداء حتى الآن!!».. أخذنا يضحكان وهانز يضحك معها وهو لا يفهم شيئاً.. ثم ترجلا من السيارة وأخرج مدحت معدات التخيم من صندوق سيارته وبدأ في تجهيز مخيمهم الليلي، وانضم إليهم البدوي سائق سيارة يونس في إعداد المخيم.. مرت عدة ساعات وهبط الليل فوق رؤوسهم وتجمعوا على نيران مخيمهم وهم يصنعون الشاي بالطريقة البدوية، وأخذنا يتناولان الحديث مرة أخرى ولكن بالإنجليزية حتى يشاركها هانز في حديثها ولا يفهم السائق البدوي ماذا يقولون.. أخذ الجميع يرتشف من أكواب الشاي الساخنة وفوق رؤوسهم تلمع حبات النجوم المتناثرة على أركان الأثير.. أخذ الجميع متكأه على سجيته بأوضاع أكثر أريحية عدا هانز الذي كان يجلس بوضع أكثر لياقة من الجميع.. أخذ مدحت يتطلع إلى السماء وهو يكاد ينشغل عن العالم بهذا المشهد البديع في

وسط الصحراء والسكون البديع الذي جعل الارتخاء يسري بجميع أنحاء جسده وكاد يستسلم للطبيعة وقوتها وينغمس في أحشائها لولا فضوله الشديد الذي كان يبعث برسائل كثيرة لعقله كل بضع لحظات أهمها: ما الذي أحضر يونس من المغرب بعد خمس سنوات لكي يراه هنا في الصحراء البيضاء؟! لم يتمالك نفسه وهو يرى يونس يضحك ويقهقه معه هانز وهما يتجاذبان أطراف الحديث وبجوارهما السائق البدوي يضحك على ضحكهما فقط دون أن يفهم شيئاً من حديثهما الإنجليزي.. فأطلق لجام لسانه في الحال موجهاً سؤاله المباشر القاطع: «ما الذي أحضرك من المغرب لكي تقابلني هنا الآن يا يونس؟..»

نظر إليه يونس مبتسماً: «جيد لقد كدت أن أنسى.. سوف أخبرك يا صديقي.. ولكن يجب أن أذكرك بصدقتنا القديمة التي امتدت لأكثر من 15 عاماً وأحلفك بها على أن ما سوف أخبرك به الآن سوف يكون طي الكتمان بيننا نحن الثلاثة.. أنا وأنت وصديقي هانز..»

شعر مدحت بالقلق من حديث يونس: «ماذا هنالك يا يونس؟ ماذا حدث؟ هل هناك شيء خطير؟..»

«لا تقلق يا مدحت.. الأمر ليس بالشيء الخطير ولكنه أمر سري للغاية.. أنت تعلم أنني أعمل بتجارة قطع غيار السيارات..»

أوماً مدحت بالإيجاب: «نعم أعلم ذلك.. ولقد تعرفت عليك بمصر عندما كنت تمارس تجارتك هنا وصرنا صديقين بعد ذلك..»

«نعم، ولكنني أخبرتك أيضاً بأني أمارس مجالاً آخر مربحاً للغاية ولكنه نادر وليس دائماً..»

أخذ مدحت يخبط جبهته بيده وهو يحاول أن يتذكر: «نعم..
مهم.. تلك ال... ماذا كان اسمها؟ لا أتذكر ولكنها كانت شيئاً
عن الصخور..»

أخذ يونس يقهقه بشدة.. «صخور.. ههههه.. هل هناك من يتاجر
بالصخور؟! اسمها تجارة النيازك.. نعم إنها صخور..» وظل يضحك
وهو يتابع حديثه مشيراً إلى السماء: «لكنها قادمة من الفضاء»..

لَوْح مدحت بيده وهو يدافع عن رأيه: «إذاً بالنهاية هي صخور..
أنت أخبرتني عن هذا الأمر من قبل ولكني لم أكن مهتماً كما تعلم.»

«إذاً أنصت إليّ جيداً.. النيازك تلك علم كبير ومنتشر في جميع
أنحاء العالم، ولكن باختصار هي صخور من معادن مختلفة مثل
الحديد والنيكل وغيره.. تكون على حجم كبير في الفضاء، وتمر في
طريقها جهة الأرض فتسحبها جاذبية الأرض إلى داخل الغلاف
الجوي فيحترق معظمها ويكون الشهب التي نراها دائماً بوضوح
بالليل لكن في بعض الأحيان يكون حجمها أكبر قليلاً ولا تحترق
بالكامل وتسقط في الصحراء على الأرض، وهنا تكون تلك النيازك
كنوزاً بالنسبة لنا وأنا ومن يعملون بهذا المجال غيري؛ لأن بعض تلك
النيازك تحمل بين طياتها معادن نادرة الوجود على كوكب الأرض
فتباع بالجرام وتكون أثمن من جرام الذهب.. وتتحدد قيمة تلك
النيازك تبعاً لعاملين دائماً.. الأول مدى ندرة وجود المعدن على كوكب
الأرض.. والثاني -وهو الأهم- متى سقط على كوكب الأرض؛ لأنه
عند مرور سنوات كثيرة يبدأ النيزك بفقدان عوامله الفضائية النادرة،

ويصبح صخرًا أرضيًا عاديًا ليست له قيمة؛ ولذلك نبحت دائمًا عن النيازك التي هبطت منذ زمن قريب على كوكب الأرض؛ لأن سمسرة النيازك وتجارها قد يشتركون الأونصة الواحدة منه بسعر يزيد 10 مرات على سعر الذهب.. وأنا أعمل بذلك المجال منذ زمن بعيد، وأصبحت الآن خبيرًا بأنواع تلك النيازك والصخور، وعلى معرفة بجميع العلماء والتجار الباحثين عنها بكل أنحاء العالم وأصبحت مدينتي الرشيدية قبلة لجميع الباحثين عن النيازك في أنحاء العالم أجمع»..

أخذت مدحت يحرك كفيه مستفسرًا.. «لقد أخبرتني بذلك أكثر من مرة وأخذت تتفاخر بأنك خبير يا سيدي الخبير.. أنا أعلم ذلك.. أخبرني بالإفادة.. لماذا أتيت إلى مصر؟ ولماذا تبحت عني؟»..

«أعتقد أن الموضوع أصبح معلومًا لديك.. لقد وجد أحد بدو الصحراء هنا في مصر عدة صخور نيزكية وقام بإرسالها إلى أحد السماسرة الذي أرسلها بدوره إلي.. وحينها لمحت بعيوني الخبيزة قطعة حجر صغيرة لا يتعدى وزنها 6 جرامات لونها أبيض ناصع وملمسها بارد ومختلف وصلبة للغاية.. شيء لم أر مثله من قبل.. لهذا قمت بعزل تلك الصخرة عن قريناتها، وقمت بمحاولة بيعها منفردة، وعرضتها على أكثر من عالم وتمنعت ببيعها إلى أن حصلت على عرض مغرٍ بالنهاية 200 دولار لتلك الصخرة.. وتعتبر تلك الصخرة أغلى شيء قمت ببيعه في حياتي كلها نظرًا لحجمها الصغير»..

أخذ مدحت يصفر متعجبًا: 200 دولار بقطعة صخر!! هذا شيء عجيب.. أقولها لك وبكل فخر.. إنك استطعت أن تباع له العتبة الخضراء..»

ضحك يونس: «العتبة الخضراء؟! هل تراني إسماعيل يس رحمه الله؟!» وأخذ الجميع يضحك، وأخذ البدوي يضحك معهم هو وهانز دون أن يفهما شيئًا مما يقولانه.. ثم أخذ يونس يحدثه بجديّة:

«انتظر يا صديقي لكي أخبرك الأغرّب؛ فقصتي لم تنته بعد.. لقد عاد إلي أحد التجار ليطلب مني أن أحضر له أي حجر مشابه للحجر الذي قمت ببيعه في مقابل 500 دولار في الجرام الواحد.. هل تتخيل 500 دولار في حجر مثل الذي كان معي كان سيكسبني 3000 دولار بصفقة واحدة.»

ظل مدحت ينظر إليه مندهشًا: «3000 دولار!! ما كل تلك الأموال؟! الدولار بـ2 جنيه الآن.. يعني هذا الحجر الصغير يساوي 6000 آلاف جنيه.. أنا لم أبع لوحه بحياتي كلها أكثر من ربع هذا المبلغ!!»..

ضحك يونس: «لا لم تنته الحكاية بعد.. فما زالت في بدايتها.. عندما وجدت هذا الرجل يريد أن يحصل على مثل هذا الحجر بيأس أو مضت عيون التاجر بداخلي، وقررت أن أماطله وأبحث أنا بنفسني عمّن يشتري هذا الحجر، وبالفعل بعد مجهود شاق وعدة أسابيع وصلت إلى السيد هانز جرلي وأصدقائه..» وأخذ يشير بيده إلى هانز بجواره الذي ابتسم إليه وهو يومئ برأسه مصدقًا على حديثه..

سأله مدحت في الحال: «هل مستر هانز تاجر نيازك أيضًا؟»..

يونس ساخرًا وهو يوميء برأسه نافيًا: «لا.. مستر هانز جرتي عالم فيزياء ولا يعلم أي شيء عن علم النيازك أو يفقه شيئًا به»..

مندهشًا: «وما علاقة عالم فيزيائي بتلك الصخرة إذا؟»..

أشار يونس بسبابته اليمنى وهو جالس جهة هانز: «هنا سادع السيد هانز يشرح الأمر بنفسه لك؛ فأنا لن أستطيع أن أفهمك؛ لأنني أفهم بالكاد ما قاله»..

أخذ هانز نفسًا عميقًا وعيون الجميع تترقبه.. مدحت متحفز ويونس متابع والبدوي يشعر بالجدية بحديثهم ولكنه لم يفهم أي شيء فأخذ يصب لهم أكواب الشاي مرة أخرى.. فتابع هانز حديثه وهو ينظر إلى مدحت: «هل سمعت عن مختبر سيرن سيدي؟»..

أخذ مدحت يهز رأسه نافيًا: «لا لم أسمع عنه في حياتي.. أنا آسف»..

أشاح هانز إليه بيده مداعبًا: «لا تقلق فجميع من لا يهتم بالفيزياء لم يسمع عنه.. سيرن CERN هو اختصار للمنظمة الأوروبية للأبحاث النووية، وهو يقع على الحدود بين سويسرا وفرنسا، وهو مختبر مختص بعلوم الفيزياء والطاقة النووية وما يشابهها.. وأنا أعمل باحثًا هناك منذ سبعة أعوام.. بدأت أنا وزملاء لي في العمل على مشروع جديد تمامًا وي طرح بشكل علمي للمرة الأولى ولكن قبل أن أخوض به هل عندك خلفية عن شيء يدعى المادة المضادة؟»..

مندهشًا: «مادة ماذا؟».. أجابه سريعًا: «المادة المضادة antimatter»..

«لا لم أسمع عنها من قبل في حياتي..»..

«حسنًا سوف أضطر أن أشرح لك الأمر من بدايته، ولكن أتمنى أن
تركز بشدة معي؛ لأن هذا الأمر مهم للغاية..»..

اعتدل مدحت في جلسته وأصغى باهتمام، بينما البدوي ينظر إليهم
باهتمام أيضًا على الرغم من عدم فهمه شيئًا مما يدور حوله، وأخذ
يونس يبتسم وهو يلاحظ علامات تصنع الاهتمام على وجه البدوي
الشاب.. شبك هانز كفيه أمامه وأخذ يشرح لمدحت باهتمام: «المادة
هي -طبعًا- المكونة لكل شيء حولنا، ولنفترض أن المادة تمثل كف
يدي اليمنى.. تلك المادة هي مكونة من ذرات، وتلك الذرات تحتوي
على بروتونات وهي ذات شحنة موجبة، وإلكترونات ذات شحنة
سالبة تدور حول البروتونات.. وتلك هي المادة التي خلق منها كل
شيء في كوننا.. أما المادة المضادة فهي عكس المادة العادية؛ أي إنها
تتكون من ذرات أيضًا ولكن يحدث العكس بداخلها بحيث تحتوي
على بروتونات سالبة وإلكترونات موجبة.. وهي تشكل كونًا بأكمله
مثل كوننا ولكن عكسنا؛ أي إننا أنا وأنت ويونس وهذا الشاب معنا
متواجدون ومتماثلون بالضبط في المادة المضادة لكننا لا نراهم لأننا
بالنسبة لهم أيضًا مادة مضادة.. هنا سوف يُطرح سؤالان في عقولنا
الآن وهما: ما أهمية تلك المادة المضادة لنا كبشر؟ والثاني: ما الدليل على
وجودها من الأصل؟»..

أخذ مدحت يوميء برأسه مصدقًا على قوله.. فتابع هانز حديثه..
بعد أن التقط حجرتين من الأرض أسفل منهم وأمسك في كل يد

بحجر «أترى هذين الحجرين عندما أجعلهما يلامسان بعضهما البعض ماذا سيحدث؟ لن يحدث أي شيء؛ لأن الحجرين مصنوعان من المادة الطبيعية التي تكون ذراتها موجبة الشحنة وأنت تعلم أن الشحنات الموجبة أو السالبة المتشابهة تتنافر مثل المغناطيس.. لكن وليكن أحد الحجرين من المادة العادية والثاني من المادة المضادة عندما يتلامسان سوف يتجاذبان لأن أحدهما بشحنة موجبة والآخر بشحنة سالبة فيتجاذبان مثل المغناطيس، وهنا سوف يندمجان وينتج عن هذين الحجرين الصغيرين طاقة ضخمة للغاية أكثر 20 مرة من الطاقة التي يتم إنتاجها للذهاب بمركبة فضائية للفضاء.. فقط بحجرين صغيرين مثل هذين».. اندهش مدحت عند سماعه لحديث هانز الذي أخذ يكمل بعد أن ألقى الحجرين من يده: «أترى ماذا سيحدث من استخدام المادة المضادة؟ سوف تحدث ثورة تكنولوجية ضخمة، وسيتغير العالم الذي نعيش به إلى الأبد.. ولكن المشكلة هنا أن المادة المضادة هذه كانت نظرية علمية فقط ولم نجد أي صور لها في أي شكل من أشكال الطبيعة؛ ولهذا نحاول أن نصنعها في مختبرات سيرن، وبالفعل نجحنا في صنع مادة مضادة لمادة الهيدروجين بنسبة 2.0000000٪ ولكن بتكلفة خرافية تعدت ملايين الدولارات؛ ولهذا تعتبر المادة المضادة تلك أعلى مادة على وجه الأرض وفي تاريخ البشرية بأكمله..» أخذ مدحت يداعب ذقنه وهو يفكر بعمق: «هذا شيء عجيب للغاية.. العلم رائع ويتطور كل يوم.. لقد أثارت تلك المادة المضادة اهتمامي ولكن لم تخبرني ما علاقة يونس بذلك الأمر»..

أجابه يونس سريعاً وهو يعتدل بجلسته: «هنا نعود إلى تلك الصخرة التي أخبرتك عنها سابقاً، فلقد تم تحليل مكوناتها في مختبرات سيرن وهنا وجدوا شيئاً عجبياً»..

أخذ هانز يتحدث بفرح شديد وهو مثار ومتحمس: «لن تصدق ما حدث؛ فلقد وجدنا في تلك الصخرة الصغيرة 0.3 جرام من مادة الهيدروجين المضاد.. نعم الهيدروجين المضاد الذي تكلف صنع 2.0000000% منه ملايين الدولارات ولم نجده في الطبيعة أبداً.. لقد وجدناه في تلك الصخرة الصغيرة وبكمية لم نكن نحلم بتصنيعها أبداً ولكننا صرفنا ميزانيات ضخمة.. أرأيت ما نحن بصدده؟ هذا أعظم اكتشاف علمي على وجه الأرض، سوف يغير مجرى التاريخ للأبد»..

أخذ يونس يتابع حديثه وهو ينظر إلى مدحت: «وهنا ابتسم الحظ لي مرة أخرى؛ فبعد أن علمت بأهمية تلك الصخرة اتفقت مع السيد هانز على أني سأبحث عن أي مواد مثلها مرة أخرى، وسوف أبيعها له بمبلغ جيد للغاية.. أنا أحب العلم بالفعل.. لكنني أعشق النقود»..

أخذ مدحت يضحك من حديثه. «ومن الذي لا يعشقها يا صديقي؟! فهي لغة العصر الآن.. ولكن كيف ستحصل على مثل تلك الصخرة؟ فأنت أبلغتني بأن تلك الأشياء نادره لأنها تسقط من الفضاء»..

«نعم هذا شيء نادر للغاية ولكني اندهشت من شيء أبلغني به مستر هانز وزملائه، وهو أن ذلك الحجر ليس من الفضاء؛ بل إنه أرضي؛ لأن خصائصه أرضيه وليست فضائية مثل النيازك التي تسقط عادة من

الفضاء، وكان لهذا شيئاً عجيبيّاً؛ لأننا بالفعل لم نجد أي صخرة بمثل تلك الخصائص من قبل فهي نادرة للغاية.. وهنا أثار الأمر اهتمامي أكثر وأخذت أبحث عن وسطائي وعملائي حتى استطعت الوصول إلى الشخص الذي وجد تلك الصخرة واسمه سلمان الجهني، وعلمت أنه من قبيلة مشهورة تسمى جهينة، وذهبت إليه وطلبت منه دون أن أبدي اهتمامي بالصخرة البيضاء بعض الصخور ومنها الصخرة البيضاء، وأخبرني أن الصخرة البيضاء موجود مثلها صخرة بحجم كبير إذا رغبت لكنها بداخل كهف ناءٍ، وله فتحة صغيرة، وأنه حاول أن يخرج الصخرة فلم يستطع، وحاول أن يقسمها إلى قطع أصغر فلم يستطع؛ لأنها صلبة للغاية، وكل ما وجدته هي تلك الشظية الصغيرة التي استطاع أن يجدها بجوارها.. هنا لم أستطع أن أخفي فرحتي ولعبت الأموال برأسي فطلبت منه أن يبيعه لي وأن يرشدني لها وأنا سوف أعطيه مبلغ 5000 دولار.. رقص الرجل طرباً واتفقنا أن نتقابل بعد أسبوعين ذهبت خلالهما للاتفاق مع مختبر سيرن على مبلغ أتعابي، وطلب السيد هانز أن يحضر معي لكي يتأكد من أن تلك الصخرة هي المطابقة للصخرة السابقة.. ونظرًا لأن هذا الأمر كله في مصر أردت أن أحضر معي لأنك صديقي المغامر الرائع وأدعوك للذهاب معنا لكي نعيد مغامراتنا السابقة التي كنا نقوم بها في جبال الطور وفي ربوع سيناء، وفي نفس الوقت تحصل على مبلغ مالي جيد.. ولهذا أنا هنا الآن يا صديقي.. أخبرني ما قولك؟..»

أخذ مدحت يفكر قليلاً ثم ابتسم: «ماذا تنتظر مني أن أقول.. لم تعلم كم كانت حياتي رتيبة منذ أن سافرت إلى المغرب يا يونس.. هل تعتقد بأن مدحت فراج سوف يرفض عرضاً لمغامرة شيقة مثل ما قلته لي الآن؟! أنا معك بكل تأكيد»..

«كنت أعلم بأنك لن تتردد في خوض تلك المغامرة معي.. سوف نستعيد أيامنا القديمة مرة أخرى يا صديقي.. حسناً غداً صباحاً سنعود إلى الفرافرة ونحضر طعاماً ومستلزمات سفرنا ثم نذهب إلى كهف السباحين يوم الخميس لنقابل سلمان الجهني ليصطحبنا إلى مكان تلك الصخرة.. ولكن حذارٍ أن يتفلت لسانك بأي شيء عن ذلك الأمر.. فلا يوجد مخلوق يعلم عن تلك الرحلة كاملة إلا أنا وأنت ومستر هانز وسلمان فقط»..

ابتسم مدحت وهو سعيد ومتحمس للغاية ممّا سمعه منذ قليل وكيف بعث القدر له مغامرة شيقة في طريقه من جديد، وأخذ يتسامران طوال الليل ويتحدثان عن كأس العالم وما حققه المغرب من إنجاز، وعن الاستفتاء الرئاسي المصري وفوز مبارك بنسبة 97٪ من عدد الأصوات واستمراره في الحكم لفترة ثانية على الرغم من أنه أعلن من قبل أنه لن يترشح لفترة ثانية.. وأخذوا يضحكان ويتندران لفترة طويلة..

* * *

(تحت الركاب)

عاد الجميع معاً إلى واحة الفرافرة وأخذوا يستعدون لمغامرتهم القادمة في كتمان شديد؛ فقاموا بجمع الكثير من المياه العذبة والطعام ومستلزماتهم وتوجهوا إلى جهة الكهف لمقابلة مرشدهم البدوي سلمان الجهني.. انطلقوا إلى كهف السباحين الذي اشتهر بهذا الاسم نظراً لوجود رسومات لأشخاص يسبحون نقشت على الصخور منذ أكثر من 10.000 سنة مضت.

وكهف السباحين هو كهف يقع في هضبة الجلف الكبير في الصحراء الغربية بداخل محافظة الوادي الجديد جنوب غرب مصر بالقرب من الحدود مع ليبيا، وقد تم اكتشاف الكهف في أكتوبر 1933 من قبل المستكشف المجري لازلو ألماسي.. انطلق الجميع بسيارة دفع رباعي بيضاء ومحمل فوق شبكتها الكثير من الحقائب والمعدات التي يحتاجونها، ووقفوا على بعد 100 متر تقريباً من كهف السباحين الذي كان بداخله بعض الأجانب يشاهدون محتوياته بانبهار شديد ويتهامسون مندهشين من روعته.. وقف هانز ومدحت ويونس بداخل الكهف الذي كان عبارة عن تجويف بصخرة ضخمة للغاية ومرسوم على حوائطه باللون الأحمر رسومات لأشخاص يسبحون ويطاردون أسماكاً أو حيتاناً؛ ولذلك أطلق عليه اسم كهف السباحين.

وقف الجميع يشاهد بانبهار تلك الرسومات البدائية الرائعة التي تعدى عمرها ما لا يقل عن 10000 عام وكان أكثرهم انبهاراً هو مدحت فراج بالطبع؛ لأنه فنان قلباً وقالباً، وانبهر من درجة الألوان التي ما زالت متماسكة متحدية عوامل الزمان والمكان، وأخذ يسبح مع السباحين على الحوائط وهو يرسم في مخيلته ما كان يفعله هؤلاء المصريون منذ آلاف السنين وما جعلهم يرسمون بحاراً وأسماكاً وهم في قلب الصحراء الغربية.. إذاً كان هذا المكان بالقرب من بحار أو مجارٍ مائية في ذلك الوقت.. وراح يأخذه خياله ليغوص ويغوص ويغوص في أعماق الكهف وحوائطه.. ولم يخرج من حالة انبهاره تلك إلا عندما نكزه يونس بكتفه وهو يشير إليه ويعرفه برجل بجواره علم مدحت على الفور أنه سليم الجهني من ملابسه وملامحه البدوية المعتادة.. فقام مدحت بتحيته سريعاً وبادله سليم تحية باردة، وفعل ذلك مع هانز أيضاً، وأخبرهم بلهجة أمرة بأن يتبعوه.. فخرج الجميع خلفه سريعاً وسألهم عن سياراتهم فأشاروا له إلى مكانها فذهب إليها في الحال، وأخبرهم بأنه سوف يقود السيارة لأنه هو الذي يعرف وجهتهم.. ترجم يونس حديث سليم إلى هانز ثم دلفوا جميعاً إلى داخل السيارة، وقبل أن ينطلقوا نظر سليم خلفه وهو يضع يده على مقود السيارة: «هل أحضرتم النقود؟» ابتسم يونس وتوجه بحديثه إلى هانز الذي كان يجلس بجوار سليم بالمقعد الأمامي بالإنجليزية: «سيد هانز سليم بجوارك يخبرني بأن هناك رائحة كريهة تنبعث منك ويسألك هل استحمت من قبل؟» نظر هانز بغضب شديد إلى سليم بجواره وهو يصرخ به غاضباً ويصب عليه جام غضبه بالنرويجية.. وسليم ينظر إليه

مندهشًا من رد فعل هانز الغريب بجواره فتحدث إلى يونس متسائلًا
«لماذا يصرخ هذا الأجنبي الأحمق هكذا؟»..

فلم يستطع يونس أن يكتفم ضحكه الشديد ومدحت ينظر له
مندهشًا مما فعله.. أخذ يونس يخبر سليم وهو يمنع ضحكاته بصعوبة:
«إنه يخبرك بأن مبلغ 5000 دولار كثير للغاية وأنت لا تستحق كل
ذلك المبلغ»..

نظر سليم غاضبًا إلى هانز وهو يصرخ به: «هكذا.. أترون ما أطلبه
كثيرًا؟ إذا فلتذهبوا للبحث أنتم في الصحراء بمفردكم أيها الملاعين»..
وقفز إلى خارج السيارة غاضبًا وأغلق الباب بقوة وعنف، فتحدث
هانز إلى يونس غاضبًا: «إلى أين يذهب ذلك البدوي اللعين؟..» أجابه
يونس ضاحكًا: «يقول إنه لن يستطيع القيادة وأنت بجواره نظرًا
لرائحتك الكريهة».. هبط هانز من السيارة في الحال وهو غاضب
بشدة ويصرخ بالإنجليزية المختلطة بالنرويجية على سليم الذي نظر
إليه غاضبًا هو أيضًا وأخذ يصرخ عليه بالعربية وكلاهما لا يفقه
حديث الآخر.. أخذ يونس يضحك بشدة وهو يشاهدتهما يتبادلان
الصراخ.. سأله مدحت مندهشًا: «لماذا فعلت ذلك يا يونس؛ هل
جنت؟ لقد جعلت الاثنين غاضبين للغاية».. ابتسم له يونس في
ثقة: «لا لم أجن بل لقد فعلت الشيء الصحيح.. هكذا لن يكون هانز
وسليم على وفاق، ولن يحاول هانز أن يتفاوض مع سليم من خلف
ظهرنا.. وسليم أيضًا عندما يجد أن المبلغ الذي طلبه قد يصنع مشاكل
معنا.. لن يقوم بابتزازنا لكي يأخذ مبلغًا أكثر مما اتفقنا عليه معه لكي

يرشدنا إلى مكان الصخرة».. نظر إليه مدحت مندهشًا باسمًا: «يا لك من داهية! إن ما فعلته لا يقدر على صنعه الشيطان».. ابتسم يونس ساخرًا: «بالطبع.. فالشيطان لم يعمل بالتجارة يا صديقي».

وهبط يونس من السيارة سريعًا وأخذ يتحدث إلى هانز بالإنجليزية: «مستر هانز لا تأخذ على حديثه فإنه بدوي لا يفقه معنى رائحة العطور الفاخرة التي تضعها.. فلتجلس أنت بجوار مدحت في السيارة بالخلف وسوف اجلس أنا بجواره».. اعترض هانز غاضبًا على إهانته.. فتابع يونس حديثه إليه: «مستر هانز هذا شيء قليل بالنسبة للاكتشاف العظيم الذي ستجده.. ألم تخبرني أنه سيغير العالم؟ ألا تضحى من أجل تغيير العالم؟ اجلس في الخلف ولا تتعامل معه مطلقًا واطركني أنا أتعامل معه».. أخذ هانز نفسًا عميقًا وهو يحاول استعادة هدوئه واتجه إلى مدحت الذي كان يشاهد يونس وهو يتجه سريعًا جهة سليم ويحدثه مبتسمًا: «لا تقلق يا حاج سليم.. لقد اتفقت مع هذا الأجنبي البخيل على الأمر وسوف يعطيك 5000 دولار كما اتفقنا.. ولكن لا تنس أن هذا المبلغ ضخم للغاية وأنت تعلم ذلك».. ثم وضع يده في جيبه وأخرج رزمة من النقود وأعطاهها لسليم: «أمسك 2000 دولار بين يديك الآن.. والثلاثة الباقية بعد أن نعود معًا ومعنا الصخرة».. ابتسم سليم وأخذ يعد النقود بفرح شديد، وعندما انتهى عاد سريعًا إلى مقعد السيارة وانتظر جلوس يونس بجواره الذي نظر إلى مدحت وهو يرفع إبهاميه الاثنتين بعلامة أوكيه مبتسمًا، ثم جلس بجوار سليم الذي انطلق في الحال إلى جهة غير معلومة للجميع سواه..

انطلق الجميع في الساعة الواحدة ظهرًا تقريبًا.. انتابهم الحر الشديد، والهواء الساخن يلفح أجسادهم، وأخذ مدحت يخرج علبة سجائر جيتان التي اكتسبت شهرة كبيرة في مصر حينما أعلن عنها عمر الشريف منذ خمس سنوات مضت، وأخذ يوزع بعضها على يونس وسليم وهانز فقبلها الجميع ولكن اعتذر هانز وأخرج سجائره من علبته، وأخذ الجميع ينفث قلقه وتوتره مع أنفاس السيجارة.. مرت 4 ساعات كاملة وهم بطريقهم لا يشاهدون إلا الكثبان الرملية والصخور في كل مكان وينتظرون أن يصلوا إلى وجهتهم، ولكنهم لم يكونوا على علم بنية سليم ألا يذهب بهم إلى ذلك المكان هذا اليوم؛ فلقد أخذ يدور بهم بأنحاء الصحراء التي يحفظها عن ظهر قلب؛ لكي يجعلهم يشعرون بأن المكان بعيد للغاية عنهم، ولكي لا يحاولوا معرفة الطريق إلى كنزه المخفي.. وظل يدور ويدور بالصحراء حتى حل الليل عليهم فأخبرهم بأن يتوقفوا في مكان قريب لكي يخيّموا لأنه لا يجذب السفر في أنحاء الصحراء بالليل.. تناول الجميع الطعام وأخذوا يرتشفون أكواب الشاي ولكن سليم لم يتحدث معهم كثيرًا ولم يكن ودودًا إليهم.. شعر الجميع بتعب السفر ينهش بأجسادهم، وغط الجميع في النوم بالقرب من السيارة ونيران المخيم بجوارهم حتى تمنع الحيوانات المفترسة من الاقتراب منهم.. مع أول بزوغ لضوء الفجر كان سليم في عز نشاطه وقام بإيقاظ الجميع من نومهم وتناولوا الإفطار وارتشفوا الشاي، ولم تكن الساعة تعدت السادسة صباحًا إلا والجميع منطلقون بالطريق مرة أخرى.. لم تمر نصف ساعة تلك المرة حتى توقف سليم بالسيارة بأعلى تل مرتفع عن الأرض قليلًا

وخرج من السيارة وهو يحدث يونس: «لن نستطيع التقدم بالسيارة أكثر من ذلك؛ لأن هناك الكثير من العوائق بطريقنا، فلتأخذوا بعض الأشياء التي سنحتاجها معنا في الكهف».. حمل الجميع بعض الأشياء التي يحتاجونها، وحمل مدحت أدواته: الفُرَش والألوان وبعض الاسكتشات الورقية والأقلام ودقات قلبه تكاد تُسمع الحاضرين بجواره من الإثارة والتشوق لما هو قادم.. حمل سليم بعض المياه والطعام معه وتقدم الطريق أمامهم.. الساعة اقتربت من الساعة والنصف تقريباً عندما وصلوا إلى مقصدهم، فقد هبطوا منحدرًا رملياً كبيراً وتقدموا إلى جهة جبل صغير أمامهم محاط بالكثبان الرملية الكثيفة.. توقف أمامهم سليم فجأة وهو يتسّم ثم أدار ظهره لمرافقيه وحدثهم بثقة: «لقد وصلنا بالسلامة»..

أخذ الجميع ينظر إليه مندهشين كيف وصلوا.. إنهم يقفون أمام كتلة صخرية في وسط الرمال ولا يوجد أي أثر لأي كهف أمامهم.. فقال يونس: «وصلنا إلى أين؟ أين الكهف الذي حدثنا عنه؟!»..

ابتسم سليم بثقة شديدة وأشار إليه بجانب رأسه وهو يهم بالمغادرة: «هيا اتبعوني».. تبعوه في الحال وهم يشعرون بالفضول من ثقته الغريبة تلك.. أخذ سليم يتحرك مسافة أربعة أمتار تقريباً من يمين المنطقة الجبلية بين الرمال وتوقف أمام صخرة بحجم متوسط.. ثم ترك الأمتعة التي يحملها بيده بجوار الصخرة، ثم قام بزحزحتها بصعوبة والجميع يراقب ما يفعل.. في خلال دقائق أزاح تلك الصخرة إلى اليسار قليلاً ليظهر خلفها تجويف مظلم في نهاية تلك الكتلة

الصخرية بعرض متر تقريباً وارتفاع خمسين سنتيمراً، فابتسم سليم وهو يشير إليهم بيده: «ها هو مدخل الكهف.. أنا أغلقته في السابق حتى لا تسكنه الضباع والذئاب، فقد اكتشفت ذلك الكهف عندما كنت أطارد أحد الضباع ووجدته يتخذ هذا الكهف مسكناً له»..

طلب هانز من يونس أن يترجم له ما يقوله سليم، فترجم له حديثه، بينما سأل مدحت سليم مندهشاً: «أتصطاد الذئاب والضباع؟ هل تستطيع صيد تلك الكائنات المفترسة؟».. ابتسم سليم بثقة: «أنا سيد تلك الصحراء.. أستطيع العيش هنا لسنوات إذا رغبت بدون أي طعام أو شراب؛ لأنني أستطيع الحصول عليهما من الصحراء»..

نظر الجميع إلى سليم بانبهار؛ حتى هانز الذي كان يشعر بالاندهاش من سليم ولكنه في نفس الوقت كان ساخطاً عليه لإهانته إياه كما أخبره يونس من قبل.. لاحظ سليم نظرات الإعجاب في عيون مرافقيه فضحك مفتخراً وحدثهم بثقة: «انتظروني قليلاً.. سوف أدخل إلى الكهف الآن لكي أرى هل هناك أي ضواري أو ثعابين.. وعندما أنتهي سأخبركم لكي تدخلوا أنتم أيضاً.»

ثم قام سليم بالزحف على بطنه ويديه لكي يدخل الكهف وهو يسمي الله ويحوقل، وأخذ معه قطعة خشبية بين يديه وبها خيش مغطى بالزيت قابل للاشتعال.. خلال دقيقة واحدة كان سليم قد اختفى من أمامهم.. مرت لحظات ثم أطل عليهم برأسه من جديد وهو متسخ للغاية ويخبرهم بأن يدخلوا خلفه، ثم اختفى بالداخل مرة أخرى.. انتابت الإثارة قلوب الجميع، وتدفق الأدرينالين إلى أجسادهم؛ فتلك

لحظة الحسم.. بالنسبة ليونس هذا موعد النقود، ولمدحت هذه روح المغامرة والاستكشاف، أما لهانز فهذه ثورة العلم.. كانت دوافع الجميع مختلفة ولكن هدفهم واحد.. تقدم يونس في الحال وهو يحمل المعدات وأنزلها من على ظهره وكتفيه وأخبر يونس بأن يلتقط الأدوات منه، وأخذ يرسلها إليه دفعة دفعة وسط الظلام، ثم زحف على الأرض بملابسه ودلف إلى داخل الفتحة المظلمة التي ما إن وطئ داخلها حتى شعر بأن بالهواء أبرد قليلاً من الهواء الساخن خلفه، ولكن هناك رائحة غريبة ليست محبة ولكنها ليست كريهة في نفس الوقت.. تحت يديه وجسده ملمس صخري ونبوءات صخرية فأخذ يتقدم في حرص وسط كل هذا الظلام، ووجد نفسه يميل بجسده إلى الأسفل كلما تقدم إلى داخل الكهف، ثم وجد نفسه يسقط على الأرض فجأة بمدخل الكهف الضيق.. شعر بالهلع حينها ولكنه اطمأن قليلاً عندما سمع ضحك سليم خلفه، فنظر إليه سريعاً ليجده واقفاً أمامه يحمل شعلة نيران موقدة وهو يقف بمنتصف الكهف ويحدثه: «ههههههه لقد سقطت.. قف.. قف.. فما يسقط إلا الشاطر».. وقف يونس بسرعة بعد أن اطمأن وأخذ ينفض ملابسه من الغبار والرمال التي علقت بها.. ثم سمع صوت سقوط مدحت وسقوط هانز خلفه فأخذ يضحك من مشهدهم هو أيضاً مثلما فعل سليم.. أعطى سليم الشعلة ليونس ثم قام بفتح إحدى حقائبه وأخرج منها شعلتين أخريين وأشعلهما من الشعلة الأولى، وأعطى واحدة لمدحت وأخذ الأخرى ولم يعطها لهانز الذي ظل ينظر إليه مغتاظاً.. نظر مدحت إلى الكهف لأول مرة بعد أن أصبحت الإضاءة جيدة قليلاً فوجده كبيراً؛ تقريباً بعرض 20 متراً

وارتفاع 5 أمتار.. اقترب مدحت من حوائط الكهف منبهراً عندما رأى رسومات على الحائط.. رسومات كثيرة باللون الأحمر لأناس يرقصون ويلهون مع الحيوانات والكثير من الأيدي الصغيرة للغاية في كل مكان تشبه أيدي الأطفال، إلا أن بعضها كان صغيراً للغاية أصغر من أيدي الأطفال.. ووجد بعض الحيوانات المرسومة بلا رءوس.. أخذ مدحت ينظر متحمساً للغاية وبجواره يونس وهانز يشاهدان الرسومات بانبهار، وسليم يشاهدهم ويضحك.. أخذ مدحت يصرخ بهم منبهراً مثل الأطفال عندما يشاهدون عصفوراً يطير لأول مرة: «أرأيتم يا شباب.. انظروا إلى تلك الرسومات الرائعة.. إن هذا اكتشاف عظيم.. أتدري ماذا سيحدث عندما نخبر العالم عن تلك الرسومات والاكتشافات الرائعة؟ نحن أول من اكتشف هذا الكهف الرائع منذ آلاف السنين.. إنه اكتشاف مذهل مثل اكتشاف كهف السباحين في الثلاثينيات.. لقد اكتشف كهف مثله أو قد يفوقه جمالاً بعد خمسين عاماً من الاكتشاف الأول».. ابتسم يونس وهو يحدثه: «نعم أعلم ذلك، ولقد أحضرتك معي في تلك الرحلة لكي أرى تلك الملامح الحمقاء التي تظهرها دائماً عندما تتحمس لشيء.. سوف نعلن عن الكهف للعالم بالتأكيد ولكن بعد أن نعثر على ما نبحت عنه.. توجه بحديثه إلى سليم: «أين الصخرة يا سليم؟»..

ابتسم سليم ثم أعطى لهم ظهره وأخذ يمر من فوق صف دائري من الأحجار المتوسطة على هيئة دائرة مكتملة بوسط الكهف، واتجه إلى جهة من أركان الكهف والكل يتابعه باهتمام، وأخذ يزيل رمالاً

كثيفة من فوق هذا الركن وقال لهانز بلهجة أمرية: فلتساعدني أيها الأجنبي الغبي.. فلم يفهم هانز ما يقوله.. أخذ يونس يساعده في إزاحة الرمال، وأخذ مدحت الشعلتين سريعاً من يدي سليم ويونس وحملها خلفها لكي ينير لهما، ووقف وراءهم هانز يتابع ما يفعلونه، وبعد لحظات بدأت الصخرة البيضاء في الظهور.. انتاب الجميع نوبة حماس شديدة وأبعدوا عنها الرمال لتظهر أمامهم كاملة وهي شامخة فوق شيء صخري عليه رسومات لبعض الأشخاص يلتفون حولها.. كانت الصخرة الغامضة البيضاء قابضة أمامهم ومنظرها يجعل الجميع يجلبها في احترام وتقدير، وشكلها الأقرب إلى الشكل الهرمي يضفي عليها هالة مقدسة، وملمسها البارد الغريب جعل الجميع يرغب بأن يلمسها كل بضع لحظات ليشعر بهذا الملمس المعدني الفريد.. أخذ هانز يتلمسها وهو يضحك بشدة ومتحمس وعيونه تفيض بالدموع: «إنها بالتأكيد هي.. نفس الملمس يا يونس.. نفس الشكل والملمس ودرجة الحرارة.. بين أيدينا ما ظنناه مستحيلاً لقرون طويلة.. إنها لحظة فارقة في تاريخ البشرية».. قالها هانز بعفوية ولكنه لم يكن يعلم بالفعل أن تلك اللحظة ستغير حياة البشرية إلى الأبد فيما بعد.. أخذ يونس يربت على كتف هانز: «ليس الآن وقت العواطف يا صديقي.. هيا بنا نخرج تلك الصخرة من هنا الآن.. ونبكي فيما بعد كما نشاء.. ساعدني بحملها».. وقام هانز ويونس بحملها، وكانت مفاجأتهما كبيرة عندما وجداها ليست ثقيلة وحملها بسهولة.. فصاح مندهشاً: «إنها خفيفة للغاية على الرغم من أن شكلها لا يوحي بذلك».. أجابه سليم في الحال: «والأغرب من ذلك أنها صلبة للغاية.. حاولت من

قبل أن أحطمها لقطع أصغر فلم أستطع» فترجم يونس كلام سليم لهانز الذي أخبره بأنهم يجب أن يخرجوا الصخرة الآن، وهم في معامل سيرن سوف يستطيعون فعل ذلك بسهولة.. حاول هانز ويونس حمل الصخرة إلى خارج مدخل الكهف فلم يستطيعا حيث كان حجمها أكبر من مدخل الكهف الصغير، أخذ سليم يشاهدهم وهو يضحك.. لقد أخبرتكم أنني لم أستطع أن أخرجها من الكهف ولم أستطع أن أحطمها كي أسهل خروجها».. قال يونس بضيق: «إذا ما العمل؟ يجب أن نخرج تلك الصخرة من هنا بأي طريقة».

ظل مدحت يتابعهم دون اكتراث وهو يشاهد الرسومات على الحائط بفضول ويرسم مثلها بقلمه في الاسكتش الخاص به.. حدثه هانز: «يجب أن نوسع مدخل الكهف قليلاً حتى نستطيع أن نخرج الصخرة بنجاح».. أجابه يونس سريعاً: «فكرة جيدة.. لكننا لم نحضر معاول أو شيئاً نستطيع تحطيم الصخور به».. فتوجه يونس بسؤال إلى سليم: «ألم تحضر معك معاول نستطيع تحطيم الصخور بها ونوسع الكهف قليلاً؟».. ابتسم سليم: لماذا معاول؟ أنا أحضرت معي الحل السحري لهذا».. ثم أخرج من حقيبته لفافة قماشية طويلة ثم قام بفتحها بعناية وأخرج منها أصبع ديناميت أمسكها بيده بحرفية وهو مبتسم: «هذا هو الحل السحري الذي أتعامل به منذ سنوات طويلة.. أستطيع أن أحضر ما أريد من المحاجر بسهولة وأصنع بها أي فتحات وبكل الأحجام بسهولة ويسر وبمفردي وبدون مساعدة من أحد.. سوف أضعه بالقرب من مدخل الكهف وأفجره فنوسع المدخل قليلاً».. نظر

هانز مصدومًا إلى سليم وتحدث إلى يونس: «هل يحمل هذا الأحمق ديناميت؟! هل أحضر معه ديناميت؟!» أجابه يونس سريعًا: «نعم».. فقفز هانز في الحال على يد سليم غاضبًا وانتزع الديناميت منها وهو يصرخ به: «أيها البدوي الأحمق.. هل تريد أن تنسفنا جميعًا بحملك المتفجرات أيها المجنون؟! «ابتسم سليم بثقة من رد فعل هانز وحدث يونس: «أخبر هذا الأجنبي الجبان بأني خبير في ذلك الأمر منذ زمن بعيد، وأتعامل مع جميع أنواع المتفجرات منذ أن كنت صغيرًا فقد كنت أعمل بالمحاجر في الجبال القريبة».. ترجم يونس حديثه إلى هانز الذي اعترض غاضبًا: «لا.. لن أسمح بأن يحمل بدوي غير متعلم مثل هذا الغبي شيئًا خطيرًا بيده مثل المتفجرات.. سوف نذهب لكي نحضر المعاول ونحطم تلك الصخور بأنفسنا».. ترجم يونس حديث هانز فتأفف سليم منه ثم أجابه: «حسنًا كما تريدون.. سوف نعود مرة أخرى ونحضر المعاول.. أنا أضع بعضها في مكان قريب على بعد 5 كيلو من هنا.. فليعطني الديناميت لكي أضعه بمكانه».. رفض هانز في الحال وأخذ يصرخ في يونس وهو ينظر إلى سليم غاضبًا: «لا.. لا أأتمن هذا البدوي الجاهل على شيء خطير مثل هذا، سوف أحتفظ به معي حتى أتخلص منه بالخارج.. فأنا العالم هنا وليس هو».. رضخ سليم لهانز وتركه مع إصبع الديناميت وأخبرهم أن يتبعوه.. وبدأ الخروج من الكهف وأخذ هانز يراقبه وهو يصعد من فتحة الكهف بمهارة.. بينما مدحت منهمك في رسم بعض الرسومات على الحوائط.. سأله يونس: «ألن تأتي معنا يا مدحت؟!».. «لا سانتظر عودتكم هنا وأرسم قليلاً حتى تعودوا ونخرج الصخرة جميعاً».. قام يونس بإخراج بعض

الأمّعة.. « جيد سوف أترك لك بعض الطعام والمياه وسوف أعود بالمعاول قريباً».. قام هانز بمحاولة الصعود إلى فتحة الكهف الصغيرة التي كانت تضيق كلما تقدم أكثر وأنهكت جسده الضخم البدين وهو يحمل إصبع الديناميت بيده اليمنى كالطفل الصغير الخائف على لعبته بينما سليم يقف على فتحة الكهف ينظر إليه ضاحكاً وهو يشاهده يجاهد في الصعود.. ضحكات سليم الساخرة جعلت الدماء تغلي في رأس هانز الذي أخذ يزحف بقوة وعزم وهو يسب سليم بالنرويجية بأقذع مفردات اللغة وينعته بالبدوي الجاهل وأنه سوف ينتقم منه عندما يصعد.. أشار سليم إليه بأن يقذف له إصبع الديناميت بحرص حتى يستطيع الصعود بسهولة ولكن هانز شعر بالغضب أكثر عندما شاهد سليم يتندر عليه وصرخ به غاضباً: «أيها البدوي اللعين سوف أقتلك عندما أخرج من هنا.. سوف أعلمك كيف تتعامل مع العلماء أيها الجاهل».. وضرب يده بغضب على الأرض وهو يصعد دون أن يشعر بيده التي تحمل الديناميت، وهنا لم يشعر هانز بأي شيء لأن إصبع الديناميت قد انفجرت في الحال وتهدمت صخور الكهف وأصبح الجميع تحت الركام..

* * *

(العائد)

منذ خمس سنوات وعلى شاطئ مدينة الإسكندرية المزدهم كان هناك شابان شقيقان يجلسان مع عائلتهما على رمال أحد الشواطئ العمومية تحت إحدى المظلات الكبيرة والمقاعد الخشبية بجوارهم وتجلس زوجتاها بجوارهما تحضران الطعام للأطفال الجائعين المتخمين بالتعب من الركض تحت الشمس وفي قلب المياه طوال النهار..

الأخ الأكبر يدعى عزت فهمي، والأخ الأصغر يوسف فهمي الذي كان على الرغم من أنه يحمل لقب الأصغر ولكنه كان يحمل الجسد الأكبر والأضخم في الأسرة.. ظل يوسف وعزت ينظران إلى الأطفال وهم يلهون ويركضون حولهم وعلى القرب من الشاطئ وجميع الرواد تكسوهم حمرة أشعة الشمس التي ستتحول بعد قليل إلى سمرة مميزة تفضح صاحبها في أي مكان.. أخذت زوجة يوسف تصنع بعض الشطائر وتمررها لزوجها الذي يمررها إلى أخيه الأكبر عزت قبل أن يتناول أي شيء منها.. فهو الأحق بذلك لأنه هو الذي يقوم باستضافتهم كل عام على الشاطئ لكي يحضوا بلقب مصيفين.. فعزت يعمل بشركة بتروك كبيرة منذ سنوات عديدة وعلى الرغم من وظيفته الصغيرة العادية كعامل هناك إلا أنها تدر له دخلاً جيداً.. دائماً ما كان

يشارك أسرته وأسرته أخيه به.. فيوسف بالنسبة لعزت الأخ الأصغر والابن الأول له؛ فلقد حمل مسئوليته منذ أن توفي والده وهما صغيران، وأخذ على عاتقه تربيته والإنفاق عليه.. ولم ينسها له أخوه يوسف أبدًا.. لم ينس كيف ضحى أخوه الأكبر بدراسته وعمل مبكرًا لكي ينفق على عائلته، ولكي يجعله هو يواصل دراسته الطويلة ويحصل في النهاية على بكالوريوس التجارة وأصبح يعمل مُدخل بيانات في شركة جيدة عن طريق أحد معارف أخيه عزت أيضًا.. وأنه لم يبخل عليه بشيء عندما أراد أن يتزوج من زميلته بالكلية، وبالفعل وفر له كل شيء، ولم يجعله يعاني في زواجه مثل كل شباب جيله.. كانت العلاقة بين الاثنين علاقة تكاملية وليست تقليدية.. فلا تسمع ذكرًا لعزت بدون يوسف، ولا ذكرًا ليوسف بدون عزت.. مرت السنون وهما يعيشان حياة جيدة للغاية، وفي مدينة آمنة متكاملة كجهينة.. أنجب عزت ثلاثة أطفال: ولدًا وفتاتين، وأنجب يوسف طفلين: ولدًا وفتاة، وكان كل شيء على ما يرام حتى ذلك اليوم الذي ذهب فيه إلى الإسكندرية للاستحمام وقضاء أسبوع هناك مر منه ثلاثة أيام وأصبحوا في اليوم الرابع.. أخذوا يتناولان الشطائر مع أطفالهما وزوجتيهما في أمان وسلام.. حتى أتى أحمد الابن الأكبر لعزت وأخبره بأنه كان يلعب بالكرة مع ابنة عمه وسقطت الكرة في المياه بعيدًا، وأنه يريد منه أن يحضرها.. نهض يوسف في الحال وبنشاط شديد أخبرهم أنه سوف يذهب ليحضرها.. أمسك عزت بيده وهو مبتسم وأخبره أن ينهي الشطيرة التي في يده أولاً وهو سوف يذهب ليحضر الكرة سريعًا وسيعود.. امثل يوسف لكلام أخيه الأكبر فعاد إلى مكانه وذهب

عزت مع أحمد ليحضر له الكرة.. أخذ يوسف يتناول الشطيرة تلو الشطيرة.. ثم أتبعها ببعض العصائر وبعض المياه الباردة، وأخذ في الاسترخاء والاستمتاع بلحظات الظل، ونسيم البحر المنعش يداعب جسده وهو على الرمال.. لم يخرج من حالة الاستجمام تلك إلا صوت أحمد الصغير يتحدث بلوم: لقد ذهب أبي ليحضر الكرة من المياه ولم يعد حتى الآن.. أوقعت كلمات الصغير تلك القلق في قلب يوسف الذي قفز من مكانه مسرعاً وهو يصطحب أحمد ليخبره أين ذهب أبوه لبحث عن الكرة وعيون زوجته وزوجة عزت تتبعه في قلق.. ركض يوسف على الشاطئ يبحث في الماء عن عزت بقلق شديد.. جال بعينه متفحصاً جميع رواد الشاطئ من الشباب والأطفال والنساء في الماء فلم يجده.. شعر بفجوة الخوف تتسع في قلبه.. قفز بجسده في الحال وسط المياه يخترق الأمواج بقوة وعزم وراح يجول بعينه في كل مكان يبحث عن أخيه فلم يجده.. أخذ يصرخ عليه في المياه «عزت.. أخي.. أين أنت؟».. ولكن لم يجد مجيباً.. أخذ يغطس في الماء وهو يفتح عينيه والمياه المالحة تحرقها بشدة وهو لا يبالي ولكنه لم يستطع رؤيته شيء.. يصعد إلى سطح المياه وهو يصرخ ثانية: «عزت.. أين أنت يا أخي».. أفعاله وأصواته جمعت الفضوليين حوله في الماء.. أخذ الصغير أحمد يبكي على الشاطئ وتجمع حوله الفضوليين يسألونه عما يبكيه.. اقتربت زوجة عزت تحتضن أحمد وتجمع أولادها وهي تصرخ خائفة على الشاطئ تنادي زوجها.. أخذت زوجة يوسف وبعض النسوة يطمئننها ويواسينها.. قفز بعض الشباب المتحمس خلف يوسف وهو يبحث وظلوا يبحثون معه بهمة عن عزت.. حدث

اضطراب في الشاطئ وانسحبت العائلات منه خوفًا مما يحدث، وتقدم العمال ومسؤولو الشاطئ والتفوا حول العائلة يستفهمون عما حدث..

مرت ساعتان أخذ السباحون المتمرسون والهواة يبحثون عن عزت بحماسة شديدة للغاية سرعان ما فترت عندما اقتربت الشمس من المغيب.. علمت الشرطة بالأمر وأخذوا يطمئنون يوسف وأسرته أنهم سوف يجدونه، وقام غطاسون محترفون بالبحث عنه فلم يجدوه..

تكرر الأمر لليوم الثاني وبعد إلحاح من يوسف كرره لليوم الثالث على مضض لمدة طويلة، ولكن سرعان ما كانوا يعودون يحملون خيبة الأمل ويلقونها على رأس يوسف: «لم نجده.. يبدو أنه غرق وسحب التيار جسده بعيدًا.. البقاء لله..» هنا ظهر ما كان يخفيه يوسف في قلبه ويطبق عليه بداخله بقوة.. خوفه من أن يكون أخوه عزت قد مات..

كان يقمع أي فكرة تصعد إلى رأسه عن هذا الأمر بقوة، لكنه لم يستطع أن يتحمل أن يلقيها أحدهم على مسامحة.. إذا الأمر حقيقي.. عزت قد مات.. هنا انهار يوسف وانهارت أسرته وأسرته عزت.. ظلوا المدة ثلاثة أيام وهم في حزن شديد وكآبة.. لم يستطع أن يمكث في الإسكندرية بعد ذلك أو أن ينظر إلى البحر الذي كان سببًا في أخذ أخيه الكبير بعيدًا عنه.. عاد إلى مدينة جهينة وأخذ جميع سكان المدينة بقيادة عمدتها مازن يواسون يوسف وعائلته لمدة أسبوع كامل لم يتركوهم لحظة، ثم بعد ذلك انشغل الجميع في أمورهم وسط استنكار يوسف الذي كان يرقبهم غاضبًا حانقًا وهم يعيشون حياتهم بأريحية تامة بينما أخوه عزت قد مات غريقًا.. لماذا لا يتوقف الكون لهذا الأمر الجلل؟ فالحياة لا يمكن أن تستمر بدون عزت.. هذا ما كان في عقل يوسف حينها..

ظل يفكر كثيراً أنه يجب أن يرحل عن هذه الدنيا ويجب أن يشارك أخاه مصيره، وفكر كثيراً في فعل ذلك لمرات عدة، لكنه كان ينظر بعين الشفقة إلى أطفاله الصغار ومن ثم يخاطب نفسه: وماذا عن أطفال شقيقي عزت؟ من سيعتني بهم ويرعاهم؟ هلت في رأسه خاطرة سرعان ما تحولت بداخله إلى معتقد.. لماذا من البداية نعتقد بأن عزت قد مات؟ لم نخبرنا أحد أنه شاهده يغرق، ولم نجد جثته حتى الآن.. إذاً عزت لم يموت؛ بل هو مفقود.. نعم إنه مفقود وسوف يعود يوماً من الأيام.. هذا ما قد تقرر بعقل يوسف واستقر عليه خاطره.. وأخذ يتحدث إلى جميع معزیه بعنف وهو يخبرهم بأن عزت لم يموت بل إنه مفقود وسوف يعود قريباً.. أخذ يتعامل مع الجميع بهذا الأمر، وقد ثارت ثائرتة في أحد الأيام عندما حدثته زوجته أخيه أنها تريد أن تستخرج شهادة وفاة لعزت كي تستطيع أن تتحصل على معاشه وعلى مكافأة نهاية الخدمة الضخمة التي تمنحها له الشركة، فرفض بشدة ونبعتها بالخيانة وأنها تريد أن تجعل زوجها ميتاً وهو مازال حياً.. دافعت عن نفسها غاضبة وهي تحاول أن تشرح له أنها تفعل ذلك لاحتياجها للأموال كي تنفق على أطفالها الثلاثة وعلى مدارسهم الأجنبية الباهظة، وأنه بعد اختفاء عزت لم يعد لهم عائل.. هنا أخذت العنترية يوسف وأخبرها أنه سيتكفل بمصاريف أبناء أخيه واحتياجاتهم جميعاً، وأنهم أصبحوا أولاده منذ هذا اليوم، وأنها يجب أن تنسى هذا الأمر نهائياً.. مازال عزت حياً وسوف يعود مرة أخرى ليجد أن أخاه الأصغر اهتم به وبأولاده مثلما فعل معه وهو صغير.. امتثلت زوجة عزت على مضض وهي تعلم أن يوسف مستحيل أن

يتعامل بالمنطق أبدًا وأن يسلم بوفاة أخيه.. ومرت عدة شهور أيقن خلالها يوسف بأن الحديث غير الفعل.. لقد استيقظ على حقيقة أنه كان يعيش على مساعدات أخيه الجزيلة وأن راتبه بالفعل لا يكفي نصف احتياجات عائلته هو فقط فما بالك بأسرة عزت ومصاريفهم ومدارسهم الباهظة؟!.. اضطر أن يلجأ لعمل آخر مع عمله لكي يحاول أن يلتزم بوعده.. وقد حاول بالفعل وعمل بكد، لم يكن يتخيل في يوم من الأيام أن الحياة بمثل هذه الصعوبة.. وظهر التعب على يوسف ونحل جسده الضخم وأصبحت تصاحبه الأمراض وتبعته العصبية في كل مكان يحل به، وأصبح يفتعل المشاكل والأزمات في عمله، واضطر أن يترك أعماله أكثر من مرة.. وأخذت زوجته وأولاده يتدمرون له باحتياجاتهم وأنهم أصبحوا بعد العز في ذل كبير بسبب إنفاقه على أولاد أخيه وتفضيلهم عليهم.. أصبح يوسف في كد وغم ليل نهار وأزمات في أعماله وآلام في جسده وقلّة راحة.. وكان يرفض طلب زوجة أخيه كل مرة في ثورة عارمة وهي تطلب منه أن يعترف بوفاة أخيه لكي تقوم الشركة بصرف المكافأة والمعاش لهم ويتخلص من همومهم، وفي كل مرة يصطنع يوسف مشاجرة كبيرة معهم ويرفض ذلك الأمر.. مر عام كامل ولم يعد خلاله عزت أو يسمع عنه أي خبر.. ويوسف كان يموت ويعذب في حياته ما بين قلقه على أخيه الغائب وما بين الأعمال التي يقوم بها لكي يستطيع أن ينفق على الأسرتين، ولكنه دائمًا كان يفشل في ذلك، وزادت ديونه وأصبح مطارداً من دائنين لحوحين، وتركت زوجته منزلها وأولادها لكي يقوم بالإنفاق عليهم بعد أن صرخت به بأنه مجنون لكي يرفض وفاة أخيه ويمنع

الأموال الضخمة التي سيرثها أولاد عزت وزوجته عندما يعلن رسمياً عن وفاته، وأنه بذلك يمنع الرزق عن أولاده وزوجته، وفي نفس الوقت يمنعه عن أولاد أخيه الذين يدعي حبه لهم.. لمدة أسبوعين علقت هذه الكلمات في عقله.. هل بالفعل هو يعذب أسرته وأسرة أخيه أم أن ما يفعله هو الوفاء في أقصى معانيه؟ ظروفه المعيشية الصعبة التي عاناها خلال هذا العام والمشاكل التي ألمت به والأمراض التي صاحبته بعد أن كان رجلاً رياضياً ممشوق القوام.. كل ذلك لأنه لم يعترف بوفاة أخيه.. كل هذه المصاعب لأن لديه أملاً أن يكون أخوه بالفعل حياً يرزق في مكان ما.. لم يعلم يوسف ماذا يفعل.. حياته انقلبت رأساً على عقب.. قرر ألا يفكر لنفسه مرة أخرى.. ذهب إلى مازن عمدة المدينة يبكي حزيناً وهو يحكي له كل ما ألم به والمشاكل التي حدثت له باختفاء عزت من حياته.. أجابه مازن بكلمات كان في أشد الاشتياق لسماعها: «أنت أخ لا يعوض يا يوسف.. لقد كنت مخلصاً لأخيك وأحببته حباً شديداً.. ولم تتوان في إظهار حبك هذا له أو لأهله في غيابه.. ولكن يجب أن تستسلم للحقيقة.. عزت قد مات.. عزت رحل عن عالمنا هذا ويجب أن تسلم بقضاء الله وقدره.. اترك الماضي بكل أفراحه وأحزانه وعش في الحاضر وابن للمستقبل.. ما ذنب أولادك ليتحملوا تلك الحياة الصعبة معك؟ ما ذنب أولاد عزت أن يعيشوا في ضيق اليد وسؤال الناس وأبوهم ترك لهم ما قد يغنيهم عن ذلك ويجعلهم يعيشون في الخير الرغيد؟ لماذا نتشبت بالماضي ونقتل المستقبل بأيدينا؟».. نظر له يوسف خانعاً وقال بعيون دامعة: «إذاً لو فعلت هذا وأقررت بموت عزت.. أأست هكذا أخون

أخي الأكبر.. ألسنت هكذا أقضي على أي أمل في عودته لحياته مرة أخرى؟».. أجابه مازن مطمئناً: «يا يوسف لقد مر عام كامل على موت عزت غريقاً.. يجب أن تسلم بهذا.. عزت قد مات.. الموتى لا يعودون للحياة يا يوسف».. هنا - ولو لأول مرة منذ عام كامل - اقتنع يوسف بأن عزت قد مات، وتخلي عن الأمل في عودته.. وقرر أن يستخرج شهادة وفاة له، وأن يقر للجميع بأنه قد مات.. أخذت الإجراءات الورقية بضعة أسابيع وأعلن رسمياً عن وفاة عزت فهمي وقامت زوجته بتقديم شهادة الوفاة إلى مقر عمله فحصلت على مكافأة كبيرة للغاية وعلى معاش شهري مجزئ.. ثم حدثت مفاجأة أخرى ليوسف.. حيث لفت وفاء يوسف لأخيه عزت نظر أصحاب شركة البترول له فطلبوا أن يعمل يوسف مكان أخيه عزت وبمرتب شهري أكبر.. شعر يوسف بالفرح والدهشة من ذلك الأمر ووافق في الحال، وعادت صحته وسعادته العائلية مع زوجته وأولادها وعاد يعيش حياة رغدة مرة أخرى بعد أن كان يعيش حياة كلها بؤس وحزن منذ وفاة عزت.. ومرت السنون ونجحت الحياة ومتطلباتها بأن تجعل يوسف يتناسى عزت وشعور الحزن الذي كان يمر به تجاهه.. ومرت خمس سنوات بالفعل ثم حدثت الأشياء الغامضة تلك في جهينة، وأخذ يلتف الضباب حول المدينة، ولم يستطع أحد الدخول أو الخروج منها.. ليفاجأ يوسف في يوم من الأيام بحضور متولي مساعد عمدة المدينة مازن إليه فرحاً وهو يزف إليه خبر عودة عزت مرة أخرى إلى المدينة وأنه رآه بعينه حياً وأنه في منزل العقيد سراج توفيق.. ماجت مشاعر يوسف عند سماعه لهذا الخبر.. اختلطت أحاسيسه بشدة..

الصدمة.. الفرح.. الخيانة.. الإنكار.. الدهول.. أمسك بمتولي بين ذراعيه وهو يهزه بعنف: «ماذ تقول؟ هل عاد عزت؟ هل مازال حيًا؟!».. وقف متولي بن يديه متألمًا: «نعم.. نعم لقد رأيته بعيني ولمسته بيدي.. إنه عزت بالتأكيد على الرغم من إنكار العمدة مازن لذلك ولكني متأكد أنه هو.. ملابسه متسخة وطالت لحيته كثيرًا ولكنه هو.. هو عزت بالتأكيد.. تعال معي حتى تراه بنفسك».. لم يشعر يوسف بنفسه إلا وهو يحتضن متولي فرحًا ويصرخ: «لقد كنت على حق.. لقد كنت على حق..» انتهى متولي من عناقه وهو مبتسم له: «نعم بالفعل أنت كنت تخبر الجميع بأنه مازال حيًا ولم يصدقك أحد.. حتى أنا.. لقد بشرتك برجوع أخيك حيًا.. إنني انتظر منك أن تجزل لي العطاء».. أخذ يوسف يبتسم فرحًا: «بالتأكيد.. بالتأكيد.. أشكرك للغاية سيد متولي».. «حسنًا.. سوف أستأذن أنا وأذهب إلى متجر عزام لكي أبتاع احتياجات المنزل.. أراك فيما بعد وتكون بصحبة عزت.. إلى اللقاء».. ودعه يوسف بفرح.. ثم قفز فرحًا وهو يصرخ على زوجته وأبنائه.. فحضر و سريعًا وعلى وجوههم الوجوم.. فأخذ يوسف يتحدث إليهم فرحًا: «لقد عاد عزت إلى جهينة.. لقد كنت على حق.. لقد كنت على حق».. أخذ ينظر إليهم فرحًا ولكن لم يجد أي رد فعل من زوجته وأولاده سوى الوجوم.. فحدثهم غاضبًا: «لماذا لا يبدو على وجوهكم الفرحة؟! أخبركم أن عمكم عزت قد عاد.. أخي قد عاد».. فحدثته ابنته: «نعم نعلم ذلك منذ أمس.. لقد انتشر الخبر في المدينة كالنار في الهشيم.. حتى أولاد عمي عزت وزوجته قد علموا بالأمر».. بدا على وجه يوسف الاندهاش: «ماذا؟! لقد علم

الجميع بالأمر.. حتى زوجته وأولاده؟ لماذا لم يخبرني أحد منهم؟ لماذا لم تخبروني أنتم أنه قد عاد؟».. ردت زوجته: «لأن زوجته أنكرت أنه قد عاد.. لقد أخبرت الجميع أنه ليس عزت.. وأن عزت قد مات منذ خمس سنوات والموتى لا يعودون».. صرخ يوسف غاضبًا: «اللعة على تلك الخائنة.. بالتأكيد تنكر عودة زوجها لأنها تزوجت منذ عامين.. إنها خائنة بالتأكيد.. ولكن أولاده لماذا لم يخبروني بعودته؟!»..

«الأولاد اتخذوا صف أمهم أيضًا ويخبرون الجميع أنه ليس والدهم».. يوسف مصدومًا: «ماذا؟! حتى أولاده! هل أصابهم الجنون».. أجابته زوجته سريعًا: «لا.. لم يصبهم الجنون.. بل إنهم اتخذوا عين العقل.. لا يوجد أحد يعود من الموت بعد خمس سنوات كاملة.. بالتأكيد هذا شخص نصاب ينوي أن يبتزهم».. أخذ يصرخ بها مدافعًا: «نصاب.. سوف أعلم بالتأكيد إذا كان نصابًا أو شخصًا يتحل صفته.. فبالتأكيد أنا أعلم أخي جيدًا».. أجابته سريعًا: «حتى إذا كان هو يا يوسف.. رجوعه الآن سوف يفتح الجحيم على الجميع.. على زوجته التي تزوجت وأنجبت من زوجها الجديد، وعلى أولاده الذين قسموا أموال المكافأة على أنفسهم.. سوف تتهمهم الشركة بالنصب والتزوير وسيسجنون.. وأنت أيضًا سوف تتهم بالنصب والتزوير، وسوف تسجن ويتم فصلك من عملك.. سوف يضيع مستقبلهم ومستقبلنا برجوع هذا الشخص.. أأمن شيء هو أن ننكر جميعًا أنه عزت».. حديث زوجته أربكه فجأة ولم يعلم ماذا يقول،

ولكنه شعر بضيق في صدره: «ماذا تعنين بكلامك هذا يا امرأة؟
أتريديني أن أتخلي عن أخي.. أنكر وجوده»..

«يا زوجي الحبيب.. أخوك عزت مات منذ زمن بعيد.. وأنت
أخرجت شهادة وفاته بيدك تلك.. أنت تعلم جيداً بأن متولي هذا
شخص ماكر وأعماله دائماً ملتوية.. لماذا هو الوحيد الذي وجد هذا
الشخص الذي يدعي أنه عزت.. ولماذا هو الوحيد الذي استطاع
الدخول إلى المدينة وسط هذا الضباب الذي يمنع الجميع من الدخول
أو المغادرة؟!.. ولماذا لم يأت عزت بنفسه إلى منزله أو منزلك بحثاً
عنك إذا كان هو بالفعل؟! كل هذه الأمور تثبت أن الأمر ما هو
إلا خدعة لكي يبتز متولي منك الأموال كما أخبرك بأنه ينتظر منك
العطاء.. لا تدمر حياتنا وحياة أولاد أخيك بسبب ظنون وضعها متولي
بعقلك.. ألسنت تثق في العمدة مازن؟ والعمدة مازن يخبر الجميع بأن
هذا الشخص ليس عزت وأن متولي هذا يكذب.. ألا يدعوك كل ذلك
ألا تثق في حديثه؟!.. حديث زوجته أسكته للحظات وهو ينظر إلى
أطفاله وهم يؤمنون على حديث والدتهم.. شعر بالضيق يملأ صدره
ولم يستطع عقله التفكير فصرخ بهم: «أتركوني بمفردي أريد أن اختلي
بنفسي».. تركوه بمفرده وأخذ يجول بغرفة المعيشة ذهاباً وإياباً.. يفكر
في حديث زوجته ورد فعل زوجته أخيه وأولاده.. هل يكون بالفعل
هذا الأمر خدعة والجميع على حق.. أم أنه عزت بالفعل وقد عاد
بعد اختفائه خمس سنوات.. وإذا كان عزت حقاً.. ماذا سيحدث له؟
هل سيسامحه على أنه تخلى عنه واستسلم لكونه مات ولم يبحث عنه؟

هل سيخبره بأنه خائن ولم يراعِ تضحياته في سبيل تربيته؟ هل ستقوم الشركة التي يعمل بها - والتي تعطيه مرتبًا وميزات لم يحلم بها من قبل - بفصله وسجنه بتهمة التزوير بشأن وفاة أخيه؟ لماذا لم يعد عزت قبل ذلك وأين كان؟ لماذا يعود بعد كل تلك السنوات؟ لماذا يعود بعد أن سلمت أنه مات ومضيت في حياتي قدمًا؟ لماذا الآن؟ لماذا؟ لماذا لا أشعر بالسعادة عندما علمت بعودة عزت من الموت؟ لماذا لا أكون سعيدًا؟ لماذا أفكر في كل ذلك وأنا حزين؟ هل سوف أحزن بعودة أحب شخص إلى قلبي من الموت؟ لماذا؟ لماذا عدت يا عزت؟ لماذا يا أخي؟!

* * *

توقف أحد الجنود أمام باب منزل العقيد سراج وأخذ يطرق الأرض وهو يعطي له التحية العسكرية وسراج يجلس على الطاولة يدون بعض الأشياء ويجلس على بعد منه المتشرد المدعو عزت فهمي.. يتحدث سراج سريعًا إلى الجندي مستفسرًا: «هل أتى يوسف هذا الكي يتعرف على أخيه؟ أين هو؟»..

الجندي متلعثمًا: «لقد ذهبت إليه كثيرًا يا باشا وطلبت منه الحضور، وكان يخبرني بأنه سيأتي ولكن دائمًا كان يتملص مني وفي تلك المرة أصررت أن أحضره معي ولكنه صرخ في غضبًا.. بالنهاية بأنه لن يأتي معي.. لأن أخاه مات منذ خمس سنوات.. وإن هذا الشخص ليس أخاه بالتأكيد وأنه مدعٍ ونصاب».

حدثه مندهشًا: «هكذا دون أن يراه! ألم يكلف خاطره ليلقي عليه نظرة واحدة؟ يبدو أن يوسف هذا كان يبغض أخاه للغاية».. تأفف بضيق وأخذ يتابع حديثه للجندي: «حسنًا فلتأخذه بعيدًا عن هنا.. ولتأخذ بصماته وأخبر مازن عمدة المدينة أو كريم مساعده بأن يسكنوه في أحد الأماكن بعيدًا عن الشوارع حتى نرى ماذا سوف نفعل معه فيما بعد».. نفذ الجندي أوامره وتحرك مسرعًا جهة المتشرد وسحبه من يده وهو متأفف من رائحته الكريهة.. وصلت الرائحة إلى سراج الذي اشمأز منها بشدة فتابع حديثه للجندي: «ولتجعله يستحم ليتخلص من تلك الرائحة سريعًا».. أمسك الجندي بأنفه وهو يسحب المتشرد في يده ويخرج.. اتجه سراج إلى جهة الباب وأغلقه وهو ساخط غاضب: «اللعنة على تلك المدينة وساكنيها.. اللعنة عليك يا مأمون أيها الوغد العجوز.. اللعنة على ابنتك وزوجتك وجميع عائلتك أيها الوغد اللعين.. كان يومًا أسود يوم أن سمعت كلامك ووطئت جهينة بقدمي.. لا أعلم ماذا يحدث بها من مصائب سوداء تتوالى فوق رأسي ولا أعلم كيف أخرج منها.. أقولها بعلو صوتي: اللعنة عليك يا جهينة».. لم يكذب يكمل كلماته حتى وجد إضاءة الشقة بأكملها قد انطفأت.. شعر سراج بالارتباك للحظات وأخذ يبحث عن هاتفه في الظلام ليضيء به وهو يكمل سبابه: «حتى الإضاءة في تلك البلدة اللعينة غير منتظمة.. أين هذا الهاتف اللعين ذاك أيضًا؟».. وأخذ يتحرك وهو يتحسس بيده الطريق.. وهنا سمع فجأة تحرك بعض المقاعد وهي تسحب بعيدًا في الظلام.. انقبض قلب سراج في الحال وتوقف وأخذ يتتبع مصدر الصوت بأذنه فاختمى سريعًا.. أخذ سراج

يتحرك مرة أخرى وهو يبحث عن هاتفه وهو يطمئن نفسه بأنه يهياً له سماع صوت أشياء فقط.. اقترب من المنضدة سريعاً وأخذ يتحسس سطحها ليجد هاتفه فأمسكه في الحال وأخذ يفتحه ليشعل إضاءته وهنا عاد نور الشقة مرة أخرى سريعاً.. ليُفاجأ سراج أمامه بشيء غريب للغاية.. المنضدة أمامه وفوقها مقعدان من المقاعد الخشبية التي كانت حولها.. شعر سراج بالخوف الشديد من هذا الأمر وهو يحدث نفسه بقلق: «أيعقل أنه هذا الشيء الذي يتحدث عنه جميع أهل جهينة تلك الأيام؟!».. لم يكذب يكمل تساؤله في نفسه حتى انطفأت أنوار الشقة مرة أخرى.. فركض سراج خائفاً في الحال فتعثر وسقط على الأرض ولكنه وقف سريعاً ولم يبالٍ وأخذ يفتح باب الشقة مهرولاً إلى خارج المنزل..



الساعة الثالثة تقريباً وقف العالم عصام ناجي بالقرب من الضباب الذي يلتف حول مخارج المدينة وخلفه جنديان وكريم مساعد عمدة المدينة يقف بالقرب منهم يراقب ما يفعلانه في اهتمام.. أخذ عصام ينظر إلى الضباب الرمادي أمامه بتحدٍ كبير.. نظر إلى كريم والجنديين خلفه.. وهو يربط حبلًا على وسطه ويحدثهم بسرعة: «سوف أدلف إلى الضباب الآن.. سأحاول أن أتفقد كل شبر أمامي لعلنا نستطيع أن نصل إلى المكان الذي أتى منه هذا المتشرد الذي يدعى عزت».. أخذ كريم يحدثه: «لم نجرب جميعاً عدة مرات في السابق وفشلنا بالوصول إلى أي نتيجة، كل مرة نعود إلى نفس المكان بمنتصف البلدة أو إلى أي

مكان آخر بداخلها».. أجابه عصام وهو يشعل مصباحه أمامه: «هذه المرة سوف أدلف بمفردي لأن هناك طريقة جديدة في البحث برأسي سأحاول أن أنفذها ولا أريد أن يعوقني أحد.. مهمتكم أن تحافظوا على هذا الحبل جيداً تحسباً لأي طارئ».. أطرق الجميع برء وسهم له.. فأخذ عصام نفساً عميقاً ورمى بنفسه سريعاً داخل الضباب.. هنا وجد نفسه في اللامكان.. لا يوجد صوت أو حركة أو مشهد لأي شيء.. فقط الضباب الرمادي يحيطه.. جميع ما حوله غارق في الضباب.. لا يستطيع أن يري يديه من كثافة الضباب.. شعر لوهلة أنه ليس في الأرض وأنه يغوص في السحاب على جانب النجوم.. ليس معه أنيس إلا أفكاره الموحشة ومصباحه ذو الإضاءة الضعيفة التي تصطدم في الحال بركام الضباب فلا تسمن ولا تغني من جوع.. أخذ عصام يلتفت حوله بفضول يبحث عن أي شيء أو حتى يتلمس أي شيء بجواره فلم يستطع.. وهنا شعر بالعجب لأنه عندما كان يذهب إلى داخل الضباب ومعه عدة أشخاص كان الضباب موجوداً ولكن ليس بمثل هذه الكثافة.. إنه بالفعل الآن لا يعلم إذا كان في النهار أو الليل.. شعر بالخوف والقلق يدب في قلبه ولكنه أخذ يسحب الحبل خلفه فيطمئنه بأنه مازال متصلاً مع عالم البشر.. أخذ هنا يشير بيديه بسرعة وهو يحاول أن يبدد الضباب حوله ولكن سرعان ما كانت تفشل محاولاته فيتجمع الضباب من جديد حوله.. أخذ يخرج من جيبه صافرة ووضعها في فمه وأخذ يصفر بها بقوة وعزم شديد لعل أحداً من خارج المدينة تصل إليه تلك الأصوات.. وأخذ يصفر ويصفر.. ويصرخ بأعلى صوته وهو يصدر أصواتاً مختلفة وهو يتوجه بجسده

إلى الشمال والجنوب والشرق والغرب حتى يوزع تلك الأصوات على جميع الاتجاهات.. وبعد مرور ثلاث دقائق شعر بأن طاقته نفذت وضعفت.. فأخذ يستريح قليلاً ليعاود ما يفعله من جديد وهو يتقدم بداخل الضباب.. ولكنه تذكر شيئاً فأخذ يضع يده في جيبه فأخرج كرة تنس صغيرة وكتب عليها بقلم أسود تخين: «المخرج الجنوبي» ثم قام بإلقائها في وسط الضباب بقوة.. وانتظر للحظات وهو يحاول أن يركز سمعه ليستمع إلى ارتطامها بالأرض ولكن لم يسمع أي شيء.. حاول أن يتحرك ببطء وهو يركز سمعه على صوت سقوط كرة التنس ولكن لم يسمع شيئاً.. هنا شعر باليأس من محاولة الكرة تلك وفكر أن يعيد الكرة أخرى مع الصافرة فالتقمها بفمه وأخذ يصفر بقوة شديدة وهو يتحرك.. وهنا شعر بشيء يرتطم بالأرض.. فتوقف عن الصفير في الحال وأخذ يستمع بقوة إلى هذا الشيء.. وهنا لمح أنه يقترب منه على الأرض ويرتطم بضعف بحذائه.. فسلط ضوء مصباحه عليه في الحال واقترب من الأرض يلتقطه ويتفحصه بيده وهنا فوجئ بأنها كرة التنس التي قذفها منذ قليل وتأكد من ذلك عندما وجد خط يده عليها بكلمة «المخرج الجنوبي».. فاندھش من هذا الأمر وشعر بأن هناك بالتأكيد شخصاً التقطها وألقى بها إليه.. فشعر بالفرح الشديد وأخذ يصرخ بعلو صوته: «أنا هنا.. أين أنتم؟ أنا الدكتور عصام ناجي.. هل تسمعون صوتي؟ أين أنتم؟ نحن محتجزون بداخل مدينة جهينة ولا نستطيع الخروج منها.. هل تسمعونني؟»..

ولكن لم يجد عصام أي إجابة من أي شخص.. فتعجب للغاية..
وقام بإلقاء الكرة مرة أخرى بأقصى قوة لديه.. وبعد لحظات وجدها
تصطدم بقدمه مرة أخرى.. فشرع بالارتباب « أنت يا من تقذف
الكرة.. لماذا لا تجيبني؟ هل تسمعي ولكنك لا تستطيع أن تجيبني؟
إذا كان الأمر هكذا فحاول أن تكتب على الكرة برسالتك أو أي شيء
أستطيع أن أهتدي إليك من خلاله.. سوف أقذف الكرة إليك مرة
أخرى.. واكتب عليها مكانك».. ثم ألقى بالكرة سريعاً مرة أخرى..
ولكن هذه المرة لم تعد.. انتظر عصام عدة دقائق ولكن لم يجد شيئاً..
فشرع بشيء يصطدم بحذائه من الخلف فالتفت سريعاً والتقطه
فوجدها الكرة التي قذفها ولكن لم يجد عليها أي شيء غير كتابته..
وشرع بالاندهاش بأنها أتت هذه المرة من جهة مختلفة عن التي قذفها
بها.. وشرع بالاضطراب يجتاحه من هذا الشخص الذي يلقيها ولماذا
لا يجيبه.. وهنا أتته الإجابة سريعاً.. عندما سمع صوت زجاجة قوياً من
خلفه.. لشيء أشبه بالكلب ولكن بصوت أقوى بكثير.. جعل قلبه
يسقط بقدمه ووقف شعر رأسه وساعديه في الحال.. وشرع بخيال
شيء ضخم في الضباب يقترب منه ببطء وهو يزجر بقوة.. شيء كثيف
الشعر وله شكل الكلب ولكنه يقف على قدمين وله يداً.. لقد كان
ظاهراً من بعيد على الرغم من الضباب الكثيف حوله.. عندما شاهد
عصام هذا أخذ يصرخ ويركض ذعراً وخوفاً وهو لا يعلم يمينه من
يساره في وسط الضباب.. ولكنه يحاول أن يتعد عن صوت الزجاجة
خلفه، وكان يتخطف لفتات خلفه ليجد هذا الشيء بعيداً عنه ولكنه
واضح أمامه.. كل ما كان بعقله تلك اللحظة أنه هالك لا محالة،

وتحول شعوره هذا إلى يقين عندما وجد نفسه يسقط على الأرض فجأة فقفز بمكانه سريعاً وهو يحاول الركض مرة أخرى ولكنه لم يستطع.. لقد شعر بأن هناك شيئاً يسحبه بقوة.. أخذ يشعر بالخوف والهلع وهو يحاول أن يعلم ما الذي يحاول أن يمنعه من الهرب من هذا الشيء المخيف فوجد أن الحبل المربوط على وسطه شخص يشده بقوة ويجذبه إلى الخلف.. شعر عصام بالخوف الشديد وهو يحاول أن يسحب الحبل جهته ولكنه لم يستطع.. ووجد أن شيئاً يسحبه وبقوه إلى الخلف.. أخذ يصرخ في خوف وهو يسمع الزمجرة الشنيعة تلك تقترب منه وهو يسحب بداخل الضباب بقوة وسرعة شديدة.. وهنا أخذ عصام يحاول بكل قوته أن يتخلص من ذلك الحبل بأي طريقة.. وهو يسحب بقوة يحاول أن يمزقه بأسنانه فلا يستطيع.. يدب أقدامه في الأرض بقوة وهو يمسك الحبل خلفه يحاول الخلاص منه من حول وسطه الذي كاد يتمزق من قوة السحب العنيف التي يسحب بها ولم يستطع.. مهما حاول أبداً صوت الزمجرة يقترب أكثر وأكثر والسحب على أشده يحاول أن يقاوم باستماتة.. حاول أن يتمسك بأي شيء بطريقه فلم يجد إلا أن يحاول أن يتمسك بالأرض تحته بأظافره وأقدامه ولكن لم يستطع أن يمنع نفسه أن يسحب بقوة واندفاع شديد إلى داخل الضباب، وهنا انتهى كل شيء.. نعم لقد انتهى كل شيء.. توقف عصام عن المقاومة وهو يستسلم لمصيره ويتمنى أن ينتهي الأمر سريعاً دون أن يتعذب.. ولكنه فوجئ بأصوات حوله قلقة وصوت شخص ينادي عليه: «دكتور عصام.. دكتور عصام.. هل أنت بخير؟».. فتح عصام عينيه مندهشاً ليجد نفسه بين يدي

الجنديين وكريم وحوله بضعة أشخاص يمسون بالحبال المربوطة به فحدثهم مستفسراً: «ماذا حدث؟ ماذا حدث؟».. أجابه كريم: «لقد سمعناك تصرخ فجأة فشرنا بالقلق تجاههك فأخذنا نسحب الحبل جهتنا ولكننا وجدنا مقاومة شديدة للغاية فشرنا بالقلق أكثر عليك وتجمع بعض المتطوعين من أهل المدينة لكي يسحبوك وبعد جهد شاق استطعنا إخراجك من الضباب»..

أخذ عصام يتلفت حوله: «إذا لم استطع هذا الشيء أن يتمكن مني.. هل استطعت الهروب منه؟».. سأله أحد الأشخاص الواقفين حوله برعب شديد: «ما هذا الشيء؟.. ما الذي رأته؟.. هل رأيت الشبح؟»..

شعر عصام بالاضطراب فابتلع ريقه بقلق: «لا لم أر شيئاً هناك.. لقد شعرت فقط بالخوف لأنني لم أستطع أن أعود إلى هنا مرة أخرى من الضباب لم أر طريقي جيداً».. وأخذ يفك الحبل من وسطه فصرخ به الرجل وهو مرتاع: «أنت تكذب.. لقد رأيت الشبح.. إنه هو سيقتلنا جميعاً».. وعم الاضطراب والخوف جميع الحاضرين وأصبحت قصة عصام والضباب على ألسنة جميع أهل المدينة وجميعهم قد حذروا بعضهم من الدخول إلى الضباب مرة أخرى»..



(الشبح)

مر خمسة عشر يوماً على تواجد سراج ورفاقه في مدينة جهينة، وقبعت المدينة تحت حصار الضباب منذ عشرة أيام تقريباً أصبح التوتر والقلق في المدينة على أشده، وبدأت تقل حصص الطعام وتزداد المشاكل والعنف بين السكان ولكن بشكل عرضي وليس بكثرة؛ نظراً لإحكام قبضة مازن العمدة وكبار عائلات جهينة على المدينة، ووجود سراج ورجال الشرطة هناك منع احتدام المشاكل ووقوع صدام كبير بينهم حتى الآن.. ولكن خلال هذه الأيام حدث شيء جعل الجميع يتحدث عنه على الرغم من حدوث كل تلك الأمور الغامضة في المدينة، ولكن هذا الحدث الجديد جعلهم ينشغلون عنها جميعاً وهو ظهور شبح في مدينة جهينة كما يدعي أهلها، وحدث هذا الأمر على عدة مراحل.. حيث بدأت هذه الشائعات في الظهور عندما استيقظ أهل المدينة في أحد الأيام ليجدوا القمامة والمهملات على مداخل الكثير من البنايات في جهينة، ومع تكرار ذلك الأمر قام بعض الصبية بالتربص وعمل كمين لمن يقوم برمي تلك القمامة لإعطائه درساً قيماً، وفوجئ هنا بأنهم وجدوا القمامة ترفع من داخل السلالات وتطير في الهواء وتنقلب أمام المنازل دون تدخل من أحد.. انتاب الهلع الصبية وأخبروا جميع أهلهم ومعارفهم بما رأوه.. وصدق الكثير على تلك المشاهدات

وأنكر الكثير تلك الأقاويل ونسبوها لفعل الصبية الساخطين ممن اعتادوا على ممارسة تلك المقالب والمشاكل ولكن بعد ذلك حدث أمر آخر.. الهواتف بالمدينة وعلى الرغم من أنهم لا يستطيعون الاتصال بأي شخص داخل أو خارج المدينة ولكنها ترن الساعة الثانية عشرة منتصف الليل في الكثير من منازل أهل البلدة، وعند رفع أحدهم للهاتف لا يسمع أي صوت فقط شيئاً أقرب إلى الكهرباء الاستاتيكية وبعض الأصوات المخيفة غير المفهومة، ولكن بعض الناس أجمعوا على أنهم سمعوا صوت مجهول يصرخ: أنا هنا.. زاد هذا الأمر الخوف لدى أهل البلدة وبدأت تنتشر أخبار الشبح مع ازدياد حدوث تلك الأحداث المتكررة لأهل البلدة.. وعندما انتهى عصام من تجربته المرعبة مع الضباب في ذلك اليوم كان عائداً مترجلاً بصحبة كريم والجنديين وهو يشاهد باهتمام آثار الخوف والقلق التي دبت في المدينة وبعد أن كانت جنة الغرباء وقاطنيها أصبحت مقبرة تحتويهم ويتمنون الخلاص منها.. كان يرسم لنفسه دائماً شخصية المرابط المجد أمام الجميع وكان يخفي وراءها خوفه الشديد فالإنسان عدو ما يجهل.. وأصبحت جهينة مجهولة للجميع.. كان هو الوحيد الذي يحمل الواجهة العلمية والخبرة أمام أهل.. جهينة كانوا يصدقون أي شيء يخبرهم به عصام؛ فهو العالم الذي تعلم بالخارج وبالتأكيد هو يعلم جميع ما يلم بالمدينة.. حاول عصام أكثر من مرة أن يخلع عباءة العلم والشرح لما يحدث في المدينة فهو مثلهم بالضبط لم يعلم ماذا يحدث وأخبرهم بذلك أكثر من مرة فاتهموه بأنه ضلع في نظرية المؤامرة التي تحدث لأهل المدينة ولا يرضون عنه إلا عندما يضطر أن يخبرهم بتفسير.. لا يهم ما هو

التفسير.. أي تفسير حتى ولو كان هراء.. فإن البشر لديهم قدرة على تصديق الهراء.. أي هراء مهما كان.. ولكن لا تدعهم أبدًا بدون أن تفسر لهم ما يحدث.. واستطاع عصام بكل نجاح أن يخبرهم بكل الهراء الموجود بهذا العالم وبالفعل كانوا يستمعون إليه ويصدقونه مهما كان قوله أو تفسيره حتى لو كان أخبرهم بأن السماء ترعد بسبب غضب زيوس كانوا سيصدقونه في الحال.. ولذلك لم ينفك أهل جهينة عن اصطحابه هو وأتباعه عند عودتهم لكي يرشدوه إلى آخر أفعال الشبح الجديدة.. حيث وجد نفسه في أحد الشوارع العمومية بصحبة بعض أهالي جهينة ينظرون إلى ثلاث أشجار جميلة المنظر خضراء تظهر ثمارها فوقها بكل وضوح ولكن هذه المرة لم تكن الثمار جوافة أو كمثرى أو تفاحًا بل أحذية.. نعم كما أخبرك الآن أحذية أعلى أغصان الشجر وموزعة بأحجام وأشكال مختلفة على أنحاء الشجر ولكنها أحذية رياضية بها أربطة معقودة للفردتين والحذاء معلق على الشجرة. منظر مثير وغريب ولن تراه إلا حصريًا في جهينة.. وقفنا عصام مشدوهاً مصدومًا من المشهد الذي أمامه للحظات ثم أخذ يضحك فجأة والجميع يراقبه وهم يتسمون لمشاهدته وهو يضحك.. ثم تحدث إليه أحد الحاضرين مستنكرًا: «أتضحك.. أتضحك على هذا المشهد المريب؟ لا أعتقد أن المشهد القادم سيجعلك تضحك هكذا».. ثم أشار إليه بيده أن يتبعه فتحرك عصام في الحال وعلى وجهه ابتسامة كبيرة وخلفه الجنديان وكريم وبعض الفضوليين يتبعونهم.. لم يذهبوا بعيدًا، مروا على خمسة شوارع تقريبًا ثم رأوا أمامهم شيئًا يسد مدخل الشارع من الأمام.. مائدة طعام كاملة بوسط الشارع وحولها 10

مقاعد خشبية وبعض أطباق الطعام مرصوفة والملاعق والسكاكين بجوارها.. اقترب عصام من مائدة الطعام الموضوعه في العراء وسط الشارع وهو يتلمسها بيده يرى كل شيء وهو معد لتناول الطعام ولكن الأطباق والمقاعد فارغة والشمس قد بثت أشعتها في الخشب والملاعق والأطباق فأعطتها حرارة وانعكاسًا للأشعة الصفراء عليها وهذا يعني أن تلك المائدة موضوعة منذ فترة طويلة منذ صباح هذا اليوم فتحدث عصام لمرافقيه: «هل شاهد أحدكم من الذي قام بفعل ذلك؟ هذا بالتأكيد أمر شاق لمن فعله ويجب أن يكون أحد شاهده».. فصرخ أحدهم: «إنه الشبح.. كيف سنستطيع أن نرى الشبح ونتدبر أفعاله؟».. فحدثه عصام مستنكرًا: «شبح! وهل سيتجول الشبح جهارًا نهارًا في المدينة ويضع مائدة الطعام في وسط الطريق؟! ماذا سيستفيد من ذلك؟ لا أعتقد أن هناك أشباحًا حمقاء تفعل ذلك».. هنا قطع حديث عصام هبوب هواء مليء بالرمال والأتربة بطريقة قوية غطتهم جميعًا.. أخذ الجميع يبتعد عن تلك الرمال المتساقطة عليهم وهم يصيحون غاضبين على من يلقيها.. نظر الجميع إلى أعلى حيث كانت تلك الرمال تسقط عليهم من أعلى.. صاح بعض الرجال: «هيا بنا نصعد إلى أعلى ذلك المنزل لنرى من يلقي علينا تلك الرمال».. صعد عصام وكريم والفضوليون إلى أعلى المبنى سريعًا وهنا فوجئوا بوجود كومة كبيرة من الرمال وموضوع بجوارها بعض المراوح الكهربائية التي الموجهة إلى كوم الرمال بجوارها فتسقطه على المارة بالشارع.. فقام عصام سريعًا بفصل الكهرباء عن المراوح وأمسك واحدة منها بتحدٍ: «شبح.. أليس كذلك؟! شبح سيستخدم المراوح الكهربائية!»..

أخذ الجميع ينظرون إليه وهم متشككون ومشهد المراوح بدأ يقنعهم
بحديث عصام.. فجأة أشار أحدهم من أعلى سطح المنزل: «انظروا..
انظروا هناك».. اتجه الجميع إلى الجهة التي أخبرهم بها الرجل ليشاهدوا
معه جميعاً من أعلى تجمعاً للسيارات في أحد ميادين المدينة القريبة..
عدة سيارات موضوعة بشكل الصليب المعقوف الذي اتخذته النازية
شعاراً لها.. نظر الجميع إلى تلك السيارات مندهشين.. وأخذ كريم
يعد السيارات التي شكلت هذا الصليب المعقوف لتتعدى 30 سيارة..
كان المشهد مشوقاً على الرغم من غرابته.. وأخذ بعضهم يقوم بتصوير
تلك السيارات على هواتفهم المحمولة.. وقف عصام مذهولاً وهو
يحاول أن يفكر ماذا يحدث ولكن وجد لسان حاله يقول في الحال:
«ماذا سيحدث بك بعد ذلك يا جهينة؟!».



في التاسعة من مساء ذلك اليوم.. كانت هاجر زوجة
سرور بكري تحضر بعض المشروبات بمطبخها أثناء مشاهدة سرور
وطفلته أحد الأفلام على الحاسب الآلي باهتمام.. دقائق وأحضرت
المشروبات الساخنة ووضعتهما أمامهما ولكن فوجئت بأن زوجها
يشاهد الفيلم الكارتوني باهتمام بينما ابنتهم آية نائمة بعمق شديد..
أخذت تضحك على هذا الوضع وهي تحمل ابنتها إلى غرفتها: «لقد
نامت آية وتركتك وأنت تشاهد الكارتون».. ابتسم سرور في الحال:
«ههههههه لا تؤاخذيني لقد اندمجت مع الفيلم سريعاً.. لقد أعادني

إلى أيام طفولتي المشردة.. الأسد الملك هذا سأشاهده للأبد دون ملل
أو كلل»..

عادت هاجر سريعاً وجلست بجواره وأخذت تشاهد الفيلم معه
وهو يضمها إلى صدره.. وشرب من المشروب الذي لم يشعر بالارتياح
لطعمه.. فسألها بفضول: «ما هذا؟ ألم تضعي سكرًا أم ماذا؟»..

أجابته سريعاً وهي تعتدل بجلستها: «لا، لقد وضعت ولكن ملعقة
واحدة.. لأنه لم يتبقَّ إلا القليل من المشتريات التي جاء لنا بها عزام..
ولم يحضر لنا شيئاً بعد ذلك».

«نعم لقد ذكرتيني بالفعل.. إنه تخلف عن ميعاد حضوره منذ ثلاثة
أيام.. لم يحضر إلينا مشترياتنا واحتياجاتنا كالمعتاد..»..

سألته بقلق: «أتعتقد أنه قد تخلى عنا ولن يحضر لنا حاجاتنا مرة
أخرى؟».. أجابها بسرعة: «لا.. لا تقلقي إنه شخص جيد ولم يجبره
أحد أن يفعل ما فعل ويساعدنا من قبل.. يبدو أن هناك شيئاً قد حدث
معه منعه عن الحضور».. أخذ يداعب ذقنه وهم يفكر بتركيز: «أظن
يجب علي أن أذهب إلى متجره وأرى بنفسي ماذا يحدث معه».. ضربت
هاجر صدرها وهي خائفة بشدة: «هل ستذهب إليهم بقدميك مرة
أخرى؟! إن أهل المدينة ليس لديهم أي شفقة أو رحمة.. وأخاف أن
يفعلوا بك أي مكروه يا سرور»..

نظر لها متحفزاً: «لا تقلقي.. هذه المرة سوف أذهب إليهم مستعداً جيداً.. لا لن أكون مثل المرة السابقة.. سوف آخذ حقي من أهل المدينة سواء برضاهم أو رغماً عنهم»..

استغل سرور انهماك زوجته في أحد أعمال المطبخ وتسلل إلى غرفته خلسة وقام بفتح خزانة الملابس بهدوء وهو يقلب في ملابسه سريعاً.. انتبي من الأرفف العلوية سريعاً ثم انتقل إلى السفلية فوجد الملابس مرتبة وموضوعة بعناية فأزاحها سريعاً لتظهر علبه حمراء كبيرة أخرجها من الخزانة وفتحها بحرص شديد وهو يتأكد من وجود زوجته خارج الغرفة ثم فتحها سريعاً ليظهر أمامه سلاح ناري بشكله الأسود المعتاد فرفعه بعناية وتفقدته سريعاً ثم قام بسحب ذخيرته ولقمها ثم وضعه أسفل وسادة السرير ثم أغلق العلبة سريعاً وأعادها إلى مكانها في حرص وقام بارتداء ملابسه استعداداً للخروج ثم اتجه إلى الوسادة وأخرج سلاحه الناري بحرص شديد وأخذ يتفقد وضع الأمان جيداً ثم وضعه أمام عينيه وهو يتحدث بثقة: «لن تكون كالمرّة السابقة أبداً» ثم وضعها خلف ظهره بملابسه بعناية وهم بالخروج إلى خارج غرفته لتراه زوجته فتسأله مستنكرة: «إلى أين أنت ذاهب يا سرور؟» فأجابها بسرعة: «سوف أذهب لأتفقد متجر عزام لأعلم لماذا لم يحضر طلباتنا كما اتفقنا»..

..بقلق شديد: «ولكن يا سرور إذا شاهدك أهل المدينة فسوف يفتكون بك.. وأيضاً إذا علموا أن عزام يساعدنا فسوف يصبح منبوذاً مثلنا».. أجابها مطمئناً وهو يتلمس سلاحه خفية: «لا تقلقي، لن

يمسني أحد بسوء.. وأيضًا لن أعرض عزام للخطر.. سوف أتفقد
الوضع من بعيد من داخل سيارتي لأطمئن عليه فقط».. اقتربت منه
خائفة: «لكن يا سرور هل ستتركني أنا وابنتك بمفردنا؟ ألم تسمع
عن الشبح وما يدور في المدينة؟ أنا خائفة للغاية أن أمكث بمفردي»..
ضحك ساخرًا: «شبح.. شبح ماذا يا هاجر؟ إن الأمر مجرد خرافة
بالتأكيد».. أجابته مستنكرة: «خرافات.. مع كل ما يحدث في تلك
المدينة الملعونة من أحداث غريبة وأنت تخبرني أنها خرافات.. حتى
لو كانت خرافات أنا مازلت خائفة.. لا تتركني بالمنزل بمفردي
بالليل.. اذهب غدًا بالسيارة بالنهار»... «يا هاجر لا تخافي إن الليل
أفضل لي لكي أتسلل دون أن يراني أحد وفرصة جيدة أن آية نائمة
لأنها إن رأتني سوف تصر على أن تذهب معي.. لا تخافي، ادخلي إلى
غرفة آية وشاهدي أي أفلام على الحاسوب لتلهيك حتى أعود».. ثم
تركها وانصرف وهي ترمقه خائفة دامعة: «لا تتأخري يا سرور.. لا إله
إلا الله.. في حفظ الله».. فأجابها مبتسمًا وهو يغلق باب المنزل: «محمد
رسول الله.. في حفظ الله.. سأعود سريعًا.. لا تقلقي»..



توقف سرور بسيارته بالقرب من مدخل متجر عزام وهو يتلفت
حوله بقلق.. فلم يجد أحدًا يعيره أي اهتمام، ولكنه سمع جلبة شديدة
أمام مدخل المتجر.. حاول أن يقترب بسيارته أكثر ليستطلع الأمر
ولكنه لم يستطع رؤية شيء لأن هناك تجمعًا كبيرًا من الناس أمام متجر
عزام.. مع تزايد الجلبة تزايد فضول سرور أكثر وأكثر فلم يتمالك

نفسه وانسحب من سيارته بسرعة وهو يحاول أن يخفي نفسه وسط الناس دون أن يروه وهو يتحسس سلاحه الناري الذي يخفيه كل بضع ثوانٍ دون أن يشعر.. اندس بين الجموع واستطاع أن يدلف إلى داخل المتجر برشاقة شديدة دون أن يلحظة أحد.. وهنا شاهد عزام يقف وسط 5 أفراد من عماله بالماركت الخاص به وهو يصرخ في الجموع غاضبًا وبوجه محتقن: «لقد أخبرتكم أكثر من مرة أن الأمر أصبح الآن صعبًا للغاية.. نظرًا لعدم استطاعتي الحصول على أي مواد من خارج المدينة بسبب الضباب.. ما لدي الآن في المخازن ليس بالكثير، ولذلك سوف تقل حصص الفرد.. لكل شخص حاجة واحدة فقط في اليوم كي تكفي البضاعة الموجودة لأكثر وقت ممكن.. صرخت به إحدى السيدات: «ماذا تعني بهذا؟ لقد أتيت منذ الصباح وأنا في انتظار حصولي على دوري والين تقول إنه يسمح لي بأن أحصل على شيء واحد فقط!! كيف ذلك؟ إنني أدفع نقودًا.. أريد الحصول على ما أريد في مقابل نقودي».. أجابها أحد عمال عزام: «يا مدام البضاعة لا تكفي أن يأخذ كل شخص ما يريد.. نحن نفعل ذلك من أجلكم كي يستطيع أهل جهينة الحصول على مأكّل ومشرب يكفيهم حتى انتهاء ذلك الضباب».. صرخ به أحد الأشخاص: «لا يهمني الآخرون.. فليذهبوا إلى الجحيم.. أريد أن أكل أنا وأولادي مقابل نقودي التي أدفعها.. نحن لا نطلب إحسانًا من أحد».. أخذ عزام يحدثهم غاضبًا: «ماذا حدث لكم أيها القوم؟! منذ متى نفكر في أنفسنا؟ هل نسيتم أن أهل جهينة تعاهدوا على التكافل والمساعدة بينهم في الضراء قبل السراء.. ماذا حدث لكم؟ أخبرتكم بأن كل

ذلك لأجل أهل جهينة حتى يستطيع أن يتشارك الجميع».. قاطعه أحد الأشخاص مبتسماً: «إذا كنت ترغب في مساعدة أهل جهينة كما تدعي إذا فلتعطِ أهل المدينة ما يحتاجونه بدون مقابل حتى تنتهي تلك الأزمة».. نظر له عزام مصدوماً: «ماذا تقول؟ أنا أحب جهينة وأهلها بالفعل ولست أدعي».. أجابه الرجل سريعاً وهو يضع علبة لبن في حقيبة: «إذا إثباتاً لحبك ذلك سوف نأخذ ما نريده مجاناً».. هنا أمن الكثير على قول الرجل: «نعم.. نعم.. يجب أن نحصل على ما نريد بدون مقابل.. نحن في أزمة ولا بد أن نتكاتف جميعاً».. ابتسم الرجل من رد فعل الناس ثم هجم على الرف المقابل له وأخذ يضع المعروضات بسرعة في حقيبته وهو فرح.. ثم هجم الناس جميعاً على المعروضات بالمتجر وأخذ الجميع يتسابق ويتدافع لأخذ ما يريد وأخذوا ينهبون ويحطمون في سباق الفوضى.. أخذ عزام يصرخ بهم يأساً أن يتوقفوا ولكن لا مجيب.. أخذ يصرخ في عماله الذين حاولوا أن يوقفوا هذا السيل الجارف من الفوضويين فلم يستطيعوا.. أمسك عزام بأحد السارقين وقلبه يتمزق من رؤيته يسلب دون أن يستطيع فعل شيء فقام السارق بلكمه بوجهه بقوة شديدة وأبعده عن طريقه بعنف شديد.. تألم عزام بشدة وانفه وفمه يسيلان بالدماء وأخذ يتعلق بملابس السارق وهو يحاول منعه من إكمال سرقة.. فالقى السارق بما في يده غاضباً وهو يلكم عزام العجوز بكل قوة وعنف وعزام يحاول أن يحمي جسده الضعيف بيديه اللتين لم تسعفاه في حمايته من سيل اللكمات الجارف على وجهه.. واستسلم عزام لأمره وشعر بأنها نهايته.. أثناء ذلك كان سرور واقفاً يشاهد هذا الجنون وكيف تحول

أهل جهينة الأجلاء المحترمون إلى هؤلاء السارقين.. وأخذ يتعجب:
أهؤلاء من يسرقون الآن من كانوا يعايرونه منذ أيام قليلة وينعتونه
بالمنبوذ؟! في وسط الحطام والبضائع المسلوقة وصراخ السارقين
أخذت بعض السيدات يتصارعن على علبة مناديل ورقية كل واحدة
منهن تمسكها بيديها ويصرخن على بعضهن البعض بعنف.. وشخص
آخر يتعارك مع عامل المتجر ويلكمه بشدة ويحطم زجاجة عصير على
رأسه.. بعض الأطفال الصغار أخذوا يبكون وهم يشاهدون أهاليهم
يقتتلون فيما بينهم.. وبعض الأطفال الآخرين حذوا حذو والديهم
وانطلقوا يسرقون ويحطمون وهم يضحكون ويعتقدون أن هذا الأمر
هو من قبيل اللعب.. لم يعبا سرور بما يشاهد أمامه ولم يرمش له جفن
وهو يتحرك في أرجاء المتجر وسط الفوضى وبين من كانوا ينعتونه
بالمنبوذ.. هذا هو أنسب وقت له للحصول على ما يريد في وسط هذا
الجنون الذي يحدث.. ولكنه لم يفعل ذلك.. بل كان يركض بسرعة
وسط الصراخ والعراك ورائحة العرق ودرجة الحرارة المرتفعة في
قلب المكان.. كان يبحث عن عزام.. هذا العجوز الطيب.. أين ذهب
في وسط ما يحدث؟ ولم يتمالك نفسه عندما شاهد اللص يلكمه في
وجهه بعنف شديد والدماء تكاد تغطي وجهه.. لم يتمالك سرور نفسه
في الحال وهب إليه مسرعاً ودفع اللص غاضباً بقوة شديدة فأسقطه
على بعض الأرفف بالماركت.. فوقف اللص غاضباً وحمل زجاجة
عصير وحطمها وأمسكها وهي نصف مكسورة وهو يتوعد سرور
ويسبه وينوي أن يفتك به.. هنا بلا تردد أخرج المسدس من خلف
ظهره ورفع على الرجل.. على الفور ألقى اللص بالزجاجة من يده

وهو يطلب الرحمة من سرور ثم ركض خائفاً.. أمسك سرور بعزام في الحال بعد أن وضع سلاحه خلف ظهره ورفعته من كتفه وأخذ يتحرك به جهة أحد المقاعد القريبة وأخذ يمسح وجهه بملابسه من الدماء.. وعزام ينظر له خائفاً: «من أنت؟ من أنت؟».. فأجابه سرور وطمأنه: «لا تخف. أنا سرور بكري.. لم تحضر في ميعادك فقلقت عليك وأتيت الآن وشاهدت ما يحدث..»

أخذ عزام يتعلق بملابس سرور مترجياً: «سرور.. أرجوك.. أنقذ متجري.. سنوات عمري جميعها في هذا المتجر.. لا تجعل هؤلاء الحثالة يسلبونني.. أرجوك ساعدني يا سرور».. أوماً سرور برأسه إليه ثم تركه وهو يتقدم ببطء إلى مدخل المتجر.. لا يعلم ماذا يفعل.. وكيف سيوقف هذا الجنون الذي يحدث أمامه.. ولكنه لم يتوقف.. جسده أخذ في الارتعاش وتعالق دقات قلبه في الحال وهو يقف أمام المتجر ويشاهد الجميع وهم يتكالبون على متجر عزام كما تتكالب الذئاب على لحم شاة بضة.. لم يشعر بنفسه إلا وهو يقوم بدفع سيده حاولت الخروج من المتجر بمسروقاتها الثمينة.. فسقطت على الأرض سريعاً إثر دفعة سرور وأخذت تصرخ به وتسبه.. هنا أخرج سلاحه الناري أمامها ويده مرتعشة.. فصرخت السيدة خائفة ومع صراخها ارتعشت يد سرور أكثر.. وأكثر وانتاب الهلع قلبه وأخذ يفكر مرتاعاً كيف سيستطيع إيقاف الجميع بمفرده.. هنا تفاجأ سرور بثلاثة أشخاص يحملون سرقاتهم وينوون الخروج من المتجر ليجدوا سرور واقفاً أمامهم وهو يرتعش بسلاحه يسد الطريق عليهم.. صدموا من

رؤيتهم لسرور في البداية ولكن بعد ذلك ضحك أحدهم ساخرًا وهو يشاهده يرتعش: «ما هذا؟ إنه خائف منا.. إنه يرتعش كالأطفال».. فأخذ الجميع يضحك عليه وتحدث شخص آخر بجواره: «هههه إنه خائف بالفعل.. ماذا.. أليس هذا هو سرور المنبوذ؟».. هنا شعر سرور بالغضب الشديد عند سماعه لقب منبوذ ولم يتردد في الحال بأن يضغط على زناده.. فانطلقت رصاصة في الحال لتستقر في كتف الرجل.. فصرخ بشدة.. صوت إطلاق النار مع صريخ الرجل متألمًا جعل الرجال مرتاعين.. ذلك الموقف أثار انتباه جميع مرتادي المتجر وجعلهم يقفون بالقرب من مدخله وهم ساهمون يشاهدون سرور بسلاحه الذي أخذ يرتعش أكثر وأكثر ولكنه وضع يديه الاثنتين بقوة على السلاح وهو يشهره جهتهم.. فسأل أحدهم شخصًا بجواره: «ماذا يحدث؟».. فأجاب سريعًا: «لقد أطلق سرور النار على سعيد.. إنه سيقتلنا».. أخذ الجميع ينظرون الى سرور خائفين: «سرور.. سرور المنبوذ».. شعر سرور بالغضب مرة أخرى.. فقام بإطلاق النيران في الهواء وهو يصرخ بهم: «نعم أنا سرور بكري أيها اللصوص.. سرور بكري الذي كنتم تنعتونه بالمنبوذ وتقولون عنه مجرمًا.. انظروا إلى حالكم الآن.. من هو المجرم الآن».. تأبط عزام ذراع أحد العمال مسرعًا وتقدم بجهة سرور وهو يضحك ويشد على كتفه: «سرور أشكرك أيها الشجاع.. لا تترك هؤلاء الأوغاد يسرقون متجري»..

هنا قام سرور في الحال بالتحدث إلى عمال المتجر: «اذهبوا إلى الأبواب وأغلقوها جميعًا واتركوا بابًا واحدًا مفتوحًا».. ثم تحدث إلى

الجموع بالمتجر: «وأنتم أيها الأوغاد.. فلتتركوا جميع ما تحملونه على الأرض بجواركم.. ولتغادروا الآن ولا يُعد منكم أحد.. ومن يحاول أن يقترب من هذا المتجر لسرقته مرة أخرى سيجدني بالمرصاد.. منذ هذا اليوم السيد عزام ومتجره تحت حمايتي».. هنا قام الجميع بالامتنان لأوامره في الحال وخرجوا مرتاعين من الباب المفتوح بعد أن تركوا ما كانوا يحملونه وأخذ بعض الرجال يحملون سعيد المصاب بعيداً وهو ينزف بغزارة وسرور يراقب رحيله قلقاً.. ولكنه تصنع الجدية عندما شاهد عزام وعمال المتجر يرتبون على كتفه ويغدقون عليه كلمات الثناء والمديح..



دلف عصام إلى أحد مداخل البنايات التي كان يجلس بداخلها عدد من الجنود يشاهدون التلفاز باهتمام شديد وسأل أحدهم في الحال: «أين العقيد سراج؟ لم أجده بشقته».. أجابه سريعاً: «إنه ينام على أحد الأسرّة بالداخل.. شعر عصام بالاندهاش ودلف إلى الغرفة سريعاً ليجد سراج يغط في النوم على أحد الأسرّة الصغيرة وبجواره على الكوميد فرشاة أسنان صغيرة وأنبوبة المعجون.. أخذ يتلمسها عصام بيديه للحظات متعجباً ليجد سراج مستيقظاً ينظر إليه: «عصام.. لقد أتيت.. كم الساعة الآن؟»..

«إنها التاسعة والرابع.. أخبرني لماذا كنت تنام هنا ولم تنم في شقتك؟».. أخذ سراج يمسح عينيه بيديه وهو يفركهما بشدة قائلاً: «لا.. لا يوجد سبب.. أخبرني لماذا تأخرت لهذا الوقت؟».. قام عصام

بإعطائه الفرشاة ومعجون الأسنان فأمسكها سراج ووضعها في جيبه.. «لقد تأخرت بسبب قيامي ببعض التجارب كما تعلم.. وأيضاً أثناء عودتي ظللت أتابع أحاديث أهل المدينة عن هذا الشبح المزعوم».. أخذ سراج يتلفت حوله خائفاً: «شبح.. شبح.. أين.. أين؟».. اندهش عصام من ردة فعله: «لا يوجد شبح أو شيء يا سيد سراج.. أنا كنت أخبرك بما يتحدث به أهل المدينة فقط».. ابتلع سراج ريقه في الحال: «نعم.. نعم حسناً».. ثم أخرج الفرشاة ووضع المعجون عليها وأخذ يفرش أسنانه بعنف.. لم يعلق عصام عليه فلقد اعتاد رؤية هذا المشهد مع سراج.. انتظره قليلاً ثم تحركاً معاً إلى خارج البناية والجنود وقفوا متنبهين وأعطوا سراج التحية العسكرية وبادلهم سراج بعدم اهتمام واتجه مع عصام إلى بنايتهم..

سأل سراج عصام بقلق: «أتظن أننا سنظل هكذا كثيراً يا عصام.. لا نعلم شيئاً عن العالم والعالم لا يعلم شيئاً عنا».. أجابه عصام: «بالتأكيد لا يا سيد سراج.. أنا متأكد بأن الشرطة بالخارج والحكومة ستبحث عنا وستجدنا»..

أخذاً يتحركان في الشارع جهة المبنى.. «ولكن متى يا عصام.. متى؟ لقد مرت بالفعل عشرة أيام.. كيف لم يستطيعوا العثور علينا؟ هل اختفينا عن سطح الأرض أم ماذا؟»..

.. أو ما برأسه نافياً: «لا أعلم يا سيد سراج.. لا أعلم.. أنا لم أحلم في حياتي أن أمر بتجربة كالتى نحن بها الآن.. الأمر صعب للغاية.. وإذا كان الأمر مستعصياً على الحكومة المصرية فبالتأكيد لن يستعصي على

الحكومة الأمريكية فأنا أحمل جنسيتهم وأعمل لديهم بالتأكيد سوف يبحثون عني وهذا شيء أنا على يقين به.. سيجدوننا آجلاً أم عاجلاً سواء عن طريق البحث الحراري أو الأقمار الصناعية.. ولكن الأهم الآن أن نستطيع أن نسيطر على زمام الأمور كما هي في المدينة»..

«الأمر صعب يا عصام.. كل يوم يترامى إلى أذني عدم انصياع الجنود للأوامر ولا أحاول أن أشق عليهم حتى لا يعلنوا العصيان.. المدينة الآن في وضعها الحالي لا تتحمل عصياناً مسلحاً.. لهذا أنا سحبت الذخيرة الحية من الجنود وأخفيتها.. ولولا ذلك لكان حدث الأسوأ»..

«لا تقلق يا سيد سراج.. إذا ظللنا أنا وأنت وعمدة المدينة وكبار العائلات مسيطرين فسوف نحافظ على وضع المدينة كما هي».. توقف عصام وسراج عند باب منزل سراج الذي تحدث إليه مترجياً: «أخبرني يا عصام.. لماذا لا نجلس معاً في شقتي.. نأنس ببعض ونتحدث.. أنا أصبحت أكره الجلوس بمفردي»..

ابتسم عصام: «حسناً يا سيد سراج.. أنا أيضاً أشعر بالضيق والملل من جلوسي بمفردي.. هيا بنا لنؤنس بعضنا».. فابتسم سراج وربت على كتفه وفتح باب شقته ودلفا جميعاً إلى الداخل.. أشعل سراج الإضاءة في الحال وأخذ يتلفت حوله في الشقة فوجد كل شيء عاد إلى وضعه ومكانه فابتلع ريقه وتقدم وهو يسمي الله ويحوقل.. وأخذ يشير إلى مكان الحمام والمطبخ لعصام وجلس في غرفة المعيشة على الطاولة والمقاعد وهو يتفحصها قلقاً بينما كان عصام يأخذ حماماً دافئاً

وخرج سريعاً فدلف سراج وأخذ حماماً دافئاً هو أيضاً وقام بحلاقة ذقنه وقاما بتناول العشاء وجلسا في غرفة النوم وتمدد سراج على السرير بينما افترش عصام إحدى الأرائك في الغرفة وأخذا يتحدثان: «أتعلم يا عصام.. لقد كنت أبحث دائماً عن شيء يثيرني ويخرجني من حالة الملل التي أصبت بها في عملي وبين زوجتي وأطفالي.. كنت أكره الروتين وتكرار الأمور كما هي.. ولكن بعد ما حدث لي الآن أشعر أنني كنت في نعمة كبيرة وقد زالت من يدي.. اللعنة على الإثارة والتغيير.. لا يأتي من ورائهم خير أبداً».. أخذ عصام يتسّم: «أنا أيضاً مثلك.. كنت أعتقد أن العالم الذي نعيش به قد انتهى أمره ولا يوجد شيء به يستحق أن نبحث في أمره ولذلك كنت أتطلع دائماً إلى السماء ونجومها أحاول تخيل العيش بين النجوم وعلى الكواكب الأخرى غير المكتشفة.. أحاول أن أنظر بعيوني إلى المجهول.. إلى المشتري والمريخ وتلك الأجرام التي كنت أسمع عنها وأنا صغير لا أفقه شيئاً.. حلم حياتي أن أحقق في أرضها وسماؤها والأجرام المحيطة بها.. أحاول أن أخرج إلى خارج كوكب الأرض وإلى خارج مجموعتنا الشمسية.. بل إلى خارج مجرتنا بالكامل.. وخارج ملايين المجرات التي تحيط بنا.. كنت أتخيل أنني أستطيع أن أعلم عن أسرار كوكبنا وحياتنا بداخله إذا بحثت عن أصل الحياة في أماكن أخرى.. ولكن تجربتي هنا في جهينة أثبتت لي أنني كنت ساذجاً.. ساذجاً وأحمق للغاية.. أي ما كان يحدث في تلك المدينة.. أثبت أننا لم نستطع الوصول إلى أسرار كوكبنا الصغير هذا.. فكيف لنا أن نفكر في كشف ألغاز هذا الكون الفسيح؟ ما حدث جعلني أدرك أننا مصابون جميعاً بالغرور والعمى والأناية نظن أنفسنا

مسيطرين على مجرى العالم وبالفعل أصغر شيء يستطيع أن يؤثر على حياتنا جميعاً ويسير بنا للجحيم».. أخذ سراج يضحك ساخراً: «من أين أتت إليك كل تلك الحكمة يا عصام.. هل حولتك جهينة إلى فيلسوف فجأة؟».. «لا يا سيد سراج.. الأمر برمته أنني اكتشفت أنني رغم كوني عالماً ما زلت لا أعلم أي شيء عن أي شيء.. كنت بالفعل أختال بعلمي ومعلوماتي وعقلي.. لكن كل ذلك لم يغني عني بتفسير شيء واحد فقط حدث على أرض جهينة هنا»..

«.. لا تشق على نفسك يا صديقي أنا أيضاً لا أعلم.. ولا ما زلت العمدة ولا كريم ومساعدوه ولا أي شخص آخر.. أكاد أجزم بأنه لا أحد يعلم ما يحدث في تلك المدينة المجنونة بعد الآن».. أخذ يشير إليه بيده أن يتوقف: «أنا سئمت من جهينة والحديث عنها.. أتمنى يا صديقي أن نتجاذب أطراف الحديث عن شيء آخر غيرها».. ابتسم عصام في الحال: «نعم.. نعم.. أشعر بما تمر به.. سوف نتحدث عن شيء آخر وبتلك المناسبة هناك شيء يورقني منذ فترة كبيرة وكنت أشعر بالخجل من سؤالك عنه»..

.. «اسألني يا صديقي عما تريد»..

أخذ يعتدل في جلسته وهو يحاول أن يتحدث أكثر من مرة ويتردد: «حسناً.. اعممم.. سؤاله هو.. اعممم.. اعممم.. عن شيء تفعله كثيراً.. ولا تؤاخذني على سؤاله ذلك ولكن أنت تعلم الفضول».. «أخبرني ما هو سؤالك»..

«حسنًا.. أنت تغسل أسنانك كثيرًا وفي أوقات غريبة للغاية وأمام الناس دون أن تشعر بالخجل.. وأنا أرى هذا الشيء من وجهة نظري غريب للغاية.. وأتمنى أن تسامحني على تدخلتي الأحمق هذا.. أنا آسف»..

ابتسم سراج خجلًا وأخذ يطأطئ رأسه وهو يقهقه بصوت هادئ: «لا.. لا عليك.. هل لهذه الدرجة كنت أفعل هذا الأمر دون أن ألاحظ؟»..

«هذا يعني أنك لم تكن تشعر بفعل هذا الأمر أمامنا.. أنا كنت أعتقد أنك تفعله بإرادتك»..

شعر سراج بالإحراج: «أحمم.. هو.. الأمر.. به شيء قديم بالنسبة لي.. كثيرًا ما كان البعض يحدثني عن هذا الأمر في السابق لكن الآن لم يعد أحد يحدثني عنه.. يبدو أن ذلك بسبب وظيفتي الآن»..

«إذا كان سؤالي هذا سيسبب أي شيء لك.. آسف أنني قلته ولن أسألك عن هذا الأمر مرة أخرى»..

«لا.. ليس الأمر خطيرًا لهذه الدرجة ولكنه يذكرني بذكرى قديمة حدثت لي.. سوف أخبرك الآن بقصتي باختصار.. أنا سليل عائلة كلها ضباط.. منذ جدود جدودي.. منهم من كان في الجيش أو الشرطة.. حتى أبي وأعمامي كلهم كانوا ضباطًا.. ولهذا كانوا دائمًا ما يهتمون بالانضباط والروتين والصرامة حتى في معاملتهم مع أبنائهم.. وكان أبي نفس الأمر ولكنه كان أكثر أفراد العائلة تقديسًا

للروتين وللصرامة.. كان كل شيء لديه بميعاد ووقت معين.. الأكل والشرب والنوم والاستحمام.. حياتي كلها كانت مبنية على جدول مرسوم على الحائط منذ ولادتي وأنا أفعل ما به.. وظل الأمر كذلك حتى وصلت إلى المرحلة الإعدادية وهنا قام والدي بادخالي مدرسة عسكرية داخلية.. وتركني مطمئناً أني سوف أزداد حباً في الروتين والانضباط، ولكن حدث العكس تماماً.. لن تصدقني عندما أخبرك بأني وجدت أن المدرسة العسكرية تلك أقل صرامة بكثير مما كان يفعله معي أبي بالمنزل.. ولهذا وجدت لنفسي متنفساً هناك ألعب مع أقراني وأتسامر معهم.. عشت جزءاً من طفولتي المفقودة وكانت تلك الفترة من أجمل أيام حياتي بالفعل.. تركني والدي بالمدرسة لمدة عام كامل لكي يجعلني أشعر بالصرامة ولا أحتاج إلى التدليل وحب الوالدين كما كان يعتقد وهذا العام مر بي سريعاً وكان مليئاً بما أحب وأشتهي.. ولكنه انتهى بفعل أثر بي طول حياتي حتى الآن.. حيث عدت في أحد الأيام من تمرين الصباح بالمدرسة لأجد أمي وأبي في انتظاري بغرفتي.. شعرت بالفرح الشديد عند رؤيتهما وأخذت أمي تنهال علي بكل حب وتقبلني وتحتضني بكل شوق.. انسابت مشاعري وأشجاني.. مازلت أتذكر حضنها الدافئ وقبلاتها وتنفسها بجانب أذني حتى الآن.. لقد ارتسمت تلك اللحظة من حنان أمي في مخيلتي، وأظنها لن تندثر إلى الأبد، وذلك بفضل ما حدث بعد ذلك.. ابتسم لي أبي حين رأي وأنا ابتسمت له فرحاً ولكني لم أبادر بالتحرك جهته حتى بادر هو كما عودني.. ولكن عندما شاهد أبي ابتسامتي تحول وجهه بطريقة مخيفة ونظر لي نظرة جعلتني أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني ولا يرمقني

بتلك النظرات مرة أخرى.. لقد غضب مني بشدة.. وبدون أن أعلم السبب قام بصفعي بيده بقوة شديدة طرحتني أرضاً وصرخت أمي بخوف علي واحتضنتني.. ثم ذهب إلى خارج الغرفة غاضباً وصرخ على مدير المدرسه للحظات وأخبره بأن يحضر جميع التلاميذ بالمدرسه الآن في طابور نظامي في باحة المدرسة وبالفعل نفذ المدير أوامره بدون تردد.. ثم سحبنى أبي من يدي وهو يصرخ بي وأنا أرتعد من الخوف لا أعلم ماذا فعلت لكل ذلك.. كل ما فعلته أنني ابتسمت له فقط.. لم أشعر بنفسي إلا عندما وجدتني أقف في صف واحد مع أبي ومدير المدرسة وأمامي يصطف جميع الطلاب من كافة المراحل التعليمية يرمقونني مندهشين.. لم تتحمل قدماي ما يحدث معي وسقطت على الأرض خوفاً.. ولكن صفة من يد أبي مع صرخة انتباه جعلتني أقف منتظماً في مكاني على الرغم من ارتعاد قدمي وجسدي بشكل واضح.. أخذ أبي يصيح في التلاميذ والمدرسين وهو غاضب ويخبرهم عن مدى الإهمال الذي يحدث في تلك المدرسة.. ثم أشار إليّ بيده وهو يحمل فرشاة الأسنان والمعجون.. وصرخ بأن أسناني متسخة وهذا يدل على عدم الاهتمام بالطلاب وتنفيذ الأوامر لأن أسناني كانت صفراء وهذا يدل على أنني لم أقم بغسلها لفترة طويلة.. ثم طلب مني أن أغسل أسناني لمدة خمس دقائق كاملة أمام جميع الطلاب لكي يتعلم الباقي أنه لا تهاون في تنفيذ الأوامر بعد ذلك.. وهنا أخذت أفرك أسناني بالفرشاة في عنف شديد وأنا أبكي متوتراً.. لشعوري بالإهانة من معاقبتي أمام أصدقائي وزملائي ومن رؤية باقي الطلاب يتضحكون ويتندرون علي.. ومنذ تلك اللحظة لم أتوان عن غسل أسناني وتنفيذ

الأوامر المكلف بها أبداً حتى ولو كانت الذهاب إلى بلاد واق الواق..
ويبدو أن غسل أسناني هكذا أصبحت عادة أفعالها بدون وعي مني
عندما أتوتر.. هل علمت لماذا يحدث هذا معي يا صديقي؟» ..

«أنا آسف يا سيد سراج لأنني جعلتك تتذكر تلك اللحظات السيئة
في حياتك.. أنا لم أكن أقصد ذلك»... «لا تقلق يا صديقي ليس لك
ذنب فيما حدث لي بالسابق.. أو ما يحدث لي الآن.. يبدو أنني سيئ
الحظ.. وأنت أيضاً سيئ الحظ لأنك عالق معي الآن... ههههه»..

أخذ عصام في فرك رأسه وهو عابس: «أنا لا أعتقد بأنه سوء حظ
أكثر من كونه جهلاً منا الآن بما يحدث حولنا.. فبالفعل إذا عرف
السبب بطل العجب.. وأنا لن أتوانى عن محاولة فك هذا اللغز الذي
يحدث معنا هنا.. سوف أحاول الكشف عنه والتدبر في أحداثه خلال
الأيام التي أمكث بها هنا»..

أخذ سراج ينظر حوله متردداً وهو يحاول أن يتحدث إلى عصام
ولكنه يتراجع بعد لحظات.. لكنه تحدث إليه على مضض بالنهاية:
«أخبرني يا عصام.. هل.. اممم.. تعتقد في وجود الأشباح بالفعل..؟»

ضحك عصام بشدة وتحدث إليه ساخرًا: «أشباح.. أشباح.. حتى
أنت يا سيد سراج بدأ أهل المدينة بإقناعك بهذه الخزعبلات؟!».

اعتدل سراج في جلسته حانقًا: «بعد كل ما شاهدنا ويحدث معنا
من عجائب وغرائب بجهينة.. وأنت غير مقتنع بوجود الأشباح!»..

«يا سيد سراج.. أشباح ماذا.. إن كل ذلك من وحي خيال أهل المدينة.. الاضطراب والقلق والتوتر الناتج عما يحدث يجعلهم يشاهدون كل تلك الهلاوس والخزعبلات.. وبالتأكيد هناك بعض الصبية أو الأشخاص من يفعل تلك المقالب وينسبها لهذا الشبح المزعوم ليخيف أهل المدينة.. وهذا خطر للغاية.. إذا تملك الخوف من الناس فإنهم قد يفعلون أي شيء وسيتغافلون عن المنطق»..

«أي منطق مازال قائماً فيما يحدث؟ أمازلت تتحدث عن المنطق؟ إن ما يتناوله أهل المدينة حقيقي بالفعل.. لقد شاهدت بالفعل هذا الشبح في منزلي هذا الصباح»..

اندهش عصام من قول سراج.. «ماذا؟! شاهدته.. كيف؟! اشرح لي»..

«لقد حدثت معي تلك الأمور المخيفة التي تحدث من الأشباح.. لقد انطفأت الأنوار فجأة.. وتحرك الأثاث من تلقاء نفسه وحدثت أمور مخيفة»..

ابتسم عصام: «لا تقلق.. لقد أخبرتك بأن كل تلك الأمور هي خدع يقوم بها شخص ما.. وخوفك وتوترك جعلك تشعر بأنها من فعل أشباح بالفعل»..

أخذ سراج يدافع عن نفسه غاضباً: «هل أنا طفل صغير يا عصام لكي يخدعني شخص ما؟ إنني أخبرك بأني رأيت أفعال ذلك الشبح

بنفسي».. ثم أخرج هاتفه من جيبيه ووضع بجواره بعنف.. «وهاتفني الذي بدون شبكة منذ أن أتينا.. لقد أخذ يرن أمامي»..

ظل عصام يتحدثاه ضاحكًا: «إذًا لماذا ظهر هذا الشبح المزعوم لك أنت فقط؟ أنت أخبرتني أنه بالشقة.. فليظهر لي أنا أيضًا».. ثم أخذ يصرخ وهو ينظر حوله ساخرًا: «أنت أيها الشبح المزعوم.. فلتظهر لي أنا أيضًا.. أنا لست خائفًا منك.. إني أتحداك.. هيا اظهر الآن أيها الجبان»..

أخذ سراج يتلفت حوله قلقًا.. وعصام يحدثه ساخرًا وهو يشير إليه بيده: «أرأيت.. لا يوجد في هذا العالم ما يسمى بالأشباح».. لم يكمل عصام حديثه حتى رن هاتف سراج فجأة بجوارهما.. فقفز سراج فزعًا وتعلق بعصام الذي دب القلق في قلبه وهو يشاهد الهاتف وهو يرن أمامه.. ابتسم سراج متشفيًا وهو خائف: «أرأيت.. أرأيت بنفسك أن هاتفني يرن كما أخبرتك؟».. ابتلع عصام ريقه بالحال ثم ابتسم: «إذًا هذا خبر سار للغاية.. نستطيع أن نخبر المتصل بأوضاعنا ونطلب منه المساعدة.. وقفز إلى الهاتف سريعًا وأمسكه بيده وهو يرن بقوة.. أخذ ينظر إلى الهاتف فوجد رقم يتصل به بدون اسم.. ففتح الهاتف سريعًا ووضع على أذنه.. فسمع أصواتًا متداخلة وكهرباء استاتيكية قوية صوتها يكاد ينفذ إلى خارج الهاتف.. تحدث عصام في الحال متمنيًا أن يسمعه الطرف الآخر: «آلو.. هل تسمعني؟ أنا العالم عصام ناجي ومعني العقيد سراج توفيق.. نحن بداخل جهينة ولا نستطيع الخروج منها.. آلو.. آلو.. هل تسمعني؟»..

هنا انطفأ نور المنزل بأكمله.. فشعر سراج بالخوف الشديد وظل
يصرخ على عصام بجواره: «عصام.. رأيت.. لقد أغلق النور.. هل
رأيت.. هل صدقتني؟»..

أخذت يد عصام ترتعش بالرغم عنه وهو ينظر إلى يده غير مصدق..
حاول أن يوقف الارتعاش بالقوة وهو ينظر إلى الهاتف الذي انقطع
الاتصال به.. فأعطاه لسراج وأخبره أن يشعل مصباح الهاتف لكي
يستطيع أن يرى في الظلام، وامتل سراج له في الحال وأشعل مصباح
هاتفه وأخذ يضيء به بداخل الغرفة.. فطلب منه عصام أن يخرج إلى
خارج الغرفة لكي يبحث عن مفتاح الكهرباء.. فأوماً سراج له برأسه
وخرجا من الغرفة وقام عصام بإشعال مصباح هاتفه وأنار به غرفة
المعيشة.. اتجه عصام إلى مفتاح الكهرباء وفتح علبتها ونظر بداخلها
ليجد مفتاح الكهرباء مغلقاً.. فرفعه وعادت الأضواء في الحال.. فنظر
إلى سراج فوجد وجهه محققاً وهو خائف.. فابتسم عصام له ليطمئنه:
«لا تقلق يا سيد سراج.. لا يوجد شيء كما أخبرتك.. ولا أشباح
أو غيره».. هنا جحظت عينا عصام ووقفت دماؤه في عروقه عندما
شعر بأن أحداً ما يمسكه من تلايبه ودفعه بقوة شديدة جداً إلى آخر
غرفة المعيشة ليسقط على الأرض.. صدم عصام مما يحدث بشدة..
ووجد سراج يصرخ وهو يتراجع خائفاً: «إنه الشبح.. إنه الشبح»..

أخذ عصام ينظر إليه مذهولاً مما يحدث.. وفجأة وجد مقعداً من
مائدة الطعام يسحب بشدة ويرفع في الهواء ثم يتحطم على الأرض
بجواره.. هنا قفز عصام مرتاعاً مرتعشاً جهة سراج.. وهو يشاهد قطع

الأثاث تسحب في الهواء وتلقى في جميع أنحاء الغرفة حولهما ثم صدر صوت صريخ قوي جداً.. هنا لم يشعرا بأنفسهما إلا وهما يركضان جهة الباب يحاولان فتحه وهما يصيحان خائفين.. ولكنها وجدا أنفسهما يدفعان بعيداً عن الباب بعنف شديد للغاية فابتعدا للوراء خائفين.. وهنا أغلقت الأنوار فجأة وظهرت أمامهما شعلة نار صغيرة تتحرك في الظلام وتلتف بأنحاء الغرفة.. أخذ سراج يشعل هاتفه هو وعصام وهما يثبتانهما خائفين ويقرآن القرآن في فزع وهما يصرخان ويطلبان النجدة.. وهنا وجدا أن النيران تتحرك على الحائط وتكتب حروفاً بعربية غير متساوية: «أميرة.. ابحثا عن أميرة».. فصرخ عصام: «من أميرة؟ من أنت؟ وماذا تريد منا؟».. فوجد النيران انطفأت من على الحائط ثم كتب عليها مرة أخرى: «أميرة ستخبرك...».. وهنا سمعا صوت طرُق شديد على الباب وصوت كريم يصرخ عليهما: «دكتور عصام.. سراج باشا.. ماذا يحدث هنا؟ ما هذا الصراخ؟»..

هنا صرخ سراج وعصام في الحال على كريم: «نحن هنا.. افتح الباب.. أنقذنا يا كريم».. هنا أجابهما كريم بسرعة وهو يحاول تحطيم الباب بقوة.. أطفئت النيران من على الحائط بسرعة وكتب سريعاً بدلاً منها: «لا تصدقوه.. ابحثوا عن أميرة».. فصرخ سراج خائفاً: «أنقذونا.. أنقذونا».. فجأة صدرت أصوات كثيرة من خلف الباب لعدد من الجنود وهم يتحدثون ويحاولون تحطيم الباب.. هنا نظر عصام باهتمام إلى الرسالة على الحائط فتحدث إلى الشبح وهو يصرخ: «لا نصدق من؟ من تقصد بكلامك؟»..

هنا انطفأت النيران وكتبت سريعاً كلمة: «كريم»..

حطم الجنود الباب في الحال، ودلفوا إلى المنزل بصحبة كريم الذي ذهب سريعاً إلى مفتاح الكهرباء وأضاء الغرفة ليجد عصام وسراج مرتاعين على الأرض فحدثها وسألها عما يحدث.. فأخبراه بكامل القصة وأن الشبح أخبرهما أن يبحثا عن أميرة.. فنظر إليهما كريم مندهشاً وهو يحدث نفسه: «أميرة.. تلك الفتاة المنبوذة.. ألم يخبركم بشيء آخر؟».. أجاب سراج نائياً: «لا.. لم نخبرنا بشيء آخر»..

فأخذ كريم يحدثها مبتسماً ويطمئنهما.. بينما أخذ عصام يفكر فيما حدث منذ قليل وهو يشعر برد فعل كريم الذي كان يسألها عما قاله الشبح ولم يشكك في كلامهما.. وهنا بدأ عصام يرتاب فيما يحدث..



(لا أتذكر)

ظِلُّ أسود طوله يتعدى المترين يقف في وسط المدينة دون أن يلحظه أحد ، ولكن أميرة كانت تقف وتراه من بعيد.. يشعر بها الظل ، وتضحى عيونه في ظهره.. يراها فيصرخ ويهجم عليها في الحال.. تحاول أن تركض خائفة ولكنه يرفع يده الضخمة بقوة ويهوي بها على رأسها..

تستيقظ أميرة صارخة.. تتحسس جسدها، وعرقها يغزو جسدها.. تأتي عمته إليها بسرعة وتجلس على سريرها وتحدثها قلقة: «ماذا هنالك يا بنيتي؟ ماذا ألمَّ بك؟»..

أجابتها بأنفاس متقطعة: «الكابوس.. الكابوس الذي يراودني كل ليلة يا عمتي.. هذا الظل الأسود اللعين الذي يأتي إليَّ في منامي كل يوم»..

«لا تقلقي يا بنيتي.. اقرئي بعض آيات القرآن الآن ولتخلدي للنوم ولن يصيبك مكروه بإذن الله.. ثم صبت كوب ماء من على المنضدة وأعطته للأميرة التي تناولته في الحال.. ثم هدأت بعد لحظات: «أشكرك يا عمتي. لقد أصبحت أفضل الآن.. اخلدي إلى النوم الآن.. سوف أنام أنا أيضًا...».. ربتت عمته على كتفها تطمئنها ثم تركت

الغرفة سريعاً.. وراقبت أميرة خروجها للخارج ثم أمسكت رأسها تفكر.. لماذا ترى هذا الحلم لأكثر من أسبوع بصفة مستمرة؟ هل الأمر له علاقة بما يحدث في جهينة.. أم أن الأمر كله مجرد مصادفة؟.. هنا شعرت بشيء حولها في الغرفة.. فنظرت حولها مرتابة.. ثم وجدت إحدى مذكراتها التي تكتب بها ملاحظاتها تسقط على الأرض فجأة.. قفزت بسرعة من مكانها وهي تمسك بمذكرتها وتقرأ بعض الكلمات مكتوبة بخط يدها.. وكانت دهشتها كبيرة لأنها أول مرة تقرأ هذا الكلام على الرغم من أنه بخط يديها.. أخذت تقرأ بتمعن شديد وهي تقلب الأوراق بسرعة وهي مندهشة بشدة.. أيعقل بأن يكون هذا الأمر حدث بالفعل؟!!



في صباح اليوم التالي.. أخذ عصام وسراج على عاتقهما معرفة اللغز الذي حدث لهما بالأمس مع ذلك الشبح، فقررا الذهاب إلى أميرة تلك المنبوذة التي سمعا عنها، ولكن لم يرياها قبل ذلك.. تحرك الاثنان إلى خارج المنزل ليجدا كريم في انتظارهما بسيارته مبتسماً: «صباح الخير.. أتمنى أن تكونا استطعتما النوم بعد ما حدث لكما بالأمس».. أجابه سراج عابساً: «لا تذكرني يا كريم بالله عليك.. لقد كانت ليلة سوداء على رأسي.. واستطعت النوم في شقة عصام بشق الأنفس».. ابتسم كريم له ثم توجه إلى عصام بسؤال: «وأنت يا سيد عصام.. هل استطعت النوم جيداً بالأمس أم لا؟»..

أجابه عصام بحدة: «ماذا تفعل هنا؟».. نظر إليه كريم مبتسمًا ومتحيرًا من سؤاله: «لا شيء، لقد استيقظت مبكرًا وأنت تعلم أنه لا يوجد أي شيء لفعله في المدينة الآن أفضل من صحبتكم كما نفعل يوميًا»..

«لا.. نحن نشكر.. سوف نقوم ببعض الأعمال السرية اليوم، ولا نريد أن نعلم بها أحدًا حتى أنت»..

شعر كريم بالإحراج: «حسنًا.. أنا آسف.. سوف أترككما بمفردكما كما تشاءان.. ولكنني رهن أمركما في أي وقت.. سوف انتظر هنا مع الجنود.. إذا أردتما مني أي شيء فسوف تجداني هنا»..

تحرك عصام وسراج وتركوا كريم يرمقهما بنظرات غاضبة خلفهما.. هنا نظر سراج خلفه قليلًا ثم تحدث إلى عصام مستفسرًا: «لماذا تعاملت بغلظة هكذا مع كريم يا عصام؟ إنه شاب دمث الخلق وخدم»..

«ألم تقرأ ما كتبه هذا الشيء الذي ظهر لنا بالأمس.. ألا نتق في كريم؟»..

أجابه سراج غاضبًا: «هل جنت؟ هل سنستمع لحديث شبح ولا نتق في شخص كان يساعدنا وينفذ كل رغباتنا؟!».. أجابه عصام بثقة: «أنا متأكد بأن ما شاهدته بالأمس لم يكن شبحًا ولكنه مؤكد سوف يكون بداية حل اللغز لما يحدث هنا بجهينة.. ونحن بالفعل استمعنا لحديثه.. ألم يأمرنا بأن نبحت عن تلك المنبوذة أميرة ونحن نفعل ذلك الآن؟»..

«ولكن أنا وأنت لا نعلم أي شيء عن تلك المنبوذة أو أين تمكث الآن.. ألم يكن من الأفضل أن نأخذ كريم معنا كدليل لكي نصل إليها؟»..

«لا.. كريم هذا أصبح لا أثق به.. لا أعلم لماذا ولكن منذ أمس وأنا أشعر بالنفور منه.. أما عن أميرة تلك المنبوذة فسنجدها إذا سألنا أي شخص من سكان المدينة.. لا تنس أنك عقيد شرطة.. وأنت تعلم ماذا تمثل الشرطة من سلطة على المصريين»..

مرًا على ثلاثة شوارع وانتهيا إلى الجراج الذي تنتظر به سيارة الشرطة وبجوارها جندي يحرسها.. وهنا فوجئا بوجود فتاة جميلة ترتدي الأسود تتحدث إلى الجندي، ونظر إليهما فرحًا وأشار إليهما.. فركضت الفتاة مسرعة إليهما وسألتهما: «هل أنتما العالم عصام ناجي والعقيد سراج توفيق؟»..

أوماً إليها برأسيهما: «نعم».. وسألها سراج في الحال: «من أنت؟».. «أنا أدعى أميرة عادل.. وكنت أبحث عنكما».. نظر كلاهما إلى الآخر مندهشين، وحدثها عصام سريعًا: «ونحن أيضًا كنا نبحث عنك وفي الطريق إليك»..

سراج: «هل أنت أيضًا أخبرك الشبح بمقابلتنا؟»..

«نعم.. نعم.. ولكنه ليس شبحًا.. إنه شخص مثلي ومثلك»..

نظر عصام إلى سراج وحدثه بفضول: «أنا كنت على حق إذا.. وهو ليس شبّحًا.. هل تعلمين من هذا الشخص إذا؟.. هل تعلمين هويته ولماذا يفعل ذلك؟»..

«نعم لقد أخبرني بأنه شخص أتى معكم هنا إلى جهينة.. وأنه يعلم عني كل شيء، وأنا منبوذة، وذكر لي سبب نبذي، وأخبرني بأشياء لا يعلم أحد عنها من أهل المدينة ولم أخبر بها أي شخص من قبل»..

سراج بفضول: «أتى معنا إلى جهينة!! من هذا الشخص؟ أخبريني سريعًا»..

«لقد أخبرني أن اسمه رامي إمام وأنه صحفي»..

أخذ سراج يداعب شاربه باهتمام: «رامي إمام.. وصحفي.. رامي إمام صحفي.. أنا لا أتذكر شخصًا بهذا الاسم مطلقًا.. وأنت يا عصام.. هل تتذكر رامي هذا؟»..

أومأ عصام برأسه نافيًا: «لا.. لم أسمع عنه في حياتي مطلقًا.. لا أتذكر أنني على معرفة برامي هذا أبدًا»..

نظرت لهما أميرة بأسى: «وأنا أيضًا لم أتذكره على الرغم من إحساسي بأن حديثه حقيقي»..

عصام: «رامي هذا أمره عجيب.. لماذا يفعل كل ذلك؟ لماذا يدعي أنه يعرفنا؟ لماذا لم يقابلنا بنفسه؟ لماذا كل هذه المسرحيات التي عملها في المنزل بالأمس؟ أنا أريد أن أقابله.. أريد أن أسأله أسئلة كثيرة في رأسي.. أخبريني أين هو»..

«أنا أيضًا لم أره أو أعلم عنه أي شيء.. مثلكم»..
سراج مندهشًا: «ماذا؟ وكيف إذا أخبرك بكل تلك الأمور عن
حضوره معنا إلى المدينة وهذا الهراء الآخر؟».

«أنا لم أره كما أخبرتكما.. لكنني كنت أشعر بوجوده بجواري في
الغرفة والمنزل، وكنت أشعر بحضور شيء يراقبني، وبالأمس وجدت
هذه المذكرات الخاصة بي.. هناك بعض الكتابات بخط يدي عن
مقابلتي مع رامي هذا.. ووجدت أنني أدون لنفسي أنني يجب ألا أنسى
رامي لأن الجميع لن يتذكروه بعد الآن.. وأني الأمل الوحيد الذي تبقى
له.. لأني شاهدت هذا في رؤيا عن المستقبل لي.. وأني يجب أن أبتعد
عن المدعو كريم مساعد مازن لأني علمت ماهيته الحقيقية»..

نظر عصام إلى سراج وسأله بفضول شديد: «ماهية كريم الحقيقية!!
هل كريم هذا مزيف؟ ورؤيا مستقبل ماذا؟ عمّ تتحدثين بالضبط؟..»
أجابتهما في اندهاش: «ألا تعلمان قصتي ولماذا أنا منبوذة من
أهل جهينة؟»..

سراج في الحال: «لا.. لا نعلم شيئًا.. أخبرينا»..
نظرت لهما أميرة مضطربة: «لا يهم.. لقد أوصلت لكما رسالة رامي
كما دون لي في مذكري.. إذا أردتما أن تتذكراه فيجب أن تذهبا إلى الشقة
التي بالأعلى.. سوف تتذكرانه حينها»..

ثم حاولت أميرة أن تتركهما وتذهب.. فاقترب منها عصام وحاول
أن يوقفها: «انتظري.. إلى أين أنتِ ذاهبة؟ لم نكمل حديثنا بعد»..

صرخت به أميرة وهي تسحب يدها قبل أن يلمسها عصام:
«لا تلمسني.. لا تلمسني».. ثم تحركت مسرعة إلى الخارج.
نظر سراج إلى أميرة وهي تغادر مسرعة مندهشًا وهو يضرب كفاً
بكف: «شبح.. ورامي ومنبوذة ورؤيا مستقبل.. ماذا يحدث في تلك
المدينة بحق الجحيم؟»..



رامي إمام جالسًا على أحد أرصفة المدينة يراقب بعض المارة وهم
يسرون في طريقهم.. يحمل رامي بعض الحصى الصغير بيده ويلقيه
على المارة وهم أمامه فينظرون حولهم مرتعبين وهم لا يرونه.. كل
ما يشاهدونه هو الحصى وهو يلقي عليهم من الفراغ فيشعرون بالفرع
ويركضون خائفين وهم يصرخون: الشبح.. الشبح.. ورامي يضحك
بشدة على رد فعلهم.. هنا قاطعته ضحكة كريم الساخرة: «يبدو أن
تقمص دور الشبح هذا قد أعجبك يا رامي»..

ابتلع رامي ضحكاته سريعًا ونظر إلى كريم غاضبًا ووقف في مكانه
سريعًا: «أنت.. أيها الوغد الوسيم»..

ضحك كريم بشدة: «ههههه.. أنت رائع للغاية يا رامي..
رائع ومُسلِّ جدًا.. ما رأيك بما فعلته بك؟ حينما جعلتك منبوذًا
بالفعل.. ليس مثلما يفعل مازن عمدة المدينة مع أهلها بأن يتجاهلوك
ولا يتحدثوا إليك.. لكي تكون منبوذًا بحق.. يجب ألا يستطيعوا
رؤيتك أو سماعك أو حتى أن يتذكروك.. تصبح أنت والعدم سواء..»

هذا المعنى الحقيقي بأن تكون منبؤاً.. أخذ كريم يتحرك حول رامي وهو يحدثه ورامي ينظر له بعيون غاضبة مترقبة.. فيتابع كريم حديثه إليه مبتسماً: «ولكن أصدقك القول يا رامي.. لقد توقعت رد فعل آخر منك عندما جعلتك منبؤاً.. كنت أتوقع منك أمراً أكثر بشرية من ذلك.. لأن أي إنسان في مكانك سوف يصاب بالجنون عندما يجد نفسه ممسوح الوجود من هذا العالم»..

أخذ رامي يبتسم متشفيًا به: «أكنت تتوقع أن أجن؟ لم تتوقع أن أستغل ما فعلته بي.. أليس كذلك؟ أنت جعلت الجميع ينسى وجودي بالفعل ولا يستطيع أحد رؤيتي أو سماعي.. لكن لن تستطيع أن تمنع أفعالي.. كل ما أفعله يوميًا في جهينة يدل على وجودي.. رغم أنك استطعت أن تجعلني أختفي من ذاكرة الجميع إلا أنني استطعت أن أجعلهم يتذكرونني ويتحدثون عني في كل لحظة.. حتى ولو على هيئة شبح.. هل شاهدت الأحذية التي وضعتها على الأشجار.. يجب أن تعترف بأني عبقرى»..

«هل تظن أنك بهذه الأعمال ستجعلهم يتذكرونك؟ ألم تقم بهذا الأمر مع عصام وسراج وأميرة أربع مرات بالفعل؟»..

قاطعته رامي بحدة «بل خمس مرات»..

ابتسم كريم له: «حسنًا خمس مرات.. ولقد فشلت في كل مرة.. أشكرك على هذا الجهد غير المُجدي»..

أخرج رامى السكين من ملبسه ووقف به متحفزاً أمام كريم الذي ضحك بشدة من فعله هذا: «ماذا؟ سكين مرة أخرى؟ هل تريد أن تقتلني مرة أخرى؟ ألم تسأم من فعل ذلك كل يوم؟!»..

أخذ رامى يداعب ذقنه المتسخة للحظات ثم وضع السكين في ملبسه مرة أخرى: «نعم.. ملبسي ستتسخ بالدماء مرة أخرى»..

أخذ كريم يهز رأسه عدة مرات مبتسماً ثم أجابه: «إذا أتركك تعود لممارسه دور الشبح مرة أخرى في سلام.. أراك قريباً».. ثم أشار بيده إليه مودعاً: «مع السلامة»..

أخذ يشير إليه رامى بيده مودعاً وهو يتسّم عابساً: «مع السلامة أيها الوغد الوسيم»..

* * *

وقف عصام وسراج أمام باب شقة رامى.. وتحدث عصام إلى سراج: «هذه الشقة التي أخبرتنا عنها تلك الفتاة أميرة»..

«ماذا نفعل الآن؟ هل نحطم الباب وندخل؟»..

دفع عصام الباب برفق فوجده قد فتح.. فنظر إلى سراج: «إنه مفتوح».. دلفا إلى داخل المنزل وأشعلا الإضاءة سريعاً لتظهر محتويات الشقة التي كانت مماثلة تقريباً لشققها ولكن وجداعلى الحوائط مكتوباً: «أنا رامى.. أنا موجود.. أنا هنا.. أنا موجود».. والكثير الكثير من الأوراق الموزعة في الغرفة مكتوب عليها معلومات عن رامى وبعض المواقف التي فعلها مع أهل جهينة.. أخذ عصام وسراج يشاهدان

محتويات هذه الأوراق فوجد عصام مكتوباً في إحدى تلك الأوراق: «أول لقاء لي مع عصام ناجي العالم المشهور كان بجهينة وأول حديثنا كان أمام صخرة الذهب التي أخبرته أنها ليست أكبر صخرة ذهب في العالم وأن أكبر صخرة ذهب كانت موجودة في سلطنة بروناي، ولكنه سخر مني وأخبرني بأن تلك معلومة خاطئة».. هنا تذكر عصام حديثه مع شخص ما في ذلك الوقت وأنه قال الآتي: «إن معلوماتك هذه خاطئة.. إن ما تتحدث عنه هو golden rock pagoda.. وهذه صخرة مشهورة ذهبية بالفعل ولكنها ليست في بروناي.. إنها في دولة بورما.. وتلك الصخرة من أهم المعالم السياحية في بورما وتعتبر أيضاً من أهم المعابد هناك.. وفي الحقيقة هي ليست صخرة ذهبية.. هي صخرة عادية للغاية.. ولكنها مطلية بالذهب؛ لأن في اعتقاد المحليين هناك أنه عند شرائهم رقاقات من الذهب وإصاقها بالصخرة فإنها تجلب الحظ والفال السعيد لهم على حسب اعتقادهم.. ولذلك يزداد سُمك الذهب في هذه الصخرة بمعدل ملم واحد سنوياً.. ولكنها في النهاية صخرة مطلية بالذهب وليست ذهباً كاملاً.. أما ما أمامنا الآن فشيء آخر.. إني عالم جيولوجي ورأيت عمليات استخراج ذهب كثيرة.. وما أراه الآن أمامي هو ما يقارب 9 أطنان من الذهب الخالص و عيار 24 أيضاً، وهذا شيء مستحيل وجوده طبيعياً.. وأيضاً صناعياً.. من سيستطيع أن يحصل على 9 أطنان من الذهب الخالص؟! أتعلم كم الجهود المبذول لاستخراج جرام ذهب واحد؟ إن قيمة الذهب المستخرج من طن الصخور تقدر بأقل من 0.001% واحد من الألف في المائة.. إن الذهب من أندر المعادن الموجودة على وجه الأرض.. ولهذا سعره

مرتفع للغاية.. أخبرني من لديه الثروة والقدرة على التنقيب عن ذهب
بمثل تلك الكمية.. وما مقدار الجهد المبذول في ذلك.. ثم تصنيعه
على هذا الشكل، ثم إحضاره إلى مدينة مجهولة مثل جهينة.. علمت
لماذا أخبرك بأنه أمر مستحيل؟».. لقد تذكر عصام هذا الحديث بأكمله
وأنه قام بالفعل بالتحدث إلى شخص ما وأنه كان يصاحبه كثيرًا في
حينها.. وابتدأت تسطع لمحات لحديثهما معًا في عقله وفي مواقف
كثيرة في جهينة.. وسراج أيضًا بدأ يتذكر لمحات من الأوراق المكتوبة
أمامه، وهنا تذكر موقف المطر عندما أمطرت السماء أذرة، وجميع
الحاضرين كانوا مرتعبين مندهشين إلا شخصًا واحدًا فقط كان يقف
تحت هذه الأمطار يشاهدها وعلى وجهه ابتسامة كبيرة.. لقد تذكر هذا
الشخص.. نعم لقد شاهده في موقف أغرب من ذلك.. لقد تذكر..
تذكر رامي وهو واقف مبتسمًا وبجواره جثته.. وهنا ظهرت لمحات
جالية بعقله فأخذ يتحدث إلى عصام: «الجثة.. لقد أبلغ عن جثة.. نعم
لقد تذكرته.. إنه رامي إمام الصحفي في جريدة اليوم السادس.. لقد
تذكرته.. لقد تذكرته»..

هنا حدثه عصام في الحال: «أنا أيضًا قد تذكرت وجود شخص
معنا أيضًا كان يصاحبنا.. لا أتذكره جيدًا لكنني تذكرت مواقف كثيرة
معًا.. ولكن السؤال هنا: لماذا نسيناه؟ ولماذا نراه كشبح؟»..

ألقي سراج بالأوراق من يده غاضبًا: «إنها تلك البلدة الملعونة
جهينة.. إنها هي السبب فيما يحدث لنا من مصائب.. اللعنة على هذا
الوغد العجوز!! عندما أراه سوف أقتله»..

ربت عصام على كتفه مطمئناً: «لا يهم الآن.. يجب أن نبحث عن رامي ونحاول أن نفهم منه ماذا حدث له ولماذا نسيناه، وبالتأكيد سوف نعلم منه معلومات تزيح الغموض عما يحدث في جهينة»..
«ولكن أين سنبحث عنه؟ نحن لا نعلم مكانه»..

«نتظره في شقتك.. أكيد سوف يحاول أن يتحدث معنا مثلما فعل بالأمس.. هيا بنا الآن نخرج إلى منزلك».

هبط الاثنان سريعاً إلى الطابق الذي يمكث به سراج، ووقفوا أمام شقته.. ووضع سراج مفتاح الشقة بالباب وتوقف فجأة ثم تحدث إلى عصام بجواره: «عصام.. أنا نسيت لماذا أردنا الذهاب إلى شقتي»..

عصام أخذ يفرك وجهه: «نحن أتينا.. لكي نبحث عن شيء.. لكني لا أتذكر ما الذي كنا نبحث عنه!».

ثم أشار إلى سراج بيده مصدوماً: «ولكن أنا متذكر أن هذه هي المرة السادسة التي نخوض بها تلك المحادثة.. نعم لقد فعلنا ذلك كثيراً.. نقف أمام باب منزلك ولا نتذكر عمّ كنا نبحث»..

ظل عصام وسراج ينظران إلى بعضهما مندهشين للحظات..

* * *

جلس عزام أمام متجره ووجهه متورم وبه كدمات زرقاء كبيرة وجسده يؤلمه، ولكنه كان يتحامل على نفسه وهو أمام سرور وبعض الرجال الذين تطوعوا لحماية متجره.. ما يقارب العشرين رجلاً يتسلحون بالعصي ويحملون أدوات معدنية طويلة ويبدو عليهم أنهم

من معتادي الإجرام كانوا وسط الأشخاص الذين أتوا إلى جهينة لكي ينقبوا عن الذهب ولكنهم حوصروا بداخل المدينة مع أهلها الذين كانوا لا يجذون التعامل معهم أو الاختلاط بهم، فانضموا بسهولة إلى جانب عزام وسرور لحمايتهما في مقابل بعض الأموال وخصص الطعام الذي أصبح نادرًا وجوده في المدينة.. كان باب المتجر مغلقًا ويقف الرجال أمامه وأهالي جهينة يقفون صفاً واحداً أمامهم ويتتقى عزام من يدلف إلى متجره لكي يدخل بمفرده، ويقوم عمال المتجر بتلبية طلباته، ثم يخرج سريعاً ويدلف غيره، وظل الأمر هكذا، وظل الأهالي يقفون في وسط القipzig الشديد والطبور الطويل.. تحدث أحد الزبائن إلى عزام مترجياً: «يا سيد عزام.. من فضلك دعنا ندلف إلى المتجر كالمعتاد.. القipzig شديد ونحن منذ الصباح نقف في هذا الطبور الطويل ولدينا أشغال وأسر في انتظارنا..»

أجابه عزام ناقماً: «أتشتكون الآن أيها الأوغاد؟ أتشتكون بعد أن حطمتم متجري وكتتم تنوون سرقتي وقتلي؟ ألكم عين تتحدثون معي؟ هذا متجري.. وسوف تمثلون لأوامري وتنفذونها كما يحلو لي.. إذا لم يعجبك حديثي.. فلتذهب إلى الجحيم وتبتاع من متجر آخر».

طأطأ الرجل رأسه في خنوع وابتلع امتعاضه على مضض ووقف ساكناً في الطبور منتظراً دوره..

ابتسم عزام شامتاً به.. ولكنه شعر بالألم بإحدى الكدمات التي في وجهه فأخذ يتلمسها متوجعاً وهو يسبهم غاضباً: «وجهي أيها الأوغاد.. سوف أريكم يا أهل جهينة.. سوف أريكم أيها الملاعين»..

أخذ سرور ينظر إلى عزام وإلى أهل جهينة الخانعين أمامه وإلى الرجال المحيطين به.. وهو يشعر بغصة في حلقه مما يحدث لأهل جهينة ولكنه في ذات الوقت شعر بأنهم يجنون ما قاموا بزراعته بأيديهم.. اخترقت أذنه ضحكات ساخرة آتية من خلفه.. فنظر إلى الخلف سريعاً ليجد أحد الرجال يضع العصا على رقبته ويسند يديه الاثنتين على تلك العصا بحرفية وأسنان الصفرء المتأكلة تضيف منظرًا مخيفاً على ملامحه التي أكل عليها الزمن وشرب وأعطائها ختم الإجرام والبلطجة فتفضحه في عيون كل من يراه.. ظل يضحك وهو ينظر إلى أهالي جهينة ويحدث سرور: «أعجبك ما تراه يا صديقي؟»..

أجابه سرور بحدة: «ماذا تعني؟»..

أجابه ضاحكاً: «أن ترى من كانوا يتنمرون عليك ذليلين أمامك.. ههههه.. أنا أعلم كل شيء وماذا كانوا يفعلون بك.. هذه البلدة صغيرة والأقاويل تتناثر أسرع من الزكام»..

لم يجبه سرور واكتفى فقط بأن نظر له قليلاً ثم عاد بنظره سريعاً إلى الطابور أمامه مع دلوف شخص آخر إلى المتجر.. فحدثه الرجل خلفه: «نصيحة من أخيك شعبان.. عندما يقع غريمك تحت يدك فلا ترحمه لأنك إن وقعت تحت يده فلن يرحمك»..

أجابه سرور باقتضاب: «لا تعتقد أن كل الناس مثلك.. لا تجمعني معك في سلة واحدة».

أخذ شعبان يضحك من حديثه وهو ينظر إلى الرجال حوله: «أسمعتهم؟ إنه يتبرأ منا.. على الرغم من أنه يحمل سلاحاً نارياً ويهدد

أهل بلدته به».. شعر سرور بالغضب الشديد من حديثه وسحب سلاحه سريعاً ورفع على شعبان فتراجع الجميع خائفاً لعدة خطوات وسط ذهول عزام ورجال شعبان.. وهنا ضحك شعبان من فعلة سرور.. وأخذ ينظر له بحدة: «يبدو أنك أصبحت رجلاً.. هيا حاول.. أطلق الرصاص عليّ.. مع أنني أعلم أنك لن تفعل ذلك.. إني أرى الخوف في عينيك.. أنت لست متمرساً مثلنا».. صرخ به سرور غاضباً وهو يأخذ بملابسه بيده اليسرى: «بل أنا أعلم أمثالك جيداً وأعلم كيف أتعامل معهم.. لقد مكثت في سجن طرة خمس سنوات.. ورأيت أوغاداً مثلك كثيرين.. لا تختبر حظك معي مرة أخرى».. أخذ شعبان يصفر.. «سجن طرة.. أوووه.. إذاً لقد كنا زملاء.. ولكنني كنت في سجن العقرب هناك.. وأنت تعلم ماذا يعني سجن العقرب».. هنا صرخ عزام في سرور سريعاً: «سرور ماذا تفعل.. إنهم يعملون معنا الآن».. تراجع سرور بعد سماع حديث عزام.. وأخذ شعبان يضحك عليه ساخراً: «ألم أخبرك أنك لن تطلق.. أن لديك قلباً طيباً.. وهذا سيؤدي في النهاية لمقتلك».. أخذ سرور نفساً عميقاً ثم توجه بسرعة إلى شعبان وركله في معدته بقوة.. فسقط شعبان متألماً وسرور يصرخ به وبالرجال خلفه: «أيها الأوغاد.. اسمعوا جيداً.. أنتم تعملون تحت إمرتي هنا.. ولن أسمح بأي تجاوز في حقي.. سواء منكم أو من أي شخص آخر».. وأخذ ينظر إلى أهل جهينة الذين كانوا يشاهدون ما يحدث ووضعوا عيونهم في الأرض جميعاً خائعين عندما حدثهم سرور..

* * *

(مدينتي)

في السابعة من مساء هذا اليوم كان مازن يجلس في منزله بغرفة الاجتماعات منتظرًا كبار عائلات جهينة كما تعودوا بالمقابلة مرتين على الأقل كل أسبوع، وكان في ذهن العمدة هذه المرة بعض القرارات الصعبة التي يريد أن ينفذها على أهل جهينة ويحتاج موافقة كبار عائلات المدينة لكي يدعموه في اتخاذها.. ظل منتظرًا حضورهم وهو يقرب في رأسه الأحداث الكثيرة التي ألمت بالمدينة وأهلها، وكيف استطاع أن يقود المدينة في تلك الفترة الصعبة، وأنه نجح في الحفاظ على الأوضاع كما هي في ظل تلك الظروف غير العادية، وأخذ يتسم وهو يراجع القرارات التي اتخذها، ويتذكر مديح أهل جهينة عندما يشاهدونه هم وأطفالهم ويلتقطون الصور التذكارية معه.. كان يتذكر شعور السعادة الذي يصاحبه مع صب كلمات المديح فوق رأسه في كل مكان يخطو إليه.. شعوره وهو يقود الرجال والسيدات ببضع كلمات تخرج من فمه.. كيف لأي أمر يصدره أن يغير حياة من حوله إما يكونون من المحظيين أو من المنفيين المنبوذين.. شعور القوة المطلقة التي أعطتها له جهينة أغناه عن أي شعور آخر كان يداعبه مثل شعوره بالحنين إلى الأبوة وإلى تكوين أسرة من نسله، ولكن شعور القوة أشبعه عن كل

ذلك، وأيضاً طبيعة تقلد منصبه كعمدة جعله أباً لجميع أهل المدينة فلا يهم أن يكون والدًا لطفلين أو ثلاثة.. أبناؤه من أهل المدينة يتعدون الآلاف.. هذه هي قيمة العائلة الحقيقية لديه.. مر الوقت سريعاً دون أن يشعر.. لكن دقائق الساعة المتتالية أعادت إليه رشده.. ألقى نظرة خاطفة على ساعة الحائط أمامه ليجدها قد أصبحت التاسعة تماماً.. وقف مازن مصدوماً مندهشاً.. ماذا حدث؟ الساعة أة صبحت التاسعة ولم يحضر أي شخص إلى الاجتماع.. هذا أمر غير طبيعي.. لم يحدث ولو لمرة واحدة خلال العقود الماضية.. ماذا حدث؟ هل حلت نهاية العالم أم ماذا؟ بالتأكيد هناك شيء ضخم قد حدث جعل كبار العائلة لا يحضرون اجتماعهم الدوري معه.. بالتأكيد هذا ما حدث.. نيزك سقط من السماء أو زلزال ابتلع الجميع.. أو شيء في حجم تلك الكوارث هو الذي منع الجميع من الحضور الآن، حتى مساعداه متولي وبيومي لم يحضرا.. حتى كريم لم يحضر أو يره منذ عدة أيام.. «يجب أن أذهب لكي أطمئن بنفسي على ما ألم بالمدينة من كوارث.. هذا ما دار في عقله وهو يركض سريعاً خارج منزله لكي يطمئن على أهل المدينة.. الشوارع موجودة لم تبتلعها الأرض.. السماء بالأعلى لم تطبق فوق رؤوسهم.. بعض السيارات تركض على الطريق.. بعض المارة يتسامرون مع بعضهم.. الأطفال يلهون أمام منازلهم.. السيدات ينظرن من الشرفات كالمعتاد.. ماذا؟ لم يحدث شيء.. إذاً لماذا لم يأت أحد إلى الاجتماع اليوم؟».. ماذا يعني هذا؟ ماذا يعني هذا؟ إنها مؤامرة.. إنها مؤامرة يقوم بتنفيذها متولي بمساعدة بيومي بالتأكيد..

ويبدو أن كريم أصبح مشاركاً معها في تلك المؤامرة.. تباً لهم! تباً لهم جميعاً! لن يفلتوا من عقابي.. سوف أعاقبهم جميعاً.. سوف يعاقبون».. أخذ يطلق تلك العبارات المصحوبة باللعنات وهو في طريقه إلى منزل متولي وهو مقتنع حد التأكيد بأنه خلف هذا الحدث الم هول بالنسبة له، وأنه بداية لمؤامرة يحوكونها ضده كما فعلوا من قبل.. قاد سيارته سريعاً وتوقف أمام منزل متولي الذي كان يغلفه السكون.. وانطلق كالسهم صوب باب المنزل وأخذ يطرقه بقوة تكاد تحطمه.. فتح متولي الباب غاضباً ودهش من رؤية مازن أمامه فسأله بفضول: «العمدة.. ماذا أحضرك إلى هنا؟ ماذا تريد؟»..

هنا صب مازن جام غضبه عليه وأخذ يلكمه بعنف وهو يمسك بتلابيبه ويصرخ به غاضباً حانقاً: «أيها الوغد اللعين.. أتحوك ضدي المكائد والمصائب تلو الأخرى؟!.. أنت من يفعل ذلك بالمدينة ويؤلب أهلها ضدي.. أنت تطمع في مكاني أيها الوغد.. سوف أقتلك»..

أخذ الصريخ والعراك بينهما يجمع المارة والفضوليين.. وتجمع أبناء متولي وزوجته وهم يمسكون مازن غاضبين ويبعدونه عن أبيهم وأخذوا يسبونهم وكادوا يفتكون به وهم يدفعونه بعيداً عن منزلهم.. صاح بهم متولي في الحال: «اتركوه يا أولاد.. لا يمد أحدكم يده عليه.. اتركوه لي».. فامثل أبناؤه لأمره وتركوا مازن الذي كان يرتجف من الغضب الشديد فتحدث إليه متولي بهدوء وهو يرتب ملابسه: «لماذا كل هذه الثورة أيها العمدة؟!.. لماذا أتيت لمنزلي وفعلت هذه الأفعال

الحمقاء؟».. هنا حاول مازن دفع أبناء متولي ليذهب إلى أبيهم ويبطش به.. فأمسكه أبناء متولي بعنف وشلوا حركته، وأخذ مازن يحاول أن يدفعهم ولكنه لم يستطع أن يخلص نفسه من قبضتهم المطبقة على ذراعيه.. فاكتمى بالصراخ عليه: «أتساءل؟ أتصنع الغباء؟ أنت الذي منعت كبار عائلات جهينة من الحضور اليوم لأول مرة في تاريخ المدينة.. أتريد أن تدمر جهينة وقوانينها؟ تلك المدينة التي بنيتها على أكتافي وشاهدتها محلقة بين سائر المدن.. تلك المدينة التي ضحيت بشبابي وعمري كله من أجلها.. لن أسمح لك أبداً أن تسلبني حلمي الذي أعيشه منذ ثلاثين عاماً.. إذا كان هناك من سيحطم حلمي فإنه سيكون أنا.. سأحطم المدينة لبنة لبنة قبل أن تسلبوها مني أو تحلموا بأخذ مقعدي الذي بنيته بعرقى ودموعي.. أفهمت؟ سأقتلكم جميعاً قبل أن أسمح بذلك».. أجابه متولي غاضباً واللعاب يتطاير من بين شذقيه: «مازلت تعيش أوهاماً وأحلاماً يا مازن.. أين هي تلك المدينة التي سوف أسلبها منك؟! أين هي تلك المدينة؟! انظر حولك وتمعن.. إنها أنقاض حجر مختلط بالبشر.. المدينة أصبحت تحت سيطرة عزام وسرور المنبوذ وشرذمة من بعض البلطجية من خارج المدينة.. لقد انتهى لقب عمدة المدينة وكبار عائلات جهينة.. الجميع تحت رحمة عزام الآن.. بعد أن قام بشراء جميع السلع والطعام من المتاجر واستولى على آخر لتر موجود من الوقود المتبقي في المدينة.. استيقظ وأفق.. في يوم وليلة أصبح للمدينة حكام آخرون.. من يملك الطعام هو من يملك العوام».. أخذ يضحك ساخرًا المازن: «لقد

أصبح صديقك القديم المنبوذ سرور شريك عزام في حكم المدينة.. أنا لو في مكانك الآن أذهب مسرعاً وأقف في الطابور أمام متجر عزام لكي أحاول أن أحصل على كسرة خبز لأتناولها.. أشار إلى أبنائه وإلى المشاهدين الفضوليين: «هيا.. هيا بنا إلى الداخل يا أبنائي.. واتركوا هذا المتوهم في أحلامه الهاوية عن مدينة جهينة».. ترك الجميع مازن مصدوماً مشدوهاً وهو يرمقهم يتركونه ويدخلون المنزل ويصفقون الباب في وجهه بقوة.. ونظرات الشفقة على وجوه الفضوليين حوله الذين تركوه أيضاً وهو واقف بمفرده ينظر لهم وهو يحدث نفسه غير مصدق: «عزام.. وسرور.. المنبوذ.. المنبوذ»..



الليل يلقي بظلاله على المدينة، وإضاءة المتاجر وأعمدة الإنارة تتحداه في خجل شديد.. طوابير كبيرة أمام متجر عزام تكاد تقسم الطريق إلى نصفين.. وعزام يجلس أمام المتجر يتفحص بعينه مبتاعيه ويختار من يدخله ومن يرفضه ويتركه عائداً خائباً إلى أسرته بعد أن امتلك جميع البضائع التي في المحلات والمتاجر الأخرى في المدينة.. حيث خشي أصحابها أن يحدث معهم سلب ونهب مثل ما حدث مع عزام من قبل فأثروا السلامة ووافقوا على عرض عزام بشراء بضائعهم، وبهذا أصبح عزام هو المحتكر الوحيد للسلع والبضائع في المدينة، وأصبح يفعل ما يشاء ويطلب ما يريد من زبائنه دون رادع أو مانع بعد انضمام سرور إليه بسلاحه الناري وانضمام بعض الرجال من

خارج المدينة إلى عصيته الجديدة.. أول قرار اتخذه عزام بعد الاحتكار هو زيادة أسعار جميع السلع ثلاثة أضعاف حتى يستطيع أن يعوض التلفيات التي أمت بمتجره وهامش الربح الذي اشترى به السلع من المتاجر الأخرى والوقود قد زاد بنسبة أربعة أضعاف ولم يعترض أحد من سكان جهينة.. هدفهم كان الحصول على احتياجاتهم هم وأولادهم فقط.. وكان سرور يشاهد ما يحدث دون أن يتدخل لأنه كان يرى أن ما فعله عزام منطقي للغاية حتى يجعل أهل جهينة يدفعون ثمن فعلتهم معه.. الوجوم يطبق عليهم.. الخنوع هو سمتهم.. الجبن هو حياتهم.. لم يعترضوا على أي قرار أو طلب فرضه عزام عليهم.. وعندما كان أحدهم يعترض على شيء كان الجميع يصبون جام غضبهم عليه ويطردونه من بينهم.. كل ذلك بدون أي تدخل أو عناء من عزام أو رجاله.. أخذ سرور يشاهد ما يحدث أمامه مصدومًا من رد فعل أهل جهينة.. لم يتصور أن يحدث ذلك أمامه في يوم من الأيام.. الأهالي يهاجمون من يدافع عنهم ويكادون يفتكون به إن أصر على موقفه.. بل الأغرب من ذلك أن الأهالي أصبحوا يتوددون إلى عزام وسرور ويطلبون رضاهما.. لقد عاد لسرور إحساس الفخر والعزة مرة أخرى ذكرته بأيام مجده بجهينة قبل أن يدخل السجن.. من كانوا يسبونهم وينعتونه بالمنبوذ منذ أيام يقفون خاضعين خائعين أمامه.. يا له من إحساس بالقوة! صك من البشر حولك يعطونه لك عن طيب خاطر لكي تتحكم بهم وبمصائرهم.. لقد شعر بالقلق كثيرًا وكثيرًا من أن يبدأ أهل جهينة بالتمرد عليه وعلى عزام بسلاحه الناري

الوحيد وبعض الرجال المسلحين ببعض العصي والأسلحة البسيطة..
أي حسبة عقلية بسيطة توضح أنهم في موقف الضعف هنا حفنة من
الرجال في مقابل أهل مدينة كاملة ولكن مما عاينه يبدو أن هذا الأمر
لم يخطر ببال أحد من أهل جهينة على الإطلاق.. أو إذا كانت خاطرة في
رءوسهم فإنها تختفي سريعاً مع أي لفظ خارج يطلقه شعبان البلطجي
أو حركة سكين محترفة من أحد رجاله معتادي الإجرام الذين جذبتهم
سيرة ذهب جهينة فجعلتهم يتداعون على المدينة مثلما يتداعى الذباب
على أكوام القمامة القذرة..

الأهالي يقفون بالصف يتسامرون في انتظار أن يشفق عليهم عزام
فيدخلهم لبيتاعوا من متجره طعامهم.. صوت صرير و جلبة شديدة
من الخلف وبعض الأهالي يتدافعون.. تحفز شعبان ورجاله في الحال
لهذا المشهد وتأهبوا بعصيتهم وأسلحتهم بينما أخذ عزام يرمق ما يحدث
من على مقعده وسرور أخذ يتحسس سلاحه الناري.. ظهر سريعاً
من يصنع تلك الجلبة.. مازن عمدة المدينة أخذ يصيح في الناس
ويدفعهم غاضباً بأن يذهبوا إلى بيوتهم وألا يرضخوا إلى أوامر عزام
وينتظروا الأوامر التي سوف يصدرها بخصوص عمليات الشراء
والبيع.. نظر عزام إلى مازن غاضباً وصرخ به في الحال: «ماذا تريد أيها
العمدة؟ لماذا تصرخ بزبائني وتصنع تلك الجلبة؟».. اقترب مازن منه
في الحال وهو يحدثه معاتباً: «أهكذا تتعامل يا عزام مع أهل مدينتك؟
هل تحتكر الطعام والشراب لديك وتمنعها عن أهل جهينة في وقت

الشدة هذا؟».. صرخ عليه عزام: «أنت تلومني.. أنت تلومني بعد ما فعل هؤلاء الأوغاد بي.. سلبوا متجري وكادوا يقتلونني ولم ينقذني من أيديهم إلا سرور بارك الله في عمره؟».. هنا نظر مازن بغضب شديد جهة سرور.. فلم يتحمل سرور تلك النظرات وأطرق برأسه إلى الأرض خجلاً.. تابع عزام حديثه إلى مازن: «أتلومني على ما أفعله أيها العمدة؟ أنا لم أفعل شيئاً خاطئاً.. لقد قمت برفع سعر السلع قليلاً لكي أستطيع أن أعوض خسارتي من السرقة والنهب وتحطيم المتجر من هؤلاء الأوغاد الذين تدافع عنهم.. هل ترى ما أفعله خطأً ولم تعترض على فعلهم معي وسرقتي ومحاوله قتلي؟!»..

«أنا معك بالطبع.. لقد اخترقوا قانون المدينة.. من قام بفعل ذلك سوف ينبذ بالطبع ويمنع من الحصول على أي طعام وشراب في مدينتنا العزيزة».. حرك عزام يديه بهدوء شديد: «وهذا ما فعلته يا سيد مازن.. لقد منعتهم مثلما أخبرتني الآن.. فلماذا تلومني على أمر كنت ستفعله أنت بنفسك كما قلت الآن؟»..

مازن بحماسة شديدة: «لأني أنا عمدة المدينة يا عزام وليس أنت.. أي قرار يخص المدينة وأهلها يجب أن أصدره أنا»..

نظر عزام إلى مازن للحظات وهو مندهش من أن يكون هذا هو الذي يهيمه الآن.. أن يصدر الأوامر هو.. ارتسمت ابتسامة على وجهه سرعان ما تحولت إلى ضحك شديد ومازن يقف يرمقه بنظرات متحيرة..

انتهى عزام من ضحكته وما زالت ابتسامة كبيرة على وجهه.. تنهد للحظات ثم تحدث إلى أهل جهينة الواقفين بالطابور أمامه: «حسنًا.. حسنًا.. بناء على رغبات السيد مازن عمدة جهينة.. فمن اليوم لن أبيع لأي شخص أي شيء لأنني من المحتكرين السيئين.. لذا فسوف يغلق متجر عزام إلى أجل غير مسمى من الآن فصاعدًا».. نظر الجميع مصدومين إلى عزام ومن بينهم سرور وشعبان ورجاله الذين أخذوا يضحكون ويتغامزون فيما بينهم.. بينما شعر سكان جهينة ومازن بالحيرة من حديث عزام، وبدأ التهامس والامتعاض يرتفع بينهم.. واستمر للحظات حتى وقف عزام من على مقعده وهو يتألم وتوجه جهة شعبان وهو يحدثه بصوت مرتفع ليسمعه الجميع: «اذهب إلى الداخل وأخرج من بالمتجر وأغلق أبوابه الآن هيا».. ابتسم له شعبان وهو يحرك سبابته أسفل عينيه ببطء شديد: «من عيني.. سوف ينفذ أمرك في الحال يا كبير».. وتوجه هو ورجاله جهة المتجر وهم يصرخون في المشترين بالداخل ويطردونهم ثم أغلقوا باب المتجر واتجه عزام إلى جهة المتجر عائدًا إليه.. هنا صاح بعض المشترين الواقفين بالطابور بامتعاض: «هل ستغلق المتجر حقًا؟ إذاً كيف سنبتاع حاجاتنا؟ كيف سنطعم أطفالنا؟!».. التفت عزام إليهم لثوانٍ وهو يبتسم لهم: «لماذا تتحدثون معي؟ هذا الأمر لا يخصني.. فأنا لست عمدة المدينة».. ثم ضحك بشدة وهو يعطيهم ظهره ويستند على ذراع سرور الذي كان ينظر إلى أهل المدينة بأسى.. هنا بدأ بعض المشترين يتحدثون مع بعضهم بلهجة غاضبة وهم يتساءلون من أين سوف يشترون حاجياتهم وعزام

هو صاحب المتجر الوحيد الآن في المدينة، ثم تحولوا بأنظارهم جهة عمدتهم مازن.. فصرخوا به: «أنت السبب فيما حدث.. أنت الذي جعلته يغضب علينا..». أجابهم مازن مطمئناً: «لا تقلقوا من هذا الأمر سوف أقوم أنا وكبار عائلات جهينة بتدبيره.. سوف نقوم بالحصول على الطعام والشراب وما تحتاجونه وسوف نحذر عزام مما يفعله وإن لم يرضخ فسوف نجعله من المنبوذين».. صرخت عليه جموع الغاضبين وهم يقتربون منه: «هل جنت أم ماذا؟ إن كبار عائلات جهينة الذين تتحدث معهم كانوا يقفون بأنفسهم بيننا منذ قليل لكي يحصلوا على حاجياتهم.. ورفض عزام أن يعطي بعضهم بعض المشتريات.. هل سوف يقوم هؤلاء بتوفير الطعام لنا ولأطفالنا وهم لا يستطيعون أن يوفروه لأنفسهم؟!».. أخذ مازن يحدثهم مطمئناً: «لا تقلقوا.. لا تقلقوا.. سوف أخرج المدينة من محتتها الآن مثلما كنت أفعل دائماً».. هنا قامت سيدة بسبه وهي تصرخ به غاضبة: «أيها الوغد.. ماذا أعطي لصغيري الذي ينتظرنى منذ عدة ساعات؟! ماذا سياتكل الآن؟! كل ذلك بسببك».. شعر مازن بالغضب: «هل تسبينني أيتها اللعينة؟! هل تتجرئين وتسين عمدة المدينة؟!».. هنا قامت السيدة بدفعه بيدها.. فشعر بالغضب أكثر فدفعها فسقطت على الأرض.. فقام بعض الرجال بدفعه والصراخ عليه.. نهضت السيدة سريعاً وهي تبكي صارخة وقامت بصفعه على وجهه.. شعر مازن بالإهانة بشدة.. كيف تقوم سيدة من رعاى المدينة بصفع العمدة؟! فقرر أن يفتك بها في الحال واتجه إليها ليقصص منها.. وهنا فجأة تكالبت عليه الجموع

وقاموا بضربه بعنف وأخذوا يكيلون له اللكمات والضربات وهو يشعر بالجنون.. كيف يحدث له ذلك؟! كيف يتجرأ الجميع على فعل ذلك معه؟! لكمه رجل بأنفه فشعر بأنه كسر وسالت الدماء بغزارة منه ولكن آلام أنفه لم تكن مثل آلام شعوره بالصدمة وهو يضرب من قبل شاب قام بالتدريس له من قبل.. قام شاب آخر بلكمه في معدته.. لقد تذكر هنا في الحال ابتسامة ذلك الشاب عندما كان يقوم بإعطائه مبلغاً من المال لكي يستطيع أن يتزوج.. وكيف أنه قام بتسمية ابنه البكري باسم مازن تيمناً به.. أخذ يتذكر ذلك وهو يسقط على الأرض بعد أن تهاوت أقدامه من الوهن تحته فأصبح بين أقدام العامة يركلونه بأحذيتهم.. قامت سيدة بركله بحذائها في عينه اليمنى.. فشعر بأنها قد دفعت للدخل وأنها صنعت حفرة كبيرة في جمجمته.. لم يتحمل ألم عينيه التي أفرزت دموعاً غزيرة لم يستطع أن يوقف انهارها.. رمقها بعينه اليسرى سريعاً وهو يضع يده فوق عينه التي امتلأت بالدموع والدماء وشاهد وجهها.. هنا تذكر كل كلمة قام بتسجيلها وهي تتحدث بها مع عشيقها بعد أن يذهب زوجها إلى العمل.. تلك العاهرة التي كان يحميها مما تفعله ويجعل زوجها يأتي لديه في أوقات لقاءاتها الحميمة حتى لا يعلم زوجها المخدوع بما تفعل.. ضربة شديدة للغاية.. ركلة من شخص ما على رأسه من الخلف جعلت وجهه يسقط على الأرض بشدة ويتلخخ بالتراب الممزوج بالدماء والدموع.. جميع من يضربه الآن ومرغ رأسه في التراب كان يرعى مصالحهم ويغطي على جرائمهم.. كان يحضر أفراحهم ويواسيهم في أحزانهم.. كانوا

عائلته.. أقدام عائلته فوق جسده ينفضونه بأحذيتهم.. صدمة مازن في أهل المدينة جعلته لا يشعر بأي ألم.. لا يوجد ألم مثل صدمتك فيمن تحبهم ويحبونك أو من كنت تعتقد بأنهم يحبونك.. أحذية محبيك فوق رأسك تمرغ رأسك في التراب وتجعلك تبتلعه مع ما سقط من أسنانك..

كان عزام وعصبتة يراقبونه من بعيد من خلف الباب الزجاجي وهو يفتك به من قبل أهل مدينة.. أخذت تعلق وجهه ابتسامة التشفي وهو يتحدث ساخرًا: «ما رأيك الآن أيها العمدة وأنت تُضرب على يد الأوغاد من أهل المدينة الذين كنت تدافع عنهم منذ قليل؟».. أخذ الجميع يستمع إلى حديث عزام ويبتسم ما عدا سرور الذي كان ينظر إلى مازن بشفقة شديدة.. دفعته إلى أن يفتح باب المتجر سريعًا ويندفع خارجه جهة مازن متلاشيًا صيحات الاستهجان التي أطلقها عزام وبعض مرافقيه.. اندس سرور سريعًا بين أهل المدينة الغاضبين وأخذ يصرخ بهم وهو يتلقى بعض اللكمات عن مازن الذي كان ممددًا على الأرض يوشك على الاستسلام لمصيره.. أخذ الجميع يبتعد عن سرور في الحال خوفًا من أن يغضب عليهم فيمنعهم من ابتياع حاجاتهم أو أن يتطور الأمر فيستخدم سلاحه.. انفضوا جميعًا من حوله وتركوه مبتعدين واتجهوا إلى جهة عزام ووقفوا أمام متجره يترجونه لكي يعدل عن قراره ويفتح متجره الآن بعد أن اقتصوا ممن أغضبه.. أخذ سرور يهيل التراب من على وجه مازن الذي كان ممتقعًا وهو مغطى بالطين الناتج عن اختلاط دماؤه ودموع عينه المصابة.. نظر سرور إلى

وجه مازن وهو يتمزق من رؤيته هكذا.. هو لم يستطع أن ينسى أبدًا أن مازن كان من أكثر الداعمين له قبل أن يدخل محبسه.. أخذ يمسح ملابسه ويرتبها ومازن مستسلم له.. أخذ سرور يحاول أن يوقفه من على الأرض لأنه لم يكن يستطيع أن يقف من كثرة الألم ومن أثر الضرب المبرح.. فوضع سرور يد مازن على كتفه وحاول أن يوقفه.. نظر مازن سريعًا إلى منقذه لكي يتطلع إلى وجهه فوجده سرور.. فقال له: «هل أنت سرور؟» ابتسم سرور في الحال وهو يحاول أن يساعده: «نعم أنا سرور يا سيد مازن».. هنا سحب مازن يده بعنف وصرخ به غاضبًا: «اتركني لا تلمسني أيها المنبوذ».. شعر سرور بالإحراج الشديد من فعل مازن وأخذ يرمقه وهو يحاول أن يقف بنفسه بدون مساعدة للحظات، ثم كاد يسقط مرة أخرى فقام سرور بالاقتراب منه ومحاولة مساعدته مرة أخرى.. ولكن مازن دفعه بغضب: «ابتعد عني».. فابتعد عنه سرور وأخذ يرمقه وهو يقف بصعوبة شديدة.. وينطلق بطريقة مبتعدًا وهو مُطرق برأسه المترب إلى الأرض..

ابتعد مازن عن سرور سريعًا وابتلعه أحد الشوارع القريبة الذي دلف إليه.. فالتف سرور عائدًا إلى جهة المتجر.. فوجد بقعة صغيرة من دماء مازن على الأرض أمامه.. أخذ يتأملها لدقائق ثم عاد إلى المتجر الذي فتحت أبوابه للمشتريين من جديد..

* * *

في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي..

جلست أميرة على منضدة بغرفة المعيشة وهي قلقة مترقبة تنظر لساعة الحائط كل عدة لحظات وهي متوترة للغاية.. مرت بضع دقائق ثم وجدت باب المنزل يفتح فهبت مسرعة جهة الباب لتستقبل عمته التي كانت تحمل حقائب بلاستيكية مليئة بالمشتريات من متجر عزام.. استقبلتها أميرة متلهفة وهي تحمل الحاجيات منها وتسألها بقلق: «أخبريني.. هل وجدت صعوبة في إحضار المشتريات أم كانت هناك مضايقات لكِ لأنني منبوذة كالمعتاد؟».. ابتسمت عمته وهي تدلف إلى داخل الشقة: «لا.. لقد حدث العكس تمامًا؛ لقد أخذت كل ما أحجته وبسرعة شديدة عكس ما كان يحدث دائمًا بسبب أنك منبوذة.. لقد رأني سرور وهمّ بمساعدتي وأخذ يتأسف لي على كل ما كان يصدر منه بحقنا وأخبرني أنه لم يكن يعلم بأن المنبوذين يعانون هكذا.. وأخبرني أن أحضر له في أي وقت إذا احتجت منه أي شيء»..

تنهدت أميرة بارتياح وهي تضع الحاجيات على المنضدة أمامها: «الحمد لله.. لقد انتابني القلق كثيرًا كيف سنستطيع الحصول على ما نحتاج في ظل هذه الأحداث التي تحدث بجهينة الآن؟ لكن يبدو أن الأمور ليست سيئة تمامًا كما كنت أتخيل.. على الأقل بالنسبة لنا»..

وضعت عمته باقي الحقائب على المنضدة ثم ضربت جبهتها في لوم: «أوهه.. لقد نسيت أن أخبرك.. لقد قابلت العالم عصام ناجي وأنا عائدة وطلب مني مقابلتك ليتحدث معك في أمر ما».. أميرة بفضول: «يريد التحدث معي.. بخصوص ماذا؟»..

«لا أعلم.. لقد تركته ينتظرنى فى الطابق الأسفل.. أتريدىن مقابلته
أم أخبره بأنك نائمة وأجعله يعود من حيث جاء؟».

«لا.. أدخليه.. ولكن انتظري سأضع الحقائق فى المطبخ أولاً»..
أخذت أميرة تحمل الحقائق وهى تركض إلى داخل المطبخ بسرعة..
ثم عادت سريعاً فذهبت عمتها إلى خارج الشقة ونادت عصام
لكى يصعد.. وأثناء ذلك أخذت أميرة تعدل من هندامها وترتب
الشراشف فوق المنضدة.. دلف عصام من باب المنزل وهو يحببها
بصوت منخفض: «السلام عليكم».. أجابته أميرة وعمتها: «وعليكم
السلام».. تركت عمتها باب الشقة مفتوحاً وأشارت إلى عصام أن
يجلس على المنضدة فجلس.. ثم ذهبت إلى المطبخ وهى تحدثه: «سوف
أحضر لك شيئاً ساخناً لتشربه».. هز عصام رأسه وهو يشكرها ثم
نظر إلى أميرة التى كانت تقف بجوار المنضدة تتفحصه.. فتحدث إليها
سريعاً: «أسف على حضوري المفاجئ هكذا.. لكن كان هناك شيء
يؤرقنى بشدة وأريد أن أتحدث معك به».. جلست أميرة على مقعد
بعيداً عن عصام قليلاً: «ماذا تريد؟ أخبرنى»..

«هل تتذكرين عندما أتيت إليّ أنا والعقيد سراج وأخبرتينا عن
شيء.. أتذكرين ما هو؟»..

ابتسمت أميرة بسخرية للحظات: «بالطبع أنا أتذكر.. لقد إيتت
إليك أنت والضابط سراج لأخبركما عن....»

هنا تبدلت ملامح أميرة في الحال وأخذت تفرك رأسها بشدة..
وهي تنظر إلى عصام مندهشة: «ماذا.. أنا لا أتذكر.. كيف هذا؟
كيف هذا؟»..

عصام بحماس شديد: «أنا أيضًا لا أعلم.. هذا شيء غامض
للغاية.. أنا أعلم بأننا نبحث عن شيء ما بكل مرة وأنا وسراج وعندما
نتذكره.. ننسى كل شيء بخصوصه في الحال.. وهذا يحدث كل مرة
نبحث عن هذا الشيء.. أنا واثق بأنه شيء مهم.. أنا وأنتِ وسراج
نعلمه ولكننا لا نتذكره»..

وقفت أميرة مصدومة: «بالفعل.. بالفعل هذا يحدث معي كل مرة
أقرأ بمذكرتي.. أنسى ما قرأته في الحال.. انتظر لحظات سوف أعود
سريعًا».. تركته أميرة وذهبت إلى غرفتها وهي متحمسة ثم عادت
وهي تحمل مذكرة حمراء وفتحتها أمام عصام وأخذت تحدّثه بلهفة:
«انظر هنا.. لقد سجلت رقم الصفحة التي أنسى محتواها.. لقد سجلته
على الصفحة الأولى.. انظر».. أخذ عصام ينظر إلى الصفحة أمامه
فوجد مكتوبًا عليها بعض العلامات والرسومات.. وهناك مكتوب
بخط سيئ صغير بنهاية الصفحة جملة: «تذكره يا أميرة.. لا تنسِه أبدًا
(.. افتحي صفحة 103)».. تحدثت أميرة إليه: «أترى.. لقد كتبت هذه
الجملة وطلبت من نفسي أن أتذكره، ووضعت اسمه بين قوسين ولكن
كما ترى بأن الاسم ممسوح وليس موجودًا بالصفحة».. أوقفها عصام
في الحال بإشارة من يده: «انتظري قليلًا»..

ثم قام بخلع ساعته من يده اليسرى ووضعها بيده اليمنى ونظر إليها قليلاً ثم أمسك بالمذكرة سريعاً وأخذ يقلب في أوراقها وهو يبحث عن صفحة 103 فوجدها أمامه فقرأ بها الآتي:

«لقد شاهدت ما سيحدث بجهينة بشكل سريع.. هذا شيء سيء.. سيء للغاية.. سوء الحظ سيصيب الجميع.. ولست أقصد بهذا أهل جهينة.. بل أقصد الجميع.. الجميع.. يجب أن نمنعه.. يجب ألا يخرج من جهينة.. لن نستطيع أحد أن يوقفه إلا بمساعدة رامي.. رامي الوحيد الذي يعلم ماهيته وسوف يساعد في إنقاذنا.. لقد شاهدت ذلك بالمستقبل.. ولكن يجب أن أتذكره.. يجب ألا أنساه.. لن يعلم أحد بوجود رامي سواي.. يجب ألا أنساه»..

توقف عصام فجأة عن القراءة وهو يحدث نفسه: «رامي.. رامي إمام.. لقد تذكرته.. لقد تذكرته.. لقد تذكرت كل شيء».. هنا أمسكت أميرة بفمها.. نعم أنا أيضاً رامي.. رامي.. الجميع سوف ينساه.. يجب أن أتذكره لقد كتبت ذلك في مذكرتي.. حتى لا أنساه».. مرت عدة دقائق.. ودلفت عمه أميرة إلى غرفة المعيشة ووضعت المشروبات الساخنة أمامها على المنضدة.. ولكنها لاحظت أن عصام ينظر إلى الفراغ أمامها وكذلك أميرة.. فحدثتها مندهشة: «ماذا يحدث هنا؟ لماذا أنتما واجمان هكذا؟»..

نظرت إليها أميرة: «عمتي.. متى أتيت من الخارج؟».. ثم نظرت إلى عصام الذي نظر إليها مندهشًا وهي تحدّثه متسائلة: «أنت العالم عصام.. متى أتيت إلى هنا؟»..

نظر إليها عصام بقلق: «أنا.. أنا لا أعلم».. شاهدت عمته ما يحدث فشعرت بالريبة: «ماذا تفعلان؟ إنكما تشعرانني بالخوف».. حدثها عصام سريعًا: «هل تعلمين كيف أتيت إلى هنا؟»... «نعم بالطبع لقد قابلتك خارج المنزل وطلبت مني أن أقابلك بأميرة لكي تسألها عن شيء ما.. وأحضرتك إلى هنا وتركتما تتحدثان منذ قليل وذهبت لكي أصنع لكم مشروبًا ساخنًا.. هذا كله حدث منذ قليل».. أخذ عصام يداعب ذقنه متفكرًا: «ماذا؟»..

..ثم نظر إلى أميرة بفضول: «هل تتذكرين أننا تحدثنا منذ قليل؟».. هزت أميرة رأسها نافية: «لا.. لا أتذكر شيئًا من هذا».. نظرت إليهما عمته بخوف شديد: «ماذا يحدث معكما.. لا تشعراني بالخوف.. لقد حدث هذا منذ قليل.. لا تشعراني بأني أصبت بالجنون»..

أخذ عصام ينظر إلى يديه فشاهد ساعة بيده اليمنى.. فخلعها من يده وأمسكها بأطراف أصابعه وأخذ يحدثهما: «لا تقلقي.. أنت لم تصابي بالجنون.. والساعة بيدي تثبت ذلك».. سألته أميرة بفضول: «الساعة.. الساعة تثبت ماذا؟».. أجابها عصام سريعًا: «سوف أخبرك بشيء أفعله دائمًا حتى لا أنسى، اسمه الارتباط الشرطي.. وهو ببساطة ربط شيء بآخر لكي يتذكره العقل.. مثلًا عندما أريد أن أفعل شيئًا

وأخاف أن أنساه أقوم بربطه بشيء آخر أفعله عادة.. مثلاً إذا أردت أن أتذكر أن لدي موعداً مع شخص في الخامسة وأردت أن أتذكره أقوم بخلع ساعتى التي أرتديها بيدي اليسرى دائماً وأضعها بيدي اليمنى.. فعندما يشاهد عقلي في وسط انهماكي بأي شيء آخر الساعة بيدي اليمنى الذي كان متعوداً أن يراها بيدي اليسرى يتذكر بأني فعلت هذا الأمر لشيء مهم ألا وهو أن لدي ميعاداً في الخامسة فيذكرني في حينها.. وهذا هو الارتباط الشرطي بشكل مبسط.. ولقد فعلت ذلك بالتأكيد قبل أن نتحدث معاً ووضعت ساعتى في يدي اليمنى لكي تذكرني.. إذاً لقد قمنا بالفعل بالتحدث عن أمر ما ونسيناه أنا وأنتِ مرة أخرى»..

.. سألته عمتها في الحال: «ما هو ذلك الشيء الذي لا تتذكرانه؟».. ابتسم عصام في الحال: «لو كنا نتذكر لما كنت فعلت كل تلك الأمور.. ومما أراه يبدو أننا لن نتذكر أبداً.. هناك شيء قوي للغاية يمنعنا من تذكر ما نبحث عنه».. أخذ الجميع ينظر بعضهم إلى بعض باندهاش شديد لما حدث..



في منتصف ذلك اليوم كان الطابور المعتاد يقف أمام سرور وعزام خارج المتجر ينتقون من يدخل إلى المتجر ويقتني مشترياته، ولكن حدث شيء غير معتاد أمامهم.. حيث وقف سراج أمامهم وخلفه خمسة جنود مسلحين.. هنا شعر بعض المشترين بالطابور بالفرح

الشديد وتحركوا مسرعين ليتحدثوا إليهم ويشكوا عزام وما يفعله بهم.. لكن بعضهم منع هؤلاء المتحمسين وأخبروهم أن ينتظروا قليلاً ليشاهدوا ما يحدث.. فانصاعوا جميعاً لرأي زملائهم وعادوا إلى الصفوف ليرقبوا الوضع.. وقف عزام بصعوبة وهو يتكئ على عصاه وأخذ يجيبي الضابط سراج: «يا أهلاً.. يا أهلاً بك يا سيد سراج.. لقد أنرت متجري»..

تجاهله سراج وهو يحدثه بحدة: «ماذا يحدث هنا يا سيد عزام؟ لماذا يقف الجميع بهذا الشكل خارج المتجر؟ ومن هؤلاء الأوغاد؟».. وأشار إلى جهة شعبان ورجاله الذين انسحبوا إلى داخل المتجر بهدوء.. ابتسم عزام له وأخذ يحدثه وسط مراقبة قلقة من سرور الذي خشي أن يحدث صدام لهم مع الشرطة.. تحرك عزام خطوات جهة سراج: «لا شيء يحدث غريب يا سيد سراج.. الناس تبتاع من متجري مثل كل يوم.. أما هؤلاء الأوغاد الذين تتحدث عنهم فهم من يحمونني بعد أن تعرض متجري للسرقة والنهب والشرطة حينها لم تحرك ساكناً».. أجابه سراج بعنف: «أنت لم تقم بالبلاغ عن هذا الأمر.. وأنت تعلم بأني وجنودي متواجدون في مكان معلوم للجميع ونساعد في الحفاظ على الأمن في وسط هذا الجنون الذي يحدث في أنحاء المدينة ونحن لا ندخر وسعاً في مساعدة أي شخص.. وثق بالتأكد أننا سوف نحاسب من فعل ذلك بك وبمتجرك.. لكن بنفس الوقت لن نستطيع أن أغض الطرف عما تفعله بأهل المدينة واحتكارك

لجميع السلع والطعام والوقود وأيضاً رفعت الأسعار بطريقة غير معقولة في ظل هذا الحصار المحيط بالمدينة؛ ولهذا أتيتُ لأتحدث معك بطريقة ودية كي نحل هذا الأمر.. ولكن لا داعي لأن أذكرك بأني أستطيع أن أحل هذا الأمر بالقوة أيضاً.. وأشار إلى الجنود المتحفزين خلفه.. نظر عزام إلى الجنود بغضب: «أتهددني بجنودك؟ هل استمعت إلى كلام مازن وتقف معه ضدي؟!»..

.. «أنا لا أقف مع أحد ضد أحد.. أنا أقف مع القانون ومع مصالح المواطنين.. وما تفعله لا يمت للقانون أو يصب في مصالح المواطنين».. أخذ عزام يجز على أسنانه وهو يضغط على عصاه بقوة وقد تملكه الغضب.. وبدا للجميع أنه سينفجر بوجه سراج وجنوده.. هنا قفز سرور أمامه ومنعه من ارتكاب حماقته التي كان بادياً للجميع أنه سينفذه.. سحبه سرور برفق جهة مقعده وهو يهدئه: «لا تقلق يا سيد عزام.. اترك لي هذا الأمر.. سوف أتصرف به أنا».. حدثه عزام بغضب شديد: «أرأيت ماذا يحدث معي؟ يتركون الملاحين الذين سرقوني وكادوا يقتلونني ويتحدثون إلي كما لو أنني الجاني.. أهذا هو القانون؟! أهذا هو العدل?!».. ربت سرور على كتفه وأخبره أن يجلس ويهدأ ولكن عزام رفض ذلك بقوة وظل واقفاً ينظر إلى سراج وجنوده شزراً.. اتجه سرور في الحال إلى العقيد سراج وتحدث إليه بصوت هادئ: «سيد سراج أعتذر لك على حدة موقف السيد عزام ولكن ما حدث معه من قبل أغضبه بشده.. أتمنى أن تغفر له حديثه

ونحن رهن أمرك سوف نفعل جميع ما ترغب».. هنا صرخ عليه عزام من خلفه غاضباً: «بماذا تهذي يا سرور؟ هل جنت؟! لن أفعل شيئاً أبداً رغماً عني.. ولن يرغمني أحد على فعل ذلك ولا مازن ولا حتى الشرطة نفسها.. يا شعبان.. فلتحضر أنت ورجالك».. في تلك اللحظة خرج شعبان بصحبة خمسة عشر رجلاً مسلحين بالعصي والمدى وذهبوا مسرعين ليقفوا خلف عزام متأهبين وهم يضحكون ساخرين من الجنود أمامهم.. هنا امتقع وجه سراج بحمرة الغضب وكاد رأسه يصدر دخاناً وهو يشاهد شعبان ورجاله يسخرون منه ومن جنوده.. قام في الحال بإخراج سلاحه الناري وشد أجزائه متأهباً وصرخ برجاله: «استعدوا للاشتباك».. فرفع الجنود أسلحتهم في الحال على شعبان ورجاله.. ودب الذعر والقلق في الناس بداخل الطابور وعلت الهمهمات وتصاعدت رايات الخوف في الأفق.. وتحدث سراج بغضب شديد إلى عزام وهو يرفع سلاحه أمامه: «أتتحدى الشرطة يا عزام؟ أتتحدى القانون؟ سوف أجعلك تدفع الثمن غالياً.. أخطركم الآن.. إما أن تلقوا بأسلحتكم وعصيكم وإما سوف أطلق النار بعد خمس ثوان».. هنا وقف سرور مضطرباً أمامه وهو يحاول أن يهدئه: «سيد سراج.. سيد سراج.. أرجوك.. انتظر أرجوك.. سوف أجعلهم يمثلون لأوامرك الآن.. أرجوك.. انتظر»..

سراج بضيق: «إذا لم يتركوا أسلحتهم خلال خمس ثوان فسوف أطلق النار عليهم جميعاً».. هنا اتجه سرور راكضاً وهمس في أذن

عزام المضطرب: «ماذا تفعل؟ ماذا تفعل؟ اتركني أتعامل أنا مع هذا الموقف.. سوف أجعلهم يرحلون.. اهدأ و اتركني أنا أتعامل معهم»..
ابتلع عزام ريقه في خوف وأوماً برأسه له موافقاً: «توجه مسرعاً جهة شعبان وأمره في الحال بلهجة حادة بأن يترك هو ورجال أسلحتهم»..
تردد شعبان للحظات ولكن مع إصرار سرور قام بترك أسلحته..
فتوجه سرور مسرعاً جهة سراج مرة أخرى وحدثه بصوت هادئ:
«سيد سراج.. أرجو أن أتحدث معك للحظات على انفراد».. أجابه سراج بضيق: «لا يوجد ما نتحدث عنه.. سوف ينفذ عزام أوامري برضائه أو على الرغم عنه».. أخذ يحدثه سرور بترج: «أتمنى أن تسمعني لدقيقة واحدة ومن ثم أفعل ما تريد.. أرجوك.. أنت تعلم بأني أتمنى الخير لجهينة وأهلها».. نظر إليه سراج بطرف عينيه ساخرًا: «أنت تحب أهل جهينة؟! يبدو أنك مستمتع مع عزام بالانتقام منهم».. «أرجوك دعني أشرح لك وجهة نظري ومن ثم اتخذ قرارك»..

تنهد سراج ثم وضع سلاحه مكانه مرة أخرى وتحدث إلى الجنود خلفه: «ابقوا في أماكنكم.. إذا تحرك أحد أو فعل أمرًا مشبوهاً فأطلقوا النار عليه في الحال».. أوماً الجنود برء وسهم وأخذوا وضع الاستعداد بينما ظل عزام وشعبان والجميع وعيونهم متعلقة بسرور وسراج وهما يتعدان عنهم قليلاً ويتحدثان بهدوء.. أخذ سرور يتحدث إلى سراج:
«سيد سراج.. أنا أعلم جيدًا بأنك ضابط متميز وخلق وأنك أنسب شخص الآن ليتواجد بجهينة في تلك الأوضاع الغريبة.. لأنه لو تواجد

أي ضابط غيرك لكنت حدثت كوارث بالمدينة منذ زمن بعيد»...
«حسنًا.. ماذا تريد من وراء كل ذلك التملق؟ ماذا تريد يا سرور؟»..
تنهد سرور وأجابه بصوت هادئ للغاية: «سيد سراج.. أنت
بالطبع تعتقد أن حديثي هذا كذب وغير حقيقي ولكن صدقني
أنا أرغب بمساعدة جهينة وأهلها على الرغم مما فعلوه معي؛ ولهذا
وقفت في وجههم عندما حاولوا سرقة عزام.. وأقف مع عزام الآن
ضدّهم حتى لا يحدث ذلك مرة أخرى.. نعم أنا أعلم بأن هناك بعض
الأمور التي تحدث وأنت غير راض عنها.. وأنا أيضًا غير راض عن
حدوثها ولكن يجب أن نضع مصلحة جهينة وأهلها فوق أي شيء
آخر».. ابتسم سراج ساخرًا: «ماذا؟ أتعني أن تحمك في أهل المدينة
هكذا ورفع الأسعار عليهم ومنعهم من الحصول على ما يرغبون هو
في صالحهم؟!»..

«نعم بالتأكيد هذا بصالحهم.. لقد ظلت أفكر بذلك كثيرًا.. تخيل
معني إذا لم يكن عزام محتكرًا لكل البضائع وما زالت بعض المتاجر تعمل
فماذا كان سيحدث؟ عمليات سلب ونهب كثيرة جدًا وبعضها قد
يحدث به قتل وتدمير.. أما إذا كانت كل السلع بمكان واحد ومحروس
جيدًا فلن يحدث ذلك أبدًا.. وهذا ما نفعله الآن.. أما بالنسبة لهؤلاء
الأوغاد -وأشار برأسه جهة شعبان ورجاله- فإذا تركناهم يرتعون
بالمدينة بدون حارس أو رقيب فماذا كانوا سيفعلون؟! أنا أعلم بأنك
بالطبع تحرص على أمن وسلامة المدينة ولكن لنكن واقعيين؛ أنت

ورجالك لا تعدون عشرين أو ثلاثين شخصًا على أقصى تقدير.. أي مواجهة مع أهل المدينة أو هؤلاء الأوغاد ستكلفك الكثير من الرجال وسوف يصاب الأبرياء وسط ذلك بالتأكيد.. وأنا أعلم بأنك لم تشارك بالكثير من الصراعات التي تحدث بالمدينة لأنك تريد أن تظهر بمظهر القوة الرادعة الأخيرة بالمدينة، وأنا أرى أن فعلك لهذا الأمر ذكاء منك.. أنا أوفر عليك الكثير بجعل هؤلاء الأوغاد يجرسوننا بدلًا من أن يسرقونا.. جعلتهم هم حائط الصد أمام شغب أهل المدينة ومشاكلهم بدلًا منك ومن رجالك.. أنا لا أرى خطأ بذلك؛ بل إنه من الحكمة.. اصدقني القول.. ألا ترى حديثي هذا منطقيًا بالفعل؟..

«مهم.. ماذا تعني بكلامك يا سرور؟.. ماذا تريدني أن أفعل؟..»

«أريدك أن تترك كل شيء كما هو»...

«أتريدني أن أغض الطرف عمّا يحدث وأترك الأمر يمضي؟!..»

أخذ يتسم ساخرًا ثم أكمل حديثه:

«وإذا لم أفعل ذلك يا سرور ولم أدع الأمر يمضي ولم أغض الطرف

عمّا يحدث.. ماذا ستفعل؟».. هنا نظر سرور إلى عين سراج بتحد ثم

اقترب منه أكثر وحدثه هامسًا بالقرب من أذنه:

«حسنًا.. سيحدث كالتالي.. سوف أقوم بتدمير مخازن الطعام

والشراب بالمتجر وأهرق الوقود بشوارع جهينة.. وأتركك بمواجهة

أهلها الجائعين برفقة جنودك المدججين بالسلاح.. الذين لن يجدوا

ما يأكلونه.. أظن أنك سوف ترى في حينها أن هؤلاء الجنود الذين

تحتمي بهم الآن لن يختلفوا حينها كثيراً عن هؤلاء الأوغاد ممن كنت ستطلق عليهم النيران منذ قليل».. ابتعد سرور قليلاً عن سراج وأخذ ينظر إلى وجهه الذي أصابه الذهول.. فتابع سرور حديثه إليه: «دع الأمر يمضي.. وجنودك سيجدون ما يأكلونه.. دع الأمر يمضي وأطفئ فتيل الفتنة المشتعل».. ثم أعطاه ظهره وتحرك بجهة عزام وشعبان اللذين اتابهما الفضول الشديد عندما وجدا وجه سراج تغير.. أخذ سراج ينظر إلى سرور قليلاً ثم ابتلع ريقه وتحديث إلى جنوده بالحال: «هيا اتبعوني».. امثل الجنود لأوامره وانسحبوا خلفه مبتعدين عن متجر عزام وسط صيحات الاستحسان والتبجيل من عزام ورجال شعبان لسرور الذي أخذ يستمع إليهم مبتسماً وهو يراقب ابتعاد سراج ورجاله عن المتجر حتى اختفوا من أمامه..



(انقلاب)

كريم يتهدى بالطرقات وهو يضع يديه في بنطاله متبخرًا يتفحص أحوال المدينة وأهلها وهو يبحث عن شيء بعناية شديدة وباستمتاع كبير ظاهر على وجهه في شكل ابتسامة وهو يحدث نفسه: «أين؟ أين اختبأت هذه المرة يا رامي؟ فلتظهر سريعًا أريد أن نلهو معًا قليلًا»..

«كريم.. يا كريم».. صوت شخص يناديه من خلفه.. التفت كريم جهته ليجد مازن عمدة المدينة يركض بصعوبة باتجاهه ووجهه مليء بالجروح والكدمات.. توقف كريم ليلحقه مازن وهو يلهث بصعوبة لعدة ثوان ثم حدثه بلهفة شديدة: «أرايت.. أرايت يا كريم ماذا حدث بجهينة من مصائب؟ لقد استولى عزام على البلدة بأكملها وجعل أهل المدينة يضربونني وكادوا يقتلونني.. هل تتصور ذلك؟ أهل جهينة يفعلون بي ذلك!!».. نظر له كريم ببلاهة شديدة وهو يتابع حديثه: «لقد استولى عزام هذا الملعون على المدينة.. كنت دائمًا حذرًا من متولي ويومي ولكن لم يكن في مخيلتي أبدًا أن يقتنص عزام هذا الوغد العجوز المدينة من تحت أقدامي.. حتى الشرطة.. حتى الشرطة اللعينة التي سمحت لها بأن تعيث فسادًا بجهينة وقوانينها لم يستطيعوا الوقوف أمام عزام.. لقد فشلت حتى الشرطة في مواجهة عزام.. أنا لا أعلم

ماذا أفعل الآن.. المدينة ستدمر إذا لم نحافظ على قوانينها يا كريم.. كل ما قمت ببنائه سوف تدمره الرياح.. يجب أن نفكر بطريقة لكي نزيح هذا الوغد عزام وسرور من حكم المدينة.. أنا متأكد بأن كل هذه الأمور من تدبير سرور المنبوذ اللعين.. إنه ينتقم مني أنا وأهل المدينة لجعلنا إياه منبوذاً.. وقف كريم يرقب مازن وحديثه ولم ينبس ببنت شفة.. شعر مازن بالرغبة من فعله: «لماذا لا تجيبني يا كريم؟ لماذا تكتفي بمشاهدتي هكذا؟»..

هز كريم كتفيه بلامبالاة: «ماذا تريدني أن أفعل؟».

مستنكراً: «ماذا أريدك أن تفعل؟ أريدك أن تقف معي ضد عزام وسرور ومتولي وبيومي وجميع الخونة الموجودين بجهينة.. أريدك أن تتوحد معي ضدهم لكي نعاقبهم جميعاً»..

أخذ كريم يومئ برأسه قليلاً: «نعم.. نعم.. ثم ماذا؟»..

مازن مندهشاً من رد فعله: «ثم ماذا؟.. ثم.. ثم نعود لنحكم جهينة من جديد ونعيد إليها قوانينها وأمنها»..

ابتسم كريم ساخراً: «ثم يخرج شخص آخر يريد هو أيضاً أن يحكم جهينة ويفرض قوانينه عليها.. ثم يظهر شخص آخر ليفعل نفس الأمر.. ثم شخص آخر.. ثم شخص ثم آخر.. وندخل بدائرة مغلقة هكذا إلى الأبد.. أنا لا أفهم لماذا كل ذلك.. عمر الإنسان قصير للغاية.. أنا ما زلت مندهشاً أن يترك جميع متع الحياة وبهجتها ويقضي عمره يريد أن يسيطر على الأشخاص الآخرين ويفرض عليهم أفكاره.. لماذا

لا يتعاون البشر مثل النحل والنمل وجميع المخلوقات؟ لماذا يبحثون دائماً عن أوجه الاختلاف بينهم لكي يتصارعوا مع بعضهم؟ لماذا تريد من أهل جهينة أن يتبعوك؟ لماذا لا تتبع أنت أي شخص آخر إذا كان يفعل ما في مصلحة جهينة وأهلها كما ترغب؟ أنا لا أفهم»..

غاضباً مستنكراً: «ما هذا الهراء الذي تقوله يا كريم؟ لا يوجد أي شخص في تلك المدينة يعلم مصلحة جهينة وأهلها إلا أنا.. لقد نجحت بفعل ذلك لمدة 30 عاماً وأستطيع أن أفعل ذلك إلى الأبد.. إذا تركت المدينة لأي شخص آخر فسوف يبحث عن مصلحته هو فقط وليس مصلحة أهل المدينة.. أنا ضحيت بعمرى وشبابى بأكمله من أجلهم.. لقد استغنيت عن عائلتي الصغيرة وجعلتهم هم عائلتي وتريد بعد كل تلك التضحيات أن يتقلد منصب العمدة شخص آخر غيرى؟! هذا لن يحدث أبداً ولو على جثتي.. أنت تتحدث مثلهم.. أنت أيضاً توأطأت معهم ضدي يا كريم.. حتى أنت أيها اللعين تتآمر ضدي.. جميعكم خونة.. سوف أجعلكم جميعاً منبوذين.. أنتم جميعاً من اليوم منبوذون.. جميع من لا يستمع إلى أوامرى سيكون منبوذاً.. جميعكم ستكونون منبوذين»..

ضحك كريم ببطء قليلاً على رد فعل مازن.. ثم انفجر ضاحكاً بشدة وهو يرى علامات الغضب والدماء تكاد تنفجر من عروقه.. ثم ربت على كتفه للحظات وهو يضحك ضحكاً شديداً:

..«أنت.. أنت.. هههههه.. أنت ستجعلني أنا منبوذاً؟
هههههههه».. أو ما برأسه إليه: «لا تقلق.. سوف نصلح الجميع..
سوف نصلح الجميع قريباً جداً».. ثم تركه وانصرف ومازن يسبه
هو وأهله وقبيلته وينعته بالمنبوذ والخائن.. وكريم يستمع إليه وهو
يضحك مبتعداً عنه..

* * *

كان سرور عائداً من منزله متجهاً إلى متجر عزام وهو يفكر بعمق
شديد بما يحدث بجهينة وكيف سيتصرف الجميع بالأيام القادمة.. كان
يشعر بالقوة في تلك الأيام.. قوة لم يكن يتوقعها بحياته كلها.. الجميع
يتملقه بشدة؛ يحبونه بالطريق، ويغدقونه بكلمات المديح، والابتسامات
المغلقة بالعسل والشهد، ولكن بأعماق نفسه كان يشعر بالقلق والخوف
من المجهول القادم.. لم يعد بمقدور أي شخص من أهل المدينة أن
يتوقع ماذا سيحدث في الدقائق التالية.. كل صباح أو مساء يصبح
للمدينة شأن آخر.. سمع صوتاً يناديه فالتفت خلفه سريعاً ليجد
سيدة في بداية الثلاثينات تمسك بيدها طفلتها وتقرب منه وهي تبكي
بحرقة: «سيد سرور.. أرجوك ساعدنا أنا وعائلي.. أتوسل إليك..
أقبل يديك وقدمك».. واقتربت من يده لتحاول تقبيلها فشعر سرور
بالاضطراب الشديد من فعلها وسحب يده سريعاً وسألها بفضول:
«ماذا هنالك يا سيدتي؟ ماذا حدث؟».. أجابته بدموع شديدة: «أنا

زوجة محرم سعيد.. أنت تعرفه بالطبع».. أو ما لها سرور برأسه: «نعم بالطبع أعرفه»..

«لقد تركني محرم منذ عدة أسابيع في رحلة إلى عمله ولم يعد إلى جهينة بسبب الضباب الذي يحيط بنا هذا.. وترك معي أموالاً قليلة شارفت على الانتهاء بسبب الأسعار التي يضعها السيد عزام كما تعلم.. وأنا لا أعارض على ذلك.. أنا لا أحتاج مساعدة من أحد أرغب فقط بأن أحصل على طعامي واحتياجاتي أنا وابنتي بسعر الأمس فقط وأرجو أن تساعدني في ذلك».. اندهش سرور من حديثها: «ماذا تعنين بأسعار الأمس؟»..

«السيد عزام قام برفع الأسعار جميعها 20 ضعف أسعار الأمس.. ألا تعلم ذلك الأمر؟»..

أجابها مصدوماً: «ماذا؟ لا لم أعلم.. أنا منذ أول اليوم بالمنزل بسبب مرض ابنتي».. اقتربت منه السيدة وقبلت كتفه سريعاً مترجية: «أرجوك يا سيد سرور.. أقبل قدمك ساعدني أحلفك بحياة ابنتك الغالية أن تجعل السيد عزام يعطينا الطعام بأسعار الأمس فقط.. جميع الأموال التي معي لا تكفي لشراء أي شيء بهذه الأسعار الجديدة»..

نظر سرور إلى السيدة بشفقة شديدة وهو يري دموعها المنسابة على وجهها ووجنتيها الحمراءوين من كثرة الحزن.. وطفلتها بيدها تبكي لبكاء أمها وأنفها يسيل وهي تحتضن قدم أمها بخوف.. رجف قلب سرور بشدة لهذا المشهد.. لا يوجد أي إنسان طبيعي في هذه الحياة

يستطيع أن يشاهد دموع المرأة والأطفال ويقاومها.. مشهد دموع تلك الطفلة البريئة أثرت به بشدة لا يعلم لماذا.. في تلك اللحظة تذكر دموع ابنته وهي تبكي وتحتضنه وتخبره أنها آسفة لأنها طلبت منه قطعة شيكولاتة وشعوره بالعجز وقهر الرجال في حينها.. كل هذه الذكريات أشعلت الغضب في قلبه وأمدته بالشجاعة في أوصاله فاخبرها بكل ثقة: «لا تقلقي.. سوف تأخذين كل ما تريدينه بالتأكيد.. أنا سوف أحرص على ذلك بحياتي».. شعور السعادة التي ظهرت على وجه المرأة وهي تشكره وتكيل له المديح الذي كاد يجعله يبكي من التأثر ولكنه حافظ على رباطة جأشه بضعف شديد.. ومن ثم ابتسم لمداعبة الأم لابتتها وتغير حالة الحزن التي انتابتها.. تقدمها سرور إلى جهة متجر عزام الذي كان يشغل كالنحل.. جموع من أهل المدينة غاضبون يصيحون بشعبان ورجاله الذين كانوا يطيحون بهم ضرباً وصرخاً وعزام جالس بداخل متجره يرقب ما يحدث بابتسامة شديدة.. نظر سرور إلى شعبان وهو يلطم بعض الشباب ويسبهم ويرفع سكينه الصغير على رءوسهم.. اتجه سرور غاضباً إلى جهة عزام وتبعته السيدة وهي تحمل ابنتها خوفاً مما يحدث.. توجه سرور إلى عزام بسؤاله في الحال: «ماذا يحدث يا سيد عزام؟ هل رفعت الأسعار عشرين ضعفاً بالفعل؟».

ابتسم عزام بفخر: «لا بل خمسين ضعفاً».. شعر سرور والسيدة بالصدمة، وهنا شاهد عزام السيدة بجوار سرور فحدثها بغضب:

«أنتِ مرة أخرى؟ ألم أخبركِ أنكِ لو قمتِ بالبكاء حتى العام القادم فلن تأخذي شيئاً إلا بعد أن تدفعي بالسعر الجديد؟ هيا اخرجي من هنا لا تضيعي وقتي».. نظرت السيدة بأسى إليه ثم حدثت سرور بترجّ: «سيد سرور.. ساعدني».. صرخ بها عزام غاضباً: «تستنجدين بسرور وتعصين كلامي!! اخرجي الآن أيتها اللعينة من متجري ولا تأتي إلي مرة أخرى لن أبيعك شيئاً مرة أخرى.. هيا اذهبي وإلا جعلت رجالي يلقونكِ إلى الخارج».. بكت السيدة وهي تمسك بكتف سرور: «سيد سرور أنجدي».. شعر سرور بالغضب الشديد من رد فعل عزام فحدثت السيدة وهو ينظر إلى عزام غاضباً: «انتظريني بالخارج يا سيدتي.. لا تذهبي إلى منزلك انتظريني بالخارج فقط».. نظرت السيدة إليه للحظات ثم أومأت برأسها وخرجت إلى خارج المتجر.. تحدثت عزام إلى سرور غاضباً: «ماذا تفعل يا سرور؟! أسوف تكسر أوامري أم ماذا؟».. أجابه سرور بهدوء: «لا بالطبع يا سيد عزام ولكن أريد أن أعلم لماذا رفعت الأسعار هكذا».. مبتسماً: «ولماذا لا أرفعها؟ مازن أصبح بلا قيمة تذكر ولا شخص يتبعه.. وكبار عائلات جهينة رهن أمري حتى لا أغضب عليهم وأمنعهم من الحصول على احتياجاتهم.. حتى الشرطة لم تستطع أن تفعل شيئاً ولن تعترض طريقي بعد الآن.. وكل هذا يرجع لفضلك أنت.. أصبح لي ملك المدينة بأكملها والكل رهن أمري وكل ذلك بمساعدتك بدون شك؛ ولهذا سوف أغدق عليك بالغالي والنفيس فأنا لا أنسى من يقف معي أبداً»..

«يا سيد عزام لكل شيء حدود.. رفع الأسعار هكذا لن يجعل مع أهل المدينة أي نقود ليقوموا بشراء أي شيء آخر».. مبتسماً:
«نعم لن يكون لهم نقود.. ولكن سيكون معهم ذهب.. مجوهرات.. ملابس.. عقارات وأراض.. فليعطوني كل شيء.. كل المدينة وممتلكاتها وأهلها سيكونون لي».. أجابه سرور مندهشاً: «ماذا تقول يا سيد عزام؟ أتريد أن تسلبهم كل شيء؟ كيف يعقل هذا؟».. رفع عزام نظارته من على وجهه قليلاً وهو يحدث سرور: «ما بك يا سرور؟ مالك تدافع عن أهل جهينة هكذا؟ هل تأثرت بالدموع الكاذبة لهؤلاء الأوغاد؟ هل نسيت ما فعلوه بك وهم يعاملونك كالكلاب الجربة؟ هل نسيت ما فعلوه بك وبابنتك هنا في متجري؟ هل نسيت كل ذلك؟ إذا كنت نسيت فأنا لم أنس أنهم سرقوني وكادوا يقتلونني».. تأثر سرور بحديث عزام قليلاً ولكنه حاول أن يثنيه عن رأيه قليلاً: «يا سيد عزام أنا ألتمس عطفك وكرمك وأتمنى أن تخفض الأسعار قليلاً حتى يستطيع أهل المدينة الحصول على حاجياتهم في حدود المعقول»..

«لا تحاول كثيراً يا سرور لن أخفض أي شيء مهما حاولت»..

«يا سيد عزام أنا أتمنى أن تفعل ذلك من أجل الأطفال.. إنهم أبرياء ليس لهم أي ذنب بما يحدث.»

بحدة: «ذنبهم أنهم ولدوا من أصلاب هؤلاء الأوغاد من كادوا يقتلونني.. سرور يجب أن تحدد موقفك الآن.. إذا لم تدعمني في أوامري.. مكانك سيكون مع هؤلاء الأوغاد بالخارج».. شعر سرور

بالغضب الشديد من تهديد عزام فتركه وخرج إلى خارج المتجر ليجد السيدة هي وابنتها في انتظاره ومازال هناك هرج ومرج مع شعبان ورجاله ومع بعض أهل المدينة.. هنا اقتربت السيدة منه في قلق وحدثته بترجّ: «ماذا حدث يا سيد سرور؟ هل أقنعت السيد عزام بشرائنا بأسعار الأمس؟».. في تلك اللحظة فتح باب المتجر وخرج عزام وهو يرمق سرور والسيدة بضيق ثم تحدث بصوت عال في الجميع: «أيها الأوغاد.. أيها الأوغاد اسمعوا قراري الأخير».. هنا هدأت الجموع ووقف الجميع ليستمعوا إلى عزام الذي صرخ بهم: «هناك شكاوى كثيرة أتت إلي لكي أخفض أسعار السلع قليلاً.. واستجابة لتلك الطلبات أعلن من اليوم أن أي سلعة ستباع بمائة ضعف سعر الأمس ومن لا يعجبه فليذهب إلى الجحيم».. ثم نظر إلى سرور بغضب ودلف إلى المتجر.. هنا قام الجميع بالصراخ غاضبين ومستائين وصرخت السيدة وسقطت على الأرض فاقدة للوعي وصرخت طفلتها عليها وأخذت تبكي وهي تحاول مساعدة أمها وهي لا تعلم ماذا تفعل فركضت بسرعة جهة سرور وهي تمسك يده وتسحبها لمساعدة أمها: «أمي.. أرجوك ساعد أمي».. هنا ارتجفت يد سرور وهو يشاهد بكاء تلك الطفلة الصغيرة وهي تحاول إنقاذ أمها مما ألم بها.. هنا لم يستطع سرور احتمال هذا الغضب والعجز الذي اجتاح قلبه.. قرر أن ينفذ أمرًا دار بمخيلته كثيرًا ولكنه لم يكن يفكر يومًا أن ينفذه.. دلف إلى المتجر سريعًا وترك الفتاة تصرخ على أمها.. ركض بعض الأشخاص جهة السيدة وقاموا بمحاولة إفاقتها وبعد

عدة محاولات نجحوا في ذلك فألقت الابنة نفسها على أمها وهي تبكي وأمها ظلت تبكي هي أيضًا.. هنا تفاجأ الجميع بمشهد غريب للغاية.. سرور يسحب عزام إلى خارج المتجر وحوله بعض العاملين بالمتجر يحدثونه مرتاعين وسرور يضع سلاحه الناري على رأس عزام.. هنا أطلق سرور طلقة في الهواء فتوقف الجميع ليشاهد ماذا يحدث ليجدوا هذا المشهد أمامهم.. صرخ سرور في الجميع ويده ترتجف بالسلاح على رأس عزام الذي امتقع لونه من الخوف والصدمة: «اسمعوني جميعًا.. من اليوم عزام سيترك هذا المتجر في عنايتي أنا سوف أديره بنفسني من الآن فصاعدًا».. صرخ عليه عزام غاضبًا: «أتريد أن تسلبني متجري يا سرور؟ أتفعل ذلك بي بعد أن وثقت بك أيها الخائن؟».. قام سرور بدفع عزام بعنف: «اصمت الآن أيها الوغد العجوز لقد ساعدتك عندما كنت تمتلك قلبًا.. أما الآن فأنت بقلب متحجر مثل مازن أو أشد تحجرًا.. شعبان.. فلتقم بوضع السيد عزام بمنزله ولا تجعله يخرج من هناك أبدًا».. هنا صرخ عزام بشعبان مستنجدًا: «شعبان.. أنقذني من هذا الوغد وسوف أجعلك ساعدي الأيمن بدلًا منه وسوف أقوم بزيادة حصصك من الطعام والشراب وسأضعف مرتبك ثلاثة أضعاف بل خمسة أضعاف».. وقف شعبان قليلًا يشاهد الموقف بعناية ورجاله يرقبونه لينفذوا أوامره.. هنا ابتسم شعبان وهو يقترب من سرور وعزام.. شعر سرور بالاضطراب خوفًا أن يقوم شعبان باتباع عزام ويضطر أن يدخل في قتال معه ولكن شعور الاضطراب تحول إلى اندهاش عندما وجد شعبان يضحك وهو يصدر

صوتًا من أنفه: «عرضك مُغرٍ أيها العجوز.. ولكن للأسف سوف أحصل عليه من الزعيم الجديد».. ثم نظر إلى سرور ضاحكًا.. وهنا أومأ له سرور بالموافقة وهو يشعر بالفرح الشديد نتيجة تغير موقف شعبان واعترافه له بالزعامة.. اقترب شعبان من عزام ووضع سكينه خلف أذن عزام بطريقة احترافية وسحبه منها فتحرك معه عزام خائفًا: «شعبان.. شعبان هل ستبيعي يا شعبان أنت أيضًا.. سوف أعطيك ما تريد.. سوف أدعك تفعل ما تريد.»

هنا ضرب شعبان على رأس عزام بظهر السكين وهو يضحك: «اصمت أيها العجوز.. لقد أصبح لي زعيم آخر كما أخبرتك.. هيا تحرك معي الآن وإلا سوف تكون الضربة القادمة أسفل الحزام..».. تحرك معه عزام وهو مقهور ذليل مصدوم من فعل سرور الذي تلاشى النظر في عيون عزام التي كانت تصرخ عليه متوسلة.. ولكنه تجاهلها سريعًا.. صاح أحد الأشخاص عليه: «ماذا ستفعل معنا؟ هل سترفع الأسعار أنت أيضًا».. أجابهم سرور في الحال: «لا.. أول قرار أن جميع الأسعار سوف تعود إلى نفس أسعار اليوم الأول الذي حدث به هذا الضباب».. تعالت أصوات الجميع به مهللين فرحين وارتمت السيدة وهي تحمل ابنتها على يده لتقبلها فرحة وهي تدعو له وشعبان وقف مبتسمًا يشاهد فرحة الجميع بينما عزام ظل ينظر إليهم متحسرًا منكسرًا.. أوقف سرور الجميع بإشارة من يده فتوقف الجميع عن الصياح وعم الصمت فتحدث سرور إليهم: «كما أخبرتكم جميع الأوضاع ستعود

كما كانت قبل حصار هذا الضباب للمدينة ولكن بشروطي أنا.. ومن لا يقوم باتباع تلك الشروط فسوف يحرم من الحصول على أي احتياجات من المتجر ومن يساعده سوف يحرم هو أيضًا».. سأله أحد الأشخاص بفضول: «وما هي تلك الشروط؟ أخبرنا».. سوف أخبركم بالتأكيد ولكن ليس الآن.. جميع أهل المدينة سيخضعون لتلك الشروط بلا استثناء ولكن سأكشف عنها في وقتها.. أما الآن فيجب أن ينتظم الجميع بالصفوف مرة أخرى لكي نعاود عملية البيع والشراء مرة أخرى».. هنا قام شعبان بالتصفيق فتبعه رجاله ثم تبعه جميع الحضور فشعر سرور بالفرح والزهو من ذلك المشهد وأخذ ينظر إلى عزام بحزن لأنه أرغمه على فعل ذلك معه.. بعد أن انتهى الجميع من التصفيق.. قام شعبان بالحديث إلى سرور: «لقد قمت بحركة احترافية للغاية يا زعيم ولكن ينقصك شيء واحد فقط لم تفعله».. نظر له سرور مندهشًا وهو يفكر ما ذلك الذي لم يفعله.. هنا قام شعبان بالالتفاف خلف عزام ووضع سكينه على رقبته ثم حركه ببطء شديد لتندفع الدماء بغزارة من رقبة عزام وهو يحاول أن يصرخ فلا يستطيع ويده بدون وعي منه على رقبته تحاول إيقاف الدماء المتدفقة من كل جهة.. لقد قام شعبان بذبح عزام.. ذلك المشهد صدم الجميع.. بعض السيدات صرخن وبعضهن فقدن الوعي.. وابتعد بعض الرجال إلى الخلف متقهقرين.. الجميع كان في صدمة شديدة ومنهم سرور الذي ألجمت الصدمة لسانه وأوقفت عقله عن العمل بينما أخذ شعبان يحدثه بشكل طبيعي وهو يشاهد عزام ينهار

على الأرض يلفظ أنفاسه الأخيرة.. بينما يمسح السكين بملابسه من
الدماء ويحدثه بهدوء: «يجب أن تقتل الزعيم السابق حتى ترتاح من
مشاكله القادمة.. تذكر هذا الأمر دائماً».. جسد عزام ملقى على وجهه
والدماء تنساب من جسده حوله صانعة بركة كبيرة من الدماء بينما ظل
الجميع ينظرون إلى سرور الذي وقف مشاهداً للموقف لا يدري ماذا
يفعل أو ماذا يقول..



عصام يقف متحفزاً مترقباً يتابع المشهد أمامه بعناية وبجواره وقف
سراج يراقبه فحدثه مستفسراً: «هل أنت متأكد من فعل ذلك؟»..
ابتلع عصام ريقه في قلق ثم أوماً برأسه موافقاً فرفع سراج في الحال
الغطاء عن جسد عزام أمامه الذي بدا لهم في الحال جافاً أزرق والجرح
في رقبته غائر وعميق.. تراجع عصام في الحال إلى الخلف وهو يشيح
بوجهه عن مشهد عزام أمامه وهو يحدث سراج مذعوراً «هذا يكفي..
هذا يكفي».. أعاد سراج الغطاء على جسد عزام وهو يحدث عصام
لائماً: «ألم أخبرك أنك لن تسر بمشهد الجثة لكن فضولك هذا سيقودك
لهلاكك».. ملامح التقزز متقمصة وجه عصام: «أنا لا أعلم كيف
تستطيع أن ترى هذه المشاهد دون أن تؤثر بك».. بلا مبالاة: «عندما
تشرب القهوة أول مرة تجدها مرة الطعم للغاية ولا تستسيغها ولكن
بعد ذلك سيكون أمراً عادياً.. مشاهدة الجثث أصبحت عندي مثل
شرب القهوة ولكن لا أخفيك سرّاً يا عصام لقد أصبح الأمر خطراً..

جهينة المدينة التي كانت بدون جرائم أصبح بها قتل الآن.. وهذا شيء ينبئ بكارثة كبرى، والأسوأ من ذلك أنه وبعد مرور يومين من حادثة قتل عزام لم أتوصل إلى الجاني حتى الآن.. عصام بفضول: «هل امتنع أحد عن مساعدتك بالتحقيقات؟».. ابتسم سراج ساخرًا: «أتمزح معي؟ لقد تركت الجثة في وسط المدينة جهارًا نهارًا ولم يبلغنا أي شخص عن ذلك.. لقد وجدها أحد الجنود ملقاة على الطريق مغطاة ببعض الشراف.. حينما قمت بتحقيقاتي مع سرور لم يرغب في الإجابة عن أي سؤال طرحته عليه وكان يراوغني هو وجميع العاملين بالمتجر والزبائن وجميع أهل المدينة يبدو أن من قتله هو الشبح الذي يتحدث عنه أهل المدينة».

«هل مازلت تعتقد بوجود هذا الشبح المزعوم حتى الآن؟».

«لا بالطبع نحن نعلم أننا نبحث عن شخص لا نتذكر عنه أي شيء هو أشبه بالشبح بالفعل ولكنني أعلم بأن هذا الشخص المجهول ليس من قتل عزام بالتأكيد»..

«هل تعتقد أن سرور هو من قتله لكي يأخذ متجره..؟».

«لا ليس سرور بالتأكيد لقد كان متأثرًا للغاية بموت عزام ولكنه يعلم القاتل بالتأكيد ويحاول أن يخفيه»..

«من تعتقد أنه القاتل إذاً يا سيد سراج؟».

«بالتأكيد وبدون شك شخص من البلطجية الذين استأجرهم عزام ليحموه من أهل المدينة وانقلب السحر على الساحر وقتلوه.. أستطيع أن أقبض عليهم جميعًا الآن وأحتجزهم ولكنني واثق بشدة أنه سيكون بثمن باهظ وسيسقط ضحايا وخسائر وأيضًا لا يوجد لدي دليل»..

.. «إذا ماذا ستفعل؟ هل ستتغاضى عن الأمر أم ماذا؟»..

.. حدثه سراج حانقًا: «لا بالطبع إذا تركت مجرمًا وقاتلًا دون عقابه سوف يشجع هذا الآخرين أن يحدوا حذوه ويصبح القتل مباحًا مستباحًا للجميع.. أنا كل ما يشغلني الآن هو أمران.. الأول أنه ليس لدي دليل على مرتكبي هذا الحادث غير حدسي، والثاني أن يقوم سرور بالامتناع عن تزويد أهل المدينة بالطعام والشراب ويقوم بحرق المتجر كما هددني من قبل، وهنا سوف يصبح القتل أقل شيء يحدث في عرم هذا الأمر.. أنا يدي مكبلت ولا أستطيع أن أفكر جيدًا.. أي قرار سأأخذه سوف يكون له عواقب وخيمة».. صرخ غاضبًا بقوة: «اللعنة على تلك المدينة وعلى الساعة السوداء التي وطئت بها بقدمي هنا»....

حاول عصام تهدئته قليلًا: «اهدأ.. اهدأ يا سيد سراج.. سوف أقترح عليك أمرًا ما.. إذا ما فعلناه معًا وتعاوننا مع المنبوذة أميرة ونجح فقد نصل بالنهاية إلى سبب كل هذا الغموض والأشياء الغريبة التي تحدث بالمدينة».. اقترب سراج منه بفضول شديد: «أنت والمنبوذة أميرة.. ماذا؟ ماذا ستفعل؟ أخبرني في الحال».. هنا قطع حديثهم صوت قوي

للغاية.. لقد سمعوه بوضوح شديد.. إنه صوت مروحة هليكوبتر تحلق على مسافة قريبة منهم.. قفز سراج وعصام فرحًا وركضوا مع بعض الجنود إلى خارج شرفة المنزل وأخذوا يبحثون عن الطائرة مصدر هذا الصوت.. ظل ينظر الجميع إلى السماء المغطاة بالضباب الذي يمنع الكثير من ضوء الشمس.. ولكن الغريب أنهم سمعوا صوتها ولكن لم يشاهدوها.. ابتسم عصام فرحًا: «أسمع أصوات الطائرات؟ إنهم هنا بالتأكيد لإنقاذنا.. كنت متأكدًا بأن الدكتور جوزيف كمال تومي لن يتركني هكذا.. يبدو أنه قد أتى ومعه مساعدات من ناسا.. إنهم بالخارج لم ينسونا».. أخذ سراج ينظر فرحًا إلى السماء وهو يبحث عن الطائرات: «لقد أتوا أخيرًا.. لماذا كانوا منتظرين كل هذا الوقت لإنقاذنا؟».. تحدث إليه عصام بقلق: «لا أعلم بالفعل تأخروا كثيرًا ولكن يبدو أنهم لم يستطيعوا الوصول إلينا إلا الآن لا أعلم ماذا يحدث بالضبط ولكن يبدو أن هناك شيئًا حدث الآن لا نعلمه»..

قبل خمس دقائق من الآن

كان رامي يقوم بإعداد أحد مقالبه في مكان واضح من أنحاء المدينة وقد اتسخت ملابسه وطالت لحيته بشدة ويبدو عليه أنه لم يلق بالآ على الإطلاق بالنظافة الشخصية لنفسه حينها.. قاطع عمله الدءوب ذلك صوت كريم وهو يسخر منه: «أين ذهبت يا صديقي؟ لقد بحثت عنك في كل مكان».. ثم ضحك ساخرًا.. نظر إليه رامي بلا مبالاة: «لقد أتيت لكي تسخر مني كالعادة.. ماذا؟ لم تجد شيئًا تفعله في المدينة مرة

أخرى سوى أن تثير سخطي؟».. أجابه كريم مبتسماً: «هل أنت مستاء من رؤيتي أم ماذا؟.. أنت يجب أن تشكرني لأنني الوحيد الذي أتحدث معك وأونس وحدتك».. رامي ساخرًا: «ماذا تريدني أن أفعل.. أن أتراقص أمامك فرحًا؟ أم أعطيك كل أموالى مكافأة لحديثك معي؟».. ضحك كريم بشدة: «أنت مضحك للغاية يا رامي.. أنت تعلم جيدًا بأنه لا حاجة لي بأموالك أو أي مال آخر.. أخبرني أنت إذا أردت نقودًا أو ذهبًا أو أي شيء آخر مما يثير إعجابكم.. هذا سهل للغاية عندي».. ألقى رامي بما يفعله بضيق: «أخبرني ماذا تريد؟ أنا لا أريد الحديث معك..».. ابتسم كريم له: «أريد أن أسألك شيئًا أثار اهتمامي للغاية.. أخبرني كيف علمت بأمرى.. لقد فكرت كثيرًا وكثيرًا ووجدت أنني لم أخطئ بفعل أي شيء أو قول أي شيء يكشفني أمامك فكيف علمت بأني أنا من تبحث عنه؟»..

تنهد رامي للحظات ثم أجابه بضيق: «إذا أخبرتك أتعدني أنك سوف تغرب عن وجهي ولن أراك لفترة طويلة؟».. مبتسماً: «أعدك بأني سوف أتركك تمارس ما تفعله من هذه الخدع الشبكية التي أدمنتها تلك الأيام.. هههههه»..

داعب رامي ذقنه قليلاً وهو يفكر ثم وضع يده في جيبه وأشار بيده الثانية إلى كريم لكي يقترب منه: «تعال، سوف أريك.. ولا تقلق لن أقتلك مرة أخرى».. اقترب منه كريم وهو يبتسم: «وهل إذا قتلتي مرة أخرى سوف يشكل هذا فرقاً؟!».. وقف كريم بجوار رامي الذي

أخرج هاتفه وأخذ يقلب بعدة صور كثيرة التقطها لمباني وأهالي جهينة وهو يتحدث إلى كريم: «هنا.. هي في وسط كل تلك الصور.. ليست هذه.. وليست هذه.. اممم.. ليست هنا.. ولا هنا.. ثوان.. أها اقتربنا.. هنا.. أترى تلك الصورة..».. هنا نظر كريم بعناية فائقة إلى صورة على شاشة الهاتف ليجد صورة أمامية (سيلفي) لرامي وكريم يقف بجواره ويضع علامة النصر ولكن الغريب هنا أن جسده كان ظاهرًا بوضوح ولكن رأسه كان على شكل ثمرة بطيخ خضراء كبيرة.. فاندesh كريم بشدة من تلك الصورة وأخذ يفكر بأنها صورة مفبركة للحظات ولكن عندما دقق في مكان الصورة تذكرها.. تلك الصورة التي التقطها مع رامي أمام قطعة الذهب وبعد معرفتهما بالمطعم بسبب أميرة.. ولكن ما حكاية ثمرة البطيخ التي على وجهه هذه؟ نظر إلى رامي مندهشًا: «ما تلك الصورة؟ هل قمت بتعديلها؟».. أجابه رامي وهو يضحك بشدة من رد فعل كريم: «هل فوجئت.. هههههه.. لم... تعلم... السبب بعد.. هههههههه».. إن الفضل كله للصخرة التي معي».. وهنا أخرج صخرة بيضاء في قبضة يده وأظهرها أمام كريم.. أنت تعلم بالضبط ماذا فعلت هنا.. ولكن الفضل الأكبر لكشفك كانت معلومة علمتها من أميرة.. تلك المنبوذة التي تكرها.. هي التي ساعدتني بتضييق الخناق في البحث عنك، ولكن فكرة الصورة كلها كانت من تدبيري».. ثم ضحك رامي بشدة وهو ينظر لكريم: «هههههه لم تكن تتوقع هذا أليس كذلك؟ هههههه».. هنا تحدث كريم حانقًا وهو ينظر إلى الصورة غاضبًا: «أميرة.. تلك الغلطة اللعينة»..

نظر إليه رامي غاضبًا وهو يشعر بالقلق أنه أفشى سر أميرة.. وحاول أن يتحدث إلى كريم بأي حديث آخر لكي يصرف نظره عن أميرة.. ولكن هنا سمع الجميع صوتًا ضخمًا قويًا أتى من الأعلى فرفع الجميع أنظارهم إلى الأعلى ومنهم رامي وكريم.. لقد ظهر الصوت بوضوح.. إنه صوت عدة طائرات هليكوبتر تحلق بالأعلى ولكن على الرغم من صوتها القوي الذي يدل على قربها منهم فإنهم لم يروها.. هنا تقافز جميع أهل جهينة فرحًا من أصوات تلك الطائرات وأخذوا يصرخون ويهللون فرحًا باقتراب نجاتهم من هذا الحصار المفروض عليهم.. نظر رامي إلى فرحة الجميع وشعر بالفرح هو أيضًا فتحدث إلى كريم شامتًا: «أتسمع تلك الأصوات؟ أتري فرحه هؤلاء؟ يبدو أن قبضتك تضعف على المدينة أيها الوغد الوسيم.. ههههههه».. وأخذ يضحك شامتًا.. وكريم ينظر إليه مشتعلًا من الغضب وينظر لفرح أهل جهينة حوله ساخطًا، ثم نظر إلى السماء فوقه بفضول وهو يسمع أصوات الطائرات التي لم تظهر أمامهم من الضباب..



بيومي يتحدث مع متولي أمام متجر عزام بتهامس شديد وهما ينظران لعدد من الجموع خلفهما: «هل يعقل يا متولي أن أفعل ذلك بعد أن وصلت من العمر أرذله؟! لا.. لن أستطيع أن أفعل ذلك».. أجابه متولي محذرًا: «أجنت يا بيومي؟ لقد أخبرته بأنك سوف تحضر وقمت بمحايلته كثيرًا لكي يوافق أن تأتي وتأخذ احتياجاتك أنت

وأسرتك».. نظر بيومي أمامه غاضبًا: «أيعقل هذا يا متولي؟ بعد أن تملقنا مازن عمدة المدينة كل تلك السنوات يضيع مجهودنا هكذا أدراج الرياح ويصبح هذا المنبوذ اللعين هو الأمر الناهي في المدينة».. لكزه متولي في كتفه سريعًا: «ماذا تقول أيها الوغد؟ اخفض صوتك حتى لا يسمعك أحد من أهل المدينة فيخبره وتبذ في لحظات.. انتقِ كلماتك جيدًا وافعل ما كنت تفعله مع مازن منذ سنوات».. هز بيومي رأسه متحسرًا: «مازن.. يا لأيامه ولياليه! ليتها تعود من جديد! لقد كنا حمقى لأننا فكرنا بمعارضته.. لقد كنا نأكل الشهد واللبن من بين يديه.. أين أنت يا مازن الآن؟!».. نظر إليه متولي شزرًا: «اللعة عليك! إذا كنت تجبه هكذا فاذهب إلى منزله.. إنه مختبئ هناك منذ عدة أيام.. اذهب إليه يا لعين.. اذهب إليه ودع زوجتك وأولادك يأكلون الصخور.. أنا المخطئ بأني أحضرتك إلى هنا..».. ابتسم إليه بيومي متملقًا: «لا تؤاخذني يا صديقي لقد سرحت بخيالي بالماضي فقط لكني أشكرك على مساعدتك لي أنت بالفعل ونعم الأخ يا متولي! ولكن لا تلمني إذا ترددت بفعل هذا الأمر.. إنه شيء مُخزٍ للغاية.. أنا لا أعلم كيف استطعت أن تفعله».. نظر إليه متولي متحسرًا: «أتراني مستمتعًا بفعله برضائي؟ أنا أفعله من أجل أسرتي وعائلي لكي لا يموتوا من الجوع ولست أنا من أفعل ذلك وحدي.. أناس كثيرون من أهل جهينة يجعلهم سرور يفعلون ذلك أيضًا.. إنه ينتقم منا لمعاملته كمنبوذ من قبل»..

«..أعلم ذلك ولكن ألا تظن أنه كان يجب أن ننتظر قليلاً يمكن أن تعود تلك الطائرات التي سمعناها تحلق فوق المدينة وتنقذنا مما نحن فيه؟».. أجابه متولي بضيق: «لقد انتظرت طويلاً من قبل يا بيومي حتى نفذ جميع الطعام والشراب لدي وتلك الطائرات التي سمعناها قد مر عليها يومان بالفعل ولم يحدث شيء»..

«أنا أعلم يا متولي ولكن يبدو أنها بادرة يمكن أن يتم إنقاذنا خلال عدة أيام»..

«جيد.. فلنصدق حديثك وأنهم سيعودون.. ماذا ستأكل أنت وعائلتك حتى حضورهم لإنقاذنا إذا حضروا من الأصل؟»... أخذ بيومي يفكر وهو يفرك شعر رأسه بأصابعه: «نعم.. كلامك صحيح».. تنهد متولي: «لا تجادل كثيراً يا بيومي لن يغير حديثك هذا من الأمر شيئاً.. ثم إنني اخترت وقتاً متأخراً في المساء كي لا يشاهد الكثير ما نفعله ويكون الإحراج أقل وطأة».. نظر بيومي خلفه لعدد كبير من أهل جهينة: «كل هؤلاء وعدد قليل.. معظم هؤلاء من كبار عائلات المدينة وأغنيائها».. أخذ يتسّم لمتولي فرحاً: «مع كل هؤلاء السادة لن نكون بمفردنا سيكون الأمر أقل إحراجاً».. وأخذ يضحك بشدة إلى أن لكزه متولي بمرفقه: «اصمت.. اصمت لقد حضر سرور».. فتوقف واعتدل بوقفته بالحال وهو يتابع سرور يتقدم جهتها بكل ثقة وشموخ وتسود ملامح وجهه علامات الوجوم.. اقترب منها ليقف على مسافة بينهما وبين العدد الكبير من

أهالي جهينة.. فتحدث إليه متولي مبتسماً: «لقد حضرت ومعني بيومي كما أخبرتك من قبل يا سيد سرور و نرغب في تعطفك وفي كرمك بأن تسمح له بالتبضع من المتجر لكي يقتني حاجته هو وأسرته...».. نظر إليهما سرور للحظات ولم يعقب ولكنه اتجه إلى مقعد موضوع أمام الجموع وجلس عليه وخلفه بعض رجال شعبان وشعبان يقف بعيداً يشرب سيجارته باستمتاع شديد وهو يراقب الجميع.. شعر بيومي بالقلق من عدم حديث سرور إليه فنظر إلى متولي بجواره الذي لكزه بمرفقه فتنبه بيومي إلى نفسه وتحدث إلى سرور بتملق شديد: «إني أشعر بالفخر والشرف العظيم أني أقف برفقتك الآن يا سيد سرور، وأقسم بربي لقد كنت دائماً أحبك في الله وأشعر بأنك أكثر من أخ لي أنت وعائلتك...».. ضحك سرور بشدة وبصوت عال للغاية.. جعل جميع من حوله يشعرون بقلق.. استمر سرور بالضحك لعدة لحظات ثم تنهد بشدة وحدثه بهدوء: «الاه.. لا داعي لكل ذلك يل بيومي احتفظ بتملقك لنفسك.. أنا لن أشتريه.. من يرغب بالتبضع من متجري فيجب عليه أن ينصاع لشروطي.. وأظن لقد أخبرك متولي بماهية شروطي».. أو ما بيومي برأسه بعنف دليلاً على الموافقة.. فابتسم سرور: «وأنت موافق على تنفيذ تلك الشروط؟».. أو ما بيومي برأسه بالموافقة في اضطراب شديد: «بالطبع.. بالطبع يا سيد سرور.. سوف أفعل كل ما ترغب».. أشار إليه سرور بيده سريعاً بأن يتعد: «إذاً لا تضيع وقتي واذهب إلى مكانك هيا».. أو ما بيومي برأسه في الحال: «أنا رهن أمرك يا سيد سرور».. اتجه بيومي ليقف بعيداً عن متولي

الذي تحدث إليه سرور سريعاً: «وأنت يا متولي اذهب لكي تحضر لي مشروبي».. ابتسم متولي سريعاً: «في الحال يا سيد سرور في الحال».. وذهب مسرعاً إلى جهة المتجر.. في تلك اللحظة أخذ سرور يدقق في تلك الوجوه المألوفة لديه من أهل المدينة وكيف كانوا يضحكون في وجهه دائماً ثم انقلبوا عليه وظلوا يؤذونه والآن يقفون بين يديه وعلى وجوههم علامات الذل والاستجداء.. أخذ يفرك يده في رضاء شديد وهنا أخذ ناظره انعكاس الضوء على خاتم زواجه والتماعه فرفع يده في الحال وأخذ يداعب الخاتم بيده ولا يعلم لماذا في تلك اللحظة تذكر حديثه مع زوجته منذ عدة أيام عندما وجدها تبكي فجأة وهي تحضر له الطعام فشعر بالاضطراب من دموعها فترك الطعام واتجه إليها قلقاً وسألها بفضول: «ماذا حدث يا هاجر؟ لماذا تبكين؟ هل حدث شيء لا بتتنا؟»..

أومأت برأسها نافية: «لا.. آية بخير».

بقلق شديد: «إذاً لماذا تبكين هكذا؟»..

نظرت له بتحد وهي تدقق بملامحه: «أخبرني بكل صدق يا سرور.. هل لك يد بمقتل عزام؟»..

ابتلع سرور ريقه بقلق: «حسناً.. كما أخبرتك القصة من قبل يا هاجر لقد ذهب ليقتل بعض أموره بمفرده وتم قتله بواسطة شخص مجهول ولا أحد يعلم من قتله حتى الشرطة والعقيد سراج لم يعلموا من قتله»..

« إذا أنت ليس لك يد بقريب أو من بعيد بهذا الأمر...؟ »..

« أقسم لك يا هاجر أنا صدمت بمقتله أكثر من أي شخص ولكن..
ولكن في أوقات كثيرة أشعر بأنه نال ما استحقه.. لقد قام باستغلال
أهل جهينة أسوأ استغلال »..

أجابته بغضب: « لا لم يستحق أن يحدث له ذلك.. هل نسيت
مساعدته لنا من قبل وأنه هو الوحيد الذي كان يساعدنا بالرغم من
معرفته أنه بمساعدته تلك سوف يصبح منبوذاً مثلنا؟ »..

« نعم بالطبع أنت محقة لكنني قمت بمساعدته أيضاً في أوقات محنته
ولكنه استغل ذلك في التحكم بأهل جهينة.. لقد أعمى الطمع والكره
قلبه وجعله بدون رحمة.. لقد رأيت نظرة الخوف التي مزقت قلبي من
قبل بعيون آية ابنتي على وجوه أطفال أهل جهينة بأكملها »..

« وهل ما تفعله الآن بأهل جهينة يختلف عما كان يفعله عزام؟ »..
نظر إليها سرور مصدوماً ثم وقف غاضباً وهو يحدثها بضيق: « أنا أفعل
مثل عزام.. هل تشبهيني بمتحجر القلب هذا؟! أنا لا أقوم بالتحكم
بأهل جهينة.. لقد جعلت الجميع يأخذ احتياجاته بلا استثناء وبأسعار
منخفضة عما كانت موجودة قبل الحصار على المدينة.. الجميع يتسمون
لي ويحيونني في كل مكان ويدعون لي في صلاتهم وأنت زوجتي
تهاجميني هكذا؟! »..

أمسكت هاجر بيده بقلق: « يا سرور أنا لا أقصد أن أجعلك تشعر
بالإهانة.. أنا أخاف عليك مما تفعله بكبار عائلات جهينة وما تجعلهم

يقومون به.. هذا الأمر على كل لسان أهل جهينة الآن حتى الأطفال يتندرون به»..

«عائلات جهينة هم السبب بما كان يحدث للمدينة كل تلك الفترة وهم من جعلونا منبوذين هل نسيت ما فعلوه بنا؟»

«ولكن ألم تقل منذ قليل بأن هذا ما فعله عزام بالفعل هو يحاول الانتقام من أهل جهينة»..

التف إليها سرور ليوواجهها وأمسك بيديها برقة: «اسمعيني جيداً يا هاجر؛ إن ما أفعله مختلف كلياً عما فعله عزام.. لقد علمتني تلك المحنة التي مررنا بها بجهينة أن الناس يجب أن تشعر بالخوف من شخص ما.. يجب أن يكون لديهم مثل أعلى قوي يرتعدون منه لأنهم إذا لم يشعروا بالخوف في وسط تلك الفوضى سوف يتحول الجميع إلى التدمير وسيكون هناك خراب شامل.. والأفضل لأهل جهينة أن يخافوني ويرهبوني أنا فقط.. هذا بصالحهم أكثر من أن يخافوا ويرهبوا شخصاً مجرمًا ومتحجر القلب مثل شعبان.. أهل جهينة سينصاعون للأقوى بالنهاية.. الأفضل لهم أن ينصاعوا لي بدلاً من أن ينصاعوا لشخص يؤذيهم.. وأنا أفعل بكبار عائلات جهينة ذلك حتى يكونوا عبرة لباقي أهل المدينة ولا يحاول أحد أن يتحداني فيما بعد ولكي أبسط نفوذي أكثر على شعبان وعصيته.. ولكن أبداً.. أبداً.. لم أفكر بأن أنتقم منهم لنفسي.. أنا أمقت العنف والغضب والكراهية ولكن

يجب أن أكون بنظر الناس شريراً لكي أمتع شراً أكبر.. يعلم الله أنني أفعل ذلك من أجل آية وجميع الأطفال الأبرياء مثلها بجهينة..»

انسابت الدموع على وجه هاجر وحدثته بصوت مخنوق: «ولكنني أخاف عليك.. أخاف عليك أن يتلعبك كل ذلك الظلام الذي يحيط بك.. أخشى أن يتسلل إلى قلبك وتتحول إلى شخص آخر بدلاً من سرور الطيب النقي الذي أحبته»..

ابتسم سرور لزوجته ثم احتضنها بقوة وهو يداعب شعرها الأملس بيده: «لا.. لا تخافي يا محبوبتي.. لن يتلعبني الظلام أيضاً طالما أحطتني بضيائك لينير طريقني».. أخذت هاجر تبكي وهي تحتضن سرور بقوة وتتمنى أن تختبئ بين أضلاعه..

«با...»

«تا...رور»..

«يا سيد سرور»..

هنا توقف سرور عن التفكير بحديث زوجته وأخذ ينظر إلى من يناديه ليجد متولي يقف أمامه ويده كوب عصير يحمله بحرص.. فنظر له سرور شزراً لحظات وأخذ منه كوب العصير وارتشف منه باستمتاع شديد.. ثم أشار بيده إلى متولي وهو يصرخ به: «هيا اذهب وقم بعملك المكلف به.. هيا»..

نظر إليه متولي خائفًا وأوماً برأسه في الحال وذهب إلى عدد من أهل جهينة من الرجال والسيدات.. عدد كبير من الشباب وكبار السن.. وقف أمامهم متولي ووقف أمام بيومي الذي غزا العرق وجهه وأخذ قلبه يدق مثل الطبول.. ثم اتبعه الجميع في أماكن منظمة.. ثم جثا متولي على الأرض على يديه وقدميه أمامهم.. فتبعه أهل جهينة وفعّلوا مثله بالضبط أمام سرور.. ثم نظر متولي تجاهه، وأخذ ينبح مثل الكلاب.. والجميع من أهل جهينة خلفه ينبحون مثله.. تطرق سرور بنظرة سريعة إلى جهة الواصل الجديد بيومي الذي تفاجأ بأنه اندمج في تأدية دوره بحرفية شديدة وهو يقلد الكلاب وينبح مثلها بالضبط ويتفنن في إصدار أصوات مشابهة لنباحها «هو هو.. هو هو هو هو.. هو هو.. هو هو.. هو هو» ثم قام بتحريك مؤخرته يمينًا ويسارًا وهو ينبح.. أخذ سرور يضحك بشدة على فعل بيومي وانسكب بعض العصير من يده وهو يقهقه فصاح على بعض الرجال خلفه ضاحكًا: «أعطوا لهذا الرجل كل ما يريد بخضم كبير.. إنه يقوم بتأدية دوره على أفضل ما يمكن..».. شعر بيومي بالفرح فاندمج بدوره أكثر وأخذ ينبح وهو مبتسم ويهز مؤخرته وخرج من الصف وظل يتحرك على يديه وقدميه حول سرور وهو ينبح ويهز مؤخرته مثل الكلاب.. وسرور يضحك بشدة من فعله.. أخذ متولي يتابع ما يفعله بيومي وهو يحدث نفسه حانقًا «كنت تخبرني بأنك مخرج من فعل ذلك وها أنت تتباهى بنباحك يا ابن العاهرة يا بيومي».

قام عدد من أهل جهينة بفعل ما يفعل بيومي حتى ينالوا رضاء
سرور مثل بيومي وأخذوا يلتفون حول سرور أيضًا وهم يتحركون
وينبحون مثل الكلاب بينما ظل البعض في أماكنهم ينبحون فقط..
أخذ شعبان ورجاله يضحكون أيضًا على فعل أهل المدينة وقام
شعبان بالإشارة إلى سرور بعلامة ok وهو يضحك.. فشعر سرور
بالغرور قليلاً من فعل شعبان ذلك له.. وأخذ ينظر إلى أهالي جهينة
حوله بتمعن شديد وهم ينبحون مثل الكلاب ويتحركون مثلها..
وهنا رنت بأذنه كلمات زوجته: «أخاف عليك أن يتلعب كل ذلك
الظلام الذي يحيط بك».. رنت تلك الكلمات باستمرار في أذن سرور
وهو يشاهدهم وهم ينبحون أمامه وهو يضحك بشدة.. فأخذ يشرب
العصير بيده مستمتعاً.. وهو يحدث نفسه: «يجب أن أعترف.. هذا
الظلام يبدو لذيذاً للغاية»..

* * *

(مواجهة)

في ظهيرة اليوم التالي كان عصام وسراج يخترقان شوارع جهينة باحثين عن شخص ما بكل مكان وهما ممتلئان بالعزم والحماس وهما يلقيان بعض الكلمات فيما بينهما بهمة شديدة..

«هل أنت متأكد من نظريتك تلك يا عصام؟»..

«بنسبة كبيرة يا سيد سراج.. وإذا كنا على خطأ فلن نتضرر في شيء نهائياً ولكن إذا كنا على صواب فسوف يتم رفع الستار عن جميع الغموض الذي يحيط بالمدينة مرة واحدة ونهائية ولا تنس أننا معنا هذه المرة سلاح فعال»..

نظر إليه سراج مندهشاً: «إنه ليس سلاحاً فعالاً.. إنه سلاح دمار شامل.. لقد صدمت من هذا الأمر أكثر مما صدمت من أحداث مدينة جهينة الغريبة»..

«هو بالفعل شيء غريب ولكنني سمعت عن تلك الأمور من قبل ولكن معاينتها هكذا كانت شيئاً عجيماً للغاية والميزة أننا تأكدنا بأنفسنا من قوة هذا السلاح.. إذا سوف نكون على يقين تلك المرة ولن يتم خداعنا مثلما يحدث كل مرة»..

تفلتت نظرة من سراج إلى خلفه فلكزه عصام بمرفقه بسرعة:
«لا تنظر خلفك هكذا.. لا تفضح أمرنا»..

مسح سراج عرقه البارد من فوق جبهته: «اعذرنى يا عصام.. أنا
لم أعتد على أمور التسلل والمؤامرات تلك.. لقد كنت دائماً ما أواجه
أي شيء بصدر مفتوح وبقلب لا يعرف الخوف»..

«هذه المرة الأمر مختلف.. جهينة غير أي شيء قابلناه من قبل..
يجب أن نستخدم بها عقولنا قبل طيشنا»..

توقف عصام فجأة بالطريق وتحدث إلى سراج بقلق: «أحذرك من
أن تفعل أي شيء يدمر خطتنا.. لقد قمنا ببنائها لعدة أيام سابقة، أي
هفوة صغيرة ستضيع مجهوداتنا أدراج الرياح»..

هز سراج رأسه في الحال: «لا تخف.. لا تخف.. سوف أتحكم
بأعصابي جيداً»..

«أتمنى ذلك.. هيا بنا نكمل مسيرنا»..

ظل سراج وعصام ينهبان الشوارع بأقدامهما وعيونهما تلتهم المارة
وتبتلع المتاجر بزائريها.. مرت عدة ساعات وهما على حالهم تلك حتى
بدأت أقدامهما تؤلمهما وأصوات الغربان تنعق فوق رءوسهما لتضيف
مشهداً كثيباً على من لم يعتد على العيش بداخل أسوار جهينة.. تسلل
إلى أنفسهما اليأس كما تسلل الورم إلى أصابع أقدامهما وشعرا بأن جميع
مجهوداتهما وتخطيطهما الأيام السابقة قد ضاعت أدراج الرياح..

صرخ سراج حانقًا: « أين ذهب هذا اللعين؟ لقد كنت أراه دائمًا أمامي وقت ما لم أرغب برؤيته.. لماذا حينما أحتاج شيئًا بشدة لا أجده متاحًا أمامي؟!.. يبدو أنها لعنة أصابتني.. توقف فجأة وأخذ يصرخ غاضبًا: «اللعنة عليك أيتها المدينة اللعينة!».. ثم انحنى وهو يمسك بركبتيه وأخذ يلتقط أنفاسه.. نظر إليه عصام متوترًا وهو لا يدري ماذا يفعل.. وأخذ يجول بناظره محلقًا حوله في محاولة أخيرة وكاد يطير فرحًا عندما التقت عيناه بأحد الشوارع الجانبية الهادئة بجهينة وابتسم فرحًا وهو يربت على كتف سراج:

«انظر.. لقد وجدته.. لقد وجدته.. إنه هناك».. وأشار بيده جهة الشارع الجانبية فالتفت سراج سريعًا إلى الجهة التي أشار إليها عصام ليجد رجليهما المنشود.. كريم يقف مستندًا على الحائط بيده وينظر إلى الفراغ على الحائط أمامه ويضحك بشدة.. ابتسم سراج ابتسامة الظفر: «أخيرًا وجدناك يا ابن اللعينة..» ولكنه تحدث إلى عصام مندهشًا: «أرأيت ماذا يفعل؟ إنه يتحدث إلى الحائط ويضحك.. ماذا يفعل؟ هل أصيب بالجنون أم ماذا؟». أجابه عصام سريعًا: «لا.. لا أعتقد ذلك.. إن ما يفعله بالتأكيد له يد بطريقة أو بأخرى بما يحدث بجهينة».. مصدومًا: «ماذا؟ هل كريم له يد بما يحدث بجهينة؟ هل يعقل هذا؟».. أجابه بهدوء: «نحن أتينا إلى هنا لكي نتأكد من ذلك هيا بنا.. لحظات قليلة وسنكتشف كل شيء»..

ثم تحرك صوب كريم.. لحقه سراج وهو يحدث نفسه بقلق: «اللعنة عليك يا كريم! ضحكاتك أشعلت القشعريرة بجسدي..»

اقترب سراج وعصام خلسة من خلف كريم وراقباه للحظات وهو يهمس للحائط أمامه ويضحك ساخرًا.. فتبادلا النظرات فيما بينهما بريبة ثم تحدث سراج إليه بصوت قوي جهوري: «على ماذا تضحك يا كريم؟ فلتضحكنا معك»..

نظر كريم خلفه سريعًا ليجد عصام وسراج واقفين بالقرب منه فشعر بالصدمة الشديدة ومحيت الابتسامة من على وجهه في الحال ووقف ينظر لهما ولم يعلم ماذا يقول.. وطال هذا الأمر لعدة لحظات شعر الجميع خلالها بالهواء البارد يلفح أسفل أعناقهم.. أخذ كريم ينظر له بعينه الملونتين وهو يتلفت حوله ويجول بناظره بينهم.. رد فعله الغريب جعلهما يشعران بالريبة أكثر فتحدث عصام إليه بالحال: «ماذا بك يا سيد كريم؟ هل ابتلعت الهرة لسانك؟! السيد سراج كان يتحدث إليك ويريد أن يعلم ما الذي جعلك تقف وحيدًا في مكان ناءٍ كهذا وتتحدث إلى الحائط وتضحك أيضًا»..

ابتسم كريم وهو يحدثهما: «العقيد سراج والعالم الجليل السيد عصام.. اهلاً بكما لم أركما منذ عدة أيام.. أخبراني لماذا أتيتما إلى هنا؟».. أجابه سراج بثقة: «هذا ما كنا سنسأله لك يا كريم.. ما الذي أتى بك إلى هنا؟»..

ابتسم كريم بثقة: « لا شيء على وجه التحديد.. لقد كنت أتجول
كالمعتاد بأنحاء المدينة.. فأنا لا أجد شيئاً أفعله بالمدينة غير ذلك ..
ولكن يبدو أنكما لم تأتيا هنا لكي تسالاني كيف أقضي وقتي في تلك
المدينة بالتأكيد.. أليس كذلك؟ بماذا أخدمكما يا سادة؟»..

أجابه سراج بالحال: «حسناً سأخبرك يا كريم.. سأخبرك.. أنا
شرطي كما تعلم ولا أجد وقتاً لكي أتسكع بالمدينة مثلك.. فكنت
أفكر بعدة أمور كثيرة حدثت في المدينة تلك الأيام.. أمور كثيرة
للغاية.. سرقة ونهب وتصارع على السلطة.. وتفاقت الأمور أكثر
ووصلت إلى القتل.. الجميع كان مشاركاً بتلك الأحداث سواء برضاه
أم رغماً عنه.. الجميع بلا استثناء حتى أنا وعصام الغريبان عن تلك
المدينة والقادمان من خارجها واللذان اختلطا برجال سرور الذي
يتحكم بمتجر عزام الآن.. وأتعلم شيئاً؟ لقد شاهدت جميع أهل
المدينة لمرة على الأقل يترددون على متجر عزام ذلك لأنه المتجر الوحيد
في المدينة الآن.. ولفت انتباهي أنني لم أرك ولو لمرة واحدة هناك.. وهذا
أثار اندهاشي وجعلني أتساءل قليلاً: يبدو أن السيد كريم لا يحتاج أن
يذهب إلى ذلك المتجر إلا لسببين فقط.. الأول أنه لا يحتاج أن يتناول
الطعام وهذا بالطبع مستحيل.. والثاني.. أن السيد كريم لديه مخزونه
الخاص من السلع والطعام يخبئه بمكان ما.. وإذا كان السيد كريم
يخبئ الطعام والسلع هكذا إذا فإنه يعلم بأن المدينة سيصيبها حصار
طويل هكذا.. إذا السيد كريم له يد بشكل أو آخر بما يحدث بالمدينة
أو على أقل تقدير يعلم ماذا يحدث بها.. أليس كذلك يا سيد كريم؟»..

تغيرت ملامح كريم بشدة وارتسمت علامات الوجوم على وجهه وظل يحدق بهما بعيون جا حظة.. بينما تابع سراج حديثه وهو يتسم بثقة ويستخدم أسلوب المحقق المتمرس الذي يتصيد مجرمًا تحت قبضته: «يبدو من ملامح وجهك أنني قد لمست عرقًا دسًا داخلك.. أخبرني يا صديقي.. ماذا يحدث بجهينة وما صلتك أنت بكل هذا؟»..

عقد كريم حاجبيه في عبوس وتحدث إليه ساخطًا: «أعتقد أن ما أفعله ليس من شأنك يا سيد سراج.. أنت ليس لك عندي أي حديث إلا إذا قمت باتهامي رسميًا بتنفيذ جريمة ما.. وأنا متأكد من عدم فعلى لأي شيء مما تسمونه جريمة أبدًا»..

اندهش سراج وعصام من رد فعل كريم الغاضب هذا وقام عصام بالصفير في الحال: «اووووه.. كريم من يضرب به المثل في الثبات الانفعالي ومقابلة أي موقف يراه بابتسامة ضاحكة يغضب هكذا.. هذا شيء نادر».. ثم اتجه إلى كريم وأسند يده على رقبته وسحبه مبتعدًا وهما يعطيان ظهرهما لسراج وأخذ عصام يحدثه مبتسمًا: «اهدأ يا صديقي.. لا تغضب هكذا إن السيد سراج لا يقصد أي شيء من أسئلته تلك.. أنت تعلم بأن ما نراه جميعًا من أحداث بجهينة يجعل الجميع محملًا بالضغط والأحمال الصعبة.. ويبدو أنك أيضًا قد لمسك بعضًا منها.. أليس كذلك؟ أين ذهبت ابتسامتك المعتادة يا صديقي؟».. نظر كريم إلى عصام الذي يتأبطه مرتابًا مندهشًا من رد فعلها تجاهه فتارة يقابله سراج بأسئلة حادة مزعجة بينما عصام يحدثه بود وهدوء لم يعتد أن يفعله معه من قبل.. أخذ ينظر إلى عيني عصام الذي ظل يتسم بوجهه

وهو يتأبطه ثم يسحبه إلى جهة أخرى مبتعداً وهو يتحدث معه بحديث طويل غير مفهوم.. شعر كريم بوجود شيء خطأ.. شعوره هذا ارتفع فجأة في الحال وأحس بدنو خطر كبير.. فنفض يد عصام بقوة من على رقبته وأخذ يحدثه بعنف شديد: «ماذا تفعلان.. ماذا تخططان؟».. هنا ابتسم عصام في الحال: «يبدو أنك ذكي للغاية يا كريم.. لقد شعرت بما نفعل.. ولكن بعد فوات الأوان»..

نظر إليه كريم مندهشاً وهو يفكر بعمق: «ماذا يعني بفوات الأوان؟».. وهنا فهم ماذا يعني عصام بحديثه عندما وجد شيئاً دافئاً صغيراً يلمس أصابع يده من خلفه.. فالتفت وراءه مسرعاً وهو ينظر إلى ما يلمس أصابعه.. ليجدها أصابع صغيرة شديدة البياض وناعمة الملمس رفع عينيه ببطء أمامه ليجد مفاجأة كبيرة بانتظاره.. أميرة تقف أمامه وهي ممسكة بيده بقوة وتنظر إليه بعيون بيضاء خاوية من الحياة.. شعر بصدمة شديدة للغاية وهو ينظر إليها واقفة أمامه.. لقد حدث ما كان يخشاه منذ أن علم بوجود ذلك الخطأ هنا كما يسميها دائماً.. أميرة أمسكت بيده ولمسته أخيراً.. استمر ذلك الأمر لعدة لحظات عندما عاد إلى رشده وحاول أن يسحب يده بسرعة ولكنه فوجئ بشيء غريب يحدث معه.. شعور لم يشعر به من قبل أبداً أبداً.. لقد شعر بارتعاشة قوية بجسده وقدماه ظللتا ترتجفان بقوة شديدة وانتابه إحساس بأن أميرة كأنها تسحب منه الحياة فأخذ يصيح بصوت عالٍ للغاية.. وأميرة لم تكن أحسن حالاً منه.. فلقد تصلبت عضلاتها في الحال وهي تمسك يد كريم بعنف شديد وبياض عينيها هو الظاهر فقط وفمها مفتوح

على آخره وشعرها ارتفع إلى أعلى وبقوة شديدة وتحول إلى ما يشبه الأسيخ الحديدية وكأنها مستها ملايين من الموجات الكهرومغناطيسية بلحظة واحدة.. مشهد مخيف أقل ما يقال عنه.. جعل سراج وعصام يتعدان عدة خطوات إلى الخلف مرتاعين مما يشاهدانه وما يصاحب هذا المشهد من ضغط هوائي قوي كاد يزيح جميع ما بجواره.. هنا ألم كريم بنفسه قليلاً وهو مازال يرتعش فضغط على قدميه بقوة بالأرض ليشبتهما وهو ينزع يده بقوة من يد أميرة واستمر يقاوم لعدة لحظات حتى نجح بالنهاية وسحب يده منها.. أخذ ينظر إلى يديه مصدوماً وهما ترتعشان ثم نظر إلى أميرة التي عاد شعرها في الحال إلى الأسفل مرة أخرى وعادت عيناها إلى محجريهما مرة أخرى وأخذت تنظر إلى كريم مرتاعة خائفة وهي تراجع إلى الخلف مصدومة لتلتصق بالحائط خلفها وهي تردد: «هذا مستحيل.. هذا غير معقول.. غير معقول».. نظر لها كريم غاضباً بشدة وهو يصرخ بصوت قوي وجهوري كاد يصيهم بالصمم جميعاً: «ماذا فعلت؟ ماذا رأيت؟ ماذا فعلت؟ أنت أيتها العاهرة.. ماذا فعلت؟.. صراخه كان قوياً للغاية لدرجة جعلت الجميع يضع يده على أذنه.. وهنا نظر كريم خلفه بغضب شديد ويكاد يتطاير الشرر من عينيه وهو يتحدث إلى عصام ويمسكه من رقبته غاضباً: «إنها فكرتك أنت.. هذا من تدبيرك.. أنت من خطط لكل هذا.. أنت من أخبر تلك العاهرة بفعل ذلك..».. شعر عصام بالخوف الشديد وابتعد للخلف ليصطدم بالحائط خوفاً وقفز سراج على يد كريم يحاول إبعادها عن رقبة عصام التي كادت تتحطم من

ضغط يده ولكن هيهات أن يحاول أن يحركها من مكانها وشعر الجميع بانها نهاية عصام بالتأكيد وأن تلك هي اللحظات الأخيرة من حياته.. ولكن حدث شيء غير متوقع نهائيًا عندما وجدوا أن يد كريم تخف عن عصام وهو ينظر له مصدومًا مشدوهاً وفجأة سقط خط من الدماء من فمه.. شعر سراج وعصام بالصدمة ممًا يحدث وكانت صدمتها أكبر عندما وجدوا بأن شيئًا يخرق صدر كريم من خلفه لينفذ من أمامها.. وكانت مفاجأة عظيمة عندما وجداها سكينًا كبيرة اخترقت صدر كريم لتخرج الدماء بكثافة منه.. نظر كريم وسراج وعصام إلى السكين وهي تتوسط صدره ثم سحبت سريعًا منه ثم اخترقته مرة أخرى بسرعة بجهة أخرى من صدره.. فأمسك كريم بمقدمة السكين وهي بصدره والدماء قد أغرقت ملابسه وفمه وتحرك بصعوبة إلى الخلف وهو يصرخ خلفه: «أنت أيها الوغد..».. وهنا نظر الجميع إلى من يحدثه كريم خلفه ولكم كانت مفاجأة قوية عندما شاهدوا أمامهم رامي إمام وهو أشعث الشعر متسخ الملابس وله لحية طويلة.. أخذ الجميع ينظر إلى رامي وهم لا يعلمون من هو للحظات.. ورامي ينظر إلى كريم وهو يسقط على ركبتيه منهارًا وهو ينظر إلى السكين بصدره ويحدثه بحنق: «لقد فعلتها مرة أخرى أيها اللعين!..»

وهنا قام رامي بركله بقوة بقدمه ليسقط كريم على الأرض منهارًا غارقًا في دمائه.. وما هي إلا لحظات حتى فارق الحياة.. فأخذ رامي يركل جثته بغضب شديد: «فلتمت وتتعفن في الجحيم أيها الوغد

الوسيم!«.. هنا نظر إليه عصام وسراج وأميرة باندهاش.. فصرخ سراج إليه غير مصدق: «أيعقل أنك أنت؟!«..

فتابعت أميرة حديثه وهي مصدومة: «رامي إمام».. هنا نظر إليها رامي مرتاباً وهو يحدث نفسه: «ياااه.. لم أسمع هذا الاسم منذ زمن بعيد.. يبدو أنني بدأت أتوهم مرة أخرى».. فصرخ سراج وهو يقترب من رامي: «ماذا فعلت يا رامي؟ لقد قتلته.. أجننت؟ لقد قتلت كريم».. فابتسم رامي ضاحكاً: «لا تقلق.. لا تقلق.. سيعود للحياة مرة أخرى»..

فصرخ به سراج معنفًا: «أجننت يا أحمق؟ وهل يعود الموتى للحياة؟!«.. نظر رامي إلى سراج بضيق وأخذ يحدث نفسه: «سراج أيها الأحمق.. هل ما زلت تتصنع أنك تعلم الصواب من الخطأ وأنت أفضل من الجميع؟ أنت مجرد وغد متعجرف تعتمد على والد زوجتك وتنظف أسنانك خوفاً من أبيك الذي جعلك تبلل بنطالك».. أمسك سراج رامي من تلايبه وهو يصرخ به غاضباً ويرجه بين يديه بعنف شديد.. حاول عصام أن ينقذ رامي من قبضة سراج بصعوبة وهو يصرخ على رامي ويدفعه بعيداً عن سراج ليرتطم بالحائط.. فصرخ عليه عصام: «ما الذي فعلته هذا يا رامي.. هل جننت لتقتل كريم وتتحدث بالسوء هكذا عن السيد سراج؟»..

.. نظر إليهم رامي مندهشاً وهو ينظر إلى ملابسها التي مزقتها سراج بيده فأخذ ينظر حوله بكل مكان إلى جهة أميرة وسراج ورامي.. وهو

يحدث نفسه مرتابًا: «ماذا؟ هل يروني؟ هل دفعتني الآن يا سراج لأنك تراني؟».. تحدث إليه سراج بضيق شديد: «نعم أراك أيها الوغد المتعجرف.. من أخبرك عن والدي؟ هل أنت يا عصام.. هل أخبرته بما حدثتك به أيها الوغد؟»..

أومأ عصام برأسه نافيًا: «لا.. أقسم لك يا سيد سراج لم أتحدث بهذا الأمر مع مخلوق من قبل»..

قاطع رامي حديثهما فرحًا: «هل تروني؟ هل بالفعل تروني؟ هل تسمعوني؟ وأنت يا أميرة.. هل تسمعيني.. وتريني أنت أيضًا؟»..

أومأت أميرة برأسها مبتسمة له: «نعم أراك وأسمعك.. وأشتم رائحتك التتنة أيضًا..».. هنا أخذ رامي يضحك ويصرخ فرحًا ويتقافز يمينًا ويسارًا: «إنهم يروني.. إنهم يروني.. أنا حي.. أنا موجود.. لقد أصبحوا يروني مرة أخرى».. نظر عصام إلى سراج مرتابًا وهو يشير إلى جهة رامي بعلامات الجنون.. فأومأ سراج إليه بالموافقة.. وهنا أخذ رامي يتقافز بكل مكان سريعًا حتى ارتطم بجسد كريم فسقط على الأرض فوقف سريعًا وهو ينظر إليه ممددًا على الأرض وهو مرتاع فصرخ بهم وهو يركض جهتهم: «هيا بنا الآن لنبتعد من هنا قبل أن يعود مرة أخرى للحياة».. فصرخ عليه سراج غاضبًا: «أنت بالتأكيد جنت.. لقد قتلته بيدك الآن فكيف سيعود حيًا أيها الوغد؟ لا تعتقد لوهلة واحدة أنني سوف أتركك تنجو بفعلتك تلك.. لقد تجرأت وقتلت شخصًا أمام ضابط شرطة»..

.. فأمسكه رامي من يده وهو يشده مبتعدًا: «هيا بنا من هنا الآن..
استمع لحديثي إنه سيعود للحياة مرة أخرى إنه يفعلها دائمًا.. لقد قتلته
حتى الآن عشرات المرات ودائمًا ما كان يعود مرة أخرى».. صرخ به
عصام في الحال: «يبدو أنك أصبت بالجنون بالفعل يا رامي»..

قاطعته أميرة بالحال: «لا إنه يستطيع فعلها.. يستطيع أن يعود
للحياة بل يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك بكثير أيضًا».. نظر إليها
سراج وعصام مندهشين: «ماذا تعنين بذلك؟ ماذا رأيت عندما لمست
كريم؟ أخبرينا».. سألها عصام بفضول شديد..

«لا أستطيع أن أعبر عما شاهدته بكلمات.. إنه شيء لا يصدقه عقل»..

حدثهم رامي بلهفة: «لا يهم هذا الأمر الآن سوف أشرح لكم
كل شيء بالتفصيل فيما بعد ولكن يجب أن نبتعد من هنا الآن لا أريد
أن أنسى مرة أخرى ولا أحد يتذكرني.. لا أريد أن أصبح منبوذًا..
هذا أسوأ من الموت ألف مرة.. اتبعوني لقد وجدت مخبأ لا يعلم عنه
كريم شيئًا نستطيع أن نحتمي به.. أو أتمنى ألا يكون يعلمه ويخدعني
كما يفعل.. لا يهم الآن هيا اتبعوني.. تحرك الجميع خلفه وهم يتبعونه
إلا سراج الذي أخذ ينظر إلى جسد كريم الممدد أمامه وهو يفرك جبهته
يحاول أن يعقل حديث رامي ولكنه لا يستطيع.. فعاد رامي مسرعًا
إليه وسحبه من يده بقوة وهو يحدثه محذرًا: «هيا بنا قبل أن يعود»..

تحرك سراج ورائه وهو ينظر إلى جسد كريم خلفه ويشعر بالذهول
مما يحدث..

مرت عدة ساعات على الموقف السابق وبدأ الظلام يتسلل بين جنبات النور ليحتل مكانه بروية ليعلن للجميع انتهاء عشرين يومًا منذ أن بدأ حصار المدينة من الضباب، وأصبحت تلك الساعات البدايات الأولى لليوم الحادي والعشرين من الحصار الذي أصبح تقويماً متداولاً وشائعاً بين أهالي جهينة أقرب من التقويم الميلادي والتقويمات الأخرى المعروفة.. كان هناك شيء ملحوظ في هذه الليلة بشكل خاص.. أجواء التوتر كانت تملأ المكان.. شعور الاضطراب يجتاح الجميع.. شعور بأن هناك شيئاً خاطئاً بالتأكيد سوف يحدث إن لم يكن حدث بالفعل الجميع بلا استثناء اجتاحت تلك المشاعر حتى الحيوانات والطيور التي كانت بالمدينة والتي لم تكف عن الصياح والاضطراب وأخذت الغربان تنعق وهي ترفرف فوق منازل المدينة.. الجميع شعر بالاستياء من تلك الأصوات حتى كريم الذي كان ينظر لها بضيق وهو يلهب الأرض بخطواته السريعة وعلى وجهه علامات الوجوم والتفكير العميق التي لم تؤثر إطلاقاً على وسامته المعهودة.. لم يكن حينها غاضباً من قتل رامي له.. لم يكن مندهشاً من فعل عصام وسراج تجاهه.. ولكن كان كل سخطه أن قامت أميرة تلك المنبوذة بلمسه؛ فهذا كان بالنسبة له من أعظم الأمور التي قد تصل إلى حد الخطايا أن سمح لها بغفلة أن تفعل ذلك.. ولكنه كان يفكر بطريقة كي يتدارك هذا الخطأ الفادح الذي وقع به.. وهداه طريقه إلى شخص واحد كان يضيء كالمصباح في رأسه هو الوحيد الذي سيستطيع أن يستفيد منه تلك اللحظة وهو يتوجه إليه الآن.. عدة دقائق ووصل

إلى منزله الذي كان ملطخًا بعبارات السب والشتائم النابية وموضوع عليه علامات النازية وبعض الرسومات الأخرى وملقى أمامه الكثير والكثير من النفايات والقمامة.. أخذ كريم ينظر إلى المنزل مندهشًا من هذا الأمر.. لم يكن يتصور أن يرى منزل العمدة مازن يحدث به ذلك الأمر أبدًا.. اخترق القمامة بحرص وتوجه إلى باب المنزل الذي كان محطّمًا ودلف إلى المنزل ليجده شبه فارغ من الأثاث وعلى الحائط بعض السباب والرسومات بداخل المنزل وبعض قطع الأثاث محطمة ومتراكمة في أرضية المنزل.. ويبدو أنه تعرض للنهب.. أخذ كريم يقلب في أرجاء المنزل بحثًا عن مازن فلم يجده.. انطلق إلى الغرف بالأعلى ليجدها قد نالها ما نال باقي المنزل من النهب والتحطيم.. ترك الغرف سريعًا ثم هبط عائدًا على درج السلم مرة أخرى ليجد على الحائط لوحة زيتية ممزقة وملقاة على الأرض وعلى الحائط مكان اللوحة جهاز إلكتروني صغير بعض أزرته منزوعة من موضعها ويبدو أن أحدًا ما قد حاول تدمير ذلك الجهاز فلم يستطع.. أخذ كريم يتأمل الجهاز وهو مندهش وأخذ يتلمسه بيده.. وهنا ترامت إلى أذنه بعض الأصوات الخفيفة للغاية.. فشحن حواسه في الحال وأخذ يتسمع بتركيز شديد لتلك الأصوات ليجد أن هناك عدة أصوات لشخصيات كثيرة خافته وهي صادرة من جهة أحد الأبواب بالقرب منه فتوجه إليه سريعًا وهو يفتحه بفضول ليجد أنه حمام قد تم تحطيم محتوياته وهناك مكان واضح لسخان صغير مسروق.. ثم سمع بوضوح أكثر قليلًا الأصوات من خلف إحدى حوائط الحمام.. فاقرب سريعًا وألصق

أذنه جهة الحائط ليسمع الأصوات الصادرة بالتأكيد من هناك.. أخذ كريم يتلمس الحائط بيده فشعر بوجود بعض الفراغ الصغير للغاية بينها فضغط على الحائط بقوة شديدة كادت تحطمه فوجد أن هناك باباً قد فتح ولكن بصعوبة، فضغط بقوة أكثر ليفتح الباب بقوة ليفاجأ بوجوده داخل غرفة سرية مخبأة خلف الحمام.. كانت الغرفة دافئة.. يكسو بعض أركانها الغبار.. بها سرير صغير تراه عندما تدخل الغرفة أمامك.. وبالجهة اليسرى من الغرفة كان هناك حاسب آلي صغير موصل بشاحن كهربائي بسلك طويل.. ومسجل ضخم أعلى دولا ب خشبي متوسط الحجم بجوار الحاسب.. ومقعد مريح مسجى أمام الحاسب يستطيع من يجلس عليه أن يغير من وضعية جلوسه إلى استخدامه كسرير للنوم بسهولة ومازن يجلس عليه.. لم يشعر مازن بوجود كريم نهائياً فقد كان يحمل بيده بعض الصور وهو يمزقها بعنف ويحنق شديد.. اندهش كريم من تلك الغرفة ومن وجود مازن بها وأنه لم يخبره عنها إطلاقاً وأخذ يتسهم ساخراً لأنه كان يعتقد بأنه يعلم أسرار الجميع ولكن اتضح أنه كان على العكس من ذلك تماماً.. أخذ كريم يجول بناظره في الغرفة ليجدها غير مرتبة على الإطلاق ويعلوها الغبار في كل مكان وبها الكثير من الأجهزة الالكترونية بكل مكان على الرغم من صغرها ولكن ما كان يثير الدهشة ليس هذا كله بل ما كان يحدث أثناء ذلك؛ فقد كانت إضاءة الغرفة مطفأة والحاسب الآلي يعمل ومفتوح عليه المئات من الملفات الصوتية التي سجلها مازن لأهل المدينة وجميعها تعمل بنفس الوقت لتصدر أصواتاً نشازاً

متداخلة لا تفهم منها شيئاً ولا تسمع شيئاً مفهوماً سوى الصخب والأصوات الضخمة لعدة أناس يتحدثون في نفس الوقت.. وفي أثناء ذات الوقت كانت تعمل 4 طابعات وتطبع صوراً سريعة لعدد كبير من أهل المدينة وهم يتموضعون بأشكال وبأماكن مختلفة بجهينة وبعضها مع مازن والكثير منها مع عائلاتهم.. وأخذت تلك الصور من كثرتها تتساقط على الأرض وعلى السرير وبكل مكان تقريباً.. كان المشهد سريالياً للغاية وصوت التسجيل الذي يكاد يصيب من يسمعه بالصمم يعلو بالخلفية، وصور أهل المدينة بكل مكان حول مازن وهو يمزق بعضها بعنف وتتساقط الأيدي والوجوه والشفاه الممزقة أسفل أقدامه وهو يرفسها بقوة أسفله ويبدو كأنه يريد أن يمحو تلك اللحظات والذكريات من الوجود وليس من ذاكرته فقط.. اقترب كريم قليلاً من مقعد مازن الذي كان يرتدي فانلته الداخلية مع بنطال منزلي وهو يمزق الصور بعنف..

وهنا انتبه مازن لوجود كريم خلفه فقفز سريعاً مرتاباً وهو يحمل الصور بيده.. وعندما شاهد كريم أمامه تغيرت ملامحه من الغضب إلى الغضب الشديد وهو يفرك بقوة الصورة الممزقة بين يديه: «أنت.. هل لك عين أن تريني وجهك القدر مرة أخرى أيها الخائن؟..»

أخذ كريم ينظر حوله بالغرفة وهو يجول بها سريعاً ليقف ببصره على وجه مازن الذي كانت تعتليه الكدمات الزرقاء وأخذ يتسم بوجهه ضاحكاً: «أهلاً بك.. يا عمدة جهينة.. من الآن سوف أصبح

مساعدك من جديد».. نظر إليه مازن مندهشاً بينما أخذ كريم يتسم
ضاحكاً بخبث شديد..



أثناء ذلك الوقت كان رامي وعصام وسراج بمنزل أميرة بعد أن
رفضت أن تذهب معهم إلى مكان آخر.. وأخذ رامي يتحدث إليهم
ويشرح لهم ما كان يحدث معه بالأيام السابقة.. وأخذ الجميع يستمع
إليه بإنصات حتى انتهى من سرد ما حدث.. فتبعه عصام بسؤاله
بفضول شديد: «إذا هذا الشبح المزعوم الذي كان يخيف المدينة ويبيت
بها الرعب كان أنت!..»

أجابه رامي مبتسماً: «نعم.. إنه أنا.. ولكن لم أرغب بأن أخيفهم
أو أظهر لهم بأني شبح أو ما إلى ذلك.. كل ما هنالك أنني كنت قد
وصلت إلى مرحلة من اليأس جعلتني أتمنى أن يراني أحد أو يتحدث
معي أو حتى يتذكرني.. لقد تم سلب هويتي بالكامل.. لم أكن أعلم
هل أنا حي أم قدمت والناس أصبحت لا تراني بسبب هذا.. كنت
أفعل تلك الأمور حتى أعبر عن نفسي وأشعر أنني مازلت حياً وكنت
أتمنى أن يلتفت الناس لي ويتذكروني.. وبالطبع لم أكن أركز على أهل
المدينة بل كنت أريد أن ألفت نظرك أنت وأميرة والعقيد سراج؛
لأنكم كنتم تعلمون من أنا.. وبعد عدة محاولات نجحت بالفعل
بأن أجعلكم تتذكروني عدة مرات.. ولكن عندما كنتم تتذكرونني

وتعلمون هويتي.. لا أعلم ما يحدث حينها حيث سرعان ما تنسوني
مرة أخرى بعد مرور وقت قليل» ..

ابتسم عصام إلى سراج: «هل رأيت؟! لقد أخبرتك بأنه لا يوجد
أشباح.. لقد كنت على حق»..

أشاح سراج بيديه متعجباً «.. ياليتك كان شبحاً.. لقد كنت أتمنى أن
يكون هناك شبح بالفعل أفضل مائة مرة من مجرد تفكيري بهذا الهراء
الذي تحدثون به.. وكيف يستطيع كريم هذا منذ البداية أن يفعل
ذلك ويجعلنا ننسأك.. يبدو أن هناك شيئاً خاطئاً.. لا يمكن لكريم أن
يمتلك تلك القدرات أبداً.»

أجابته رامي سريعاً: «لا.. إنه كريم أنا متأكد.. لقد أخبرني بنفسه
أنه فعل ذلك بي بل إنه يستطيع أن يفعل أكثر من هذا بكثير.. هو سبب
كل ما يحدث بالمدينة ووراء كل تلك الأمور الغامضة.»

هنا وقف سراج بمكانه في الحال واقترب من رامي: «اممم.. إذاً
أنت كنت تعلم من البداية بأن كريم هو الذي يفعل كل تلك الأمور
ولم تجربنا وجعلتنا نمر بكل تلك المصاعب أيها اللعين»..

رامي مرتبكاً: «لا.. لم أخفِ عنكم شيئاً.. أنا لم أكن أعلم من هو في
البداية.. صدقني.»

أمسك سراج قبضته بقوة: «إذا لم تكن تعلم من هو منذ البداية
فلماذا قتلته أول مرة من قبل؟»..

ابتلع رامى ريقه بقلق وهو يفكر بإجابة مقنعة لسراج فلم يستطع..
فألقي سراج بيديه غاضباً: «أنا أعلم منذ البداية أنك كنت تخفي عنا
كل شيء.. وأنت تعلم معظم ما يحدث بالمدينة إذا لم تكن تعلمها
كلها.. وأنت تعلم لغز ظهور جثتك ولغز الذهب وكل ألغاز تلك
المدينة اللعينة»..

انتاب رامى الخوف الشديد وسراج يضيق عليه الخناق بأسئلته
المحترفة التي تصدر من عقل محقق مخضرم مثله وأنه يعلم بأنه يخفي
شيئاً.. ابتلع ريقه مرة أخرى وأخذ يدافع عن نفسه: «صدقني أنا
لم أعلم أي شيء من قبل ولكن الآن سوف نتعاون معاً لكي نخرج من
تلك المدينة ومن تحت قبضة كريم».

أوما سراج برأسه رافضاً: «لا.. لن أعتبرك عضواً بمجموعتنا مرة
أخرى مادمت لا تخبرنا بكل الحقيقة وبكل ما تعلمه عمّا يحدث بجهينة..
أنت منذ اليوم ليس لك مكان بيننا.. وستظل منبوذاً هكذا للأبد»..

أمسك به رامى مترجياً وهو خائف بشدة: «لا.. أرجوك يا سراج
باشا لا تفعل ذلك معي.. لن أستطيع أن أعيش منبوذاً منسياً بين
الجميع وبلا وجود هكذا.. أرجوك.. أقسم لك بأني لم أخف عنك
شيئاً آخر»..

هنا نهرته أميرة بغضب شديد: «لا.. أنت تخفي عنهم كل شيء
يا رامى.. أخبرهم الحقيقة، ولا تنس أني شاهدت كل شيء من قبل»..

هنا نظر إليها رامي غاضباً وهو يحاول أن يدافع عن نفسه: «ماذا تقولين يا أميرة؟ لقد أحببتك من كل قلبي.. هل تريدني أن أعيش منبوذاً للأبد؟!»..

«أنا لا أريدك أن تكون منبوذاً.. أنا أريد أن أراك صادقاً.. أخبرهم بما حدث وسوف يستمعون إليك ويصدقونك بعد ذلك.. أخبرهم يا رامي.. أخبرهم بالحقيقة وإلا سوف أخبرهم أنا، وحينها حتى أنا لن أجعلك تراني مرة أخرى لأنني لا أريد أن أرتبط بكاذب أو مخادع كما كنت.. أريدك أن تتطهر من كل ما سبق وتسرد لهم الحقيقة كاملة وتذكر أنني أعلم بالفعل كل شيء.»

أخذ رامي ينظر إلى ملامحها المليحة التي جعلت قلبه يذوب كما يذوب الملح بالماء الفاتر.. لقد علم في تلك اللحظة بأنه لن يستطيع أن يجعل هذا الكائن الرائع يشعر بالضيق منه.. إنه وصل لمرحلة من العشق جعلته كالعبد المطيع لا يستطيع مخالفة سيده لكي يرضى عنه.. فأوماً على الفور برأسه وهو يحدثهم بيأس: «سوف أخبركم بكل شيء وبكل صدق.. لقد بدأ هذا الأمر معي منذ 6 أشهر تقريباً.. عندما سافرت إلى المغرب.. أو قبل أن أسافر.. سوف أحكي من البداية.. أنا...»

* * *

(مهرجان الضحك)

لقد كنت وسط أيام سعدي تلك الفترة.. حيث خلال تلك الأيام تمت ترقيتي بالعمل عدة مرات وأصبحت صحفياً معروفاً وذا شأن عمّا كنت منذ ثلاث سنوات وتغيرت مكانتي في الصحيفة التي أعمل بها وأصبحت أقرب إلى مالكها وإلى رئيس تحريرها، وكان الصحفيون الآخرون يتوددون إلي لكي أصبح طريقاً لهم يعبرون به إلى ذوي النفوذ بالجريدة، وكنت أعلم أنهم يتملقونني لمصلحتهم ولكن طالما راق لي هذا التملق دائماً؛ فالجميع يجب أن يتملقه الآخرون مهما كان يعتقد غير ذلك.. المهم.. كنت في خضم سبق صحفي كبير عن قضية كبيرة لأحد الوزراء؛ بشكل أدق وزير التموين حينها.. ويبدو أن هناك شخصاً ما أراد فضحه وإبعاده عن طريقه ولهذا أرسلت لي بعض الأوراق التي تدينه وفضائح كاملة بالوثائق والمستندات وبالفعل لم أكذب خبراً وقلت بحملة قوية عليه ظهر صداها بالإعلام في أقل من ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع تم ما أرادوه حيث تم عزل هذا الوزير من منصبه.. وعلى الرغم من كل تلك الفضائح والمستندات التي تدينه وطرده من الوزارة فإنه لم يتم توجيه أي اتهام رسمي له حتى الآن.. أي إنني قد تم استخدامي من قبل أحدهم لتحقيق منفعة شخصية له ولكنني لم أعبأ كثيراً لأنني إذا قمت بالرفض فالمئات غيري سوف يفعلونها بكل

تأكيد.. ارتفعت أسهمي بالجريدة مرة أخرى وذاع صيتي بين الوسط الصحفي والإعلامي ولمع اسمي ونجمي في أوساط علية القوم كما رغبت دائماً، ولكن حدث أمر غريب لم أتوقع أن يحدث لي أبداً.. لقد شعرت بالمرض.. ليس مرضاً بدنياً بالتأكيد ولكنه مرض عقلي.. لا تفهموني خطأ ليس مرضاً عقلياً بمعنى الجنون ولكن شيء آخر قد يبدو بسيطاً ولكنه كان كارثة بالنسبة لي.. لقد أصبت بمرض النسيان.. أصبحت أنسى كثيراً.. أنسى مواعيدي التي أحدها.. أنسى مفاتيح سيارتي.. أنسى هاتفي.. أنسى أسماء رؤسائي.. ولكم أن تعلموا أنه من هول أن تنسى اسم رئيسك بالعمل أنه شيء أقرب إلى أن تحطم قاربك وأنت تعبر المحيط.. أصبحت تحدث لي المشاكل تلو المشاكل لم أكن أتوقع أن الإنسان بدون ذاكرته يصبح أحق هكذا لقد تعلمت درساً مهماً وهو أن بعض الأشياء التي نستعين بها قد تكون هي مفتاح الباب لهلاكنا بالفعل.. لقد خشيت أن أكون قد أصبت بالزهايمراً هذا المرض الذي ذاع صيته منذ فترة قريبة.. هذا المرض الذي يجعلك تنسى كل شيء حتى اسمك أو حتى أنك قد قمت بتناول الطعام منذ لحظات فتذهب لتأكل مرة أخرى وأشياء أخرى تجعلك أشبه بالطفل الصغير بهذه الدنيا.. لقد خشيت على نفسي بشدة.. وذهبت إلى أكثر من طبيب لكي أجري بعض الفحوصات والأشعة المقطعية على رأسي وجميعهم أجابوا بأنه لا توجد أي أمراض عضوية لدي وأن سبب ما يحدث لي هو شيء نفسي أو بسبب شيء آخر يجهلونه وطمأنوني بأن مرض الزهايمر لا يأتي إلا بعد أن يتعدى الإنسان العقد السادس من عمره.. لقد اطمأنت بأنه ليس لدي مرض الزهايمر ولكنني أصبت بخوف

أكبر.. لماذا على الرغم من أنني لا أشتكي من أي مرض عضوي وعلى الرغم من هذا يصيبني النسيان كثيرًا؟! ما الذي يحدث لي؟! لقد انتابني الخوف والفرع لأنني أرى ذلك دائمًا بالأفلام والدراما البطل لا يشتكي من شيء ولكنه فجأة يصبح لديه مرض نادر لا يأتي إلا للإنسان واحد فقط في هذا العالم والذي يكون دائمًا هذا البطل سيئ الحظ.. ولكنني لست بطل فيلم ما.. فلماذا يحدث ذلك معي؟! ذهبت إلى أكثر من طبيب نفسي منهم من أخبرني بأن هذا الأمر بسبب عقدة قديمة لدي من حب ما لفتاة من المرحلة الابتدائية وآخر يخبرني بأنه بسبب صدمة نفسية لأن والدي كان يضربني عندما كنت ألعب الكرة ولا أستذكر دروسي.. وآخر يخبرني بأنه بسبب أنني لم أتزوج حتى الآن وأن هذا يؤثر على عقلي الباطني والكثير الكثير من الهراء الذي لا أعتقد بوجوده أصلًا بالحياة الحقيقية.. كنت قد كونت اعتقادًا يصل إلى حد اليقين بأن جميع الأطباء النفسيين نصابون ويملئون رأسنا بالهراء لبيتزوا أموالنا.. حتى وجدت طبيبًا واحدًا فقط.. كان يمتلك العلم بالفعل وأثبت لي أن التعميم خاطئ وأن كثرة المضللين -للأسف- قد توهمنا بعدم وجود علم ولكن من يمتلك العلم يبرز بسهولة بين كل هؤلاء المدعين.. لقد قام بعمل أكثر من اختبار معي وأخبرني أن مشكلتي ليست حتى نفسية؛ كل الأمر أن مستوى هرمون بعقلي أقل قليلًا من المعتاد بسبب الإرهاق وعدم النوم وهذا سبب عدم التركيز الذي يصنع اضمحلالًا كبيرًا في الذاكرة طويلة الأمد.. وشرح لي بأن الذاكرة تنقسم إلى ثلاث مراحل: الأولى هي سماع المعلومة عن طريق الحواس الخمس ثم تحول تلك المعلومات إلى الذاكرة القصيرة التي تحفظها لوقت قصير

ثم يقوم العقل بتحويلها إلى الذاكرة طويلة الأمد التي تحتفظ بتلك المعلومة للأبد في ذاكرتنا ولكن كل هذا يرجع إلى نسبة التركيز على تلك المعلومات التي تخبر العقل بأن تلك المعلومة هامة فيحفظها في الذاكرة طويلة الأمد أو إذا لم يتم تنبيه العقل من خلالها يعتقد بأن تلك المعلومة ليست هامة فيمسحها من الذاكرة.. هذه هي آلية عمل الذاكرة بشكل مبسط أو كما فهمتها منه.. وأن مشكلتي تتلخص في عملية التركيز التي لا تجعل عقلي يعتقد بأهمية تلك المعلومات فأنساها سريعاً وقام بإعطائي بعض الدروس العملية التي تزود نسبة التركيز وبعض أنواع الطعام التي تزيد من التركيز العقلي للإنسان مثل الموز والزبيب ومضغ العلكة وبعض الأمور البسيطة التي فعلتها ولقد كانت دهشتي كبيرة جداً عندما لمست تحسناً ملحوظاً في تركيزي وذاكرتي أيضاً بفترة صغيرة للغاية.. لقد داومت على تلك التدريبات لفترة قصيرة وبفضلها أصبحت ذاكرتي قوية لدرجة تجعلني أحفظ أرقام الهواتف بعقلي إذا رغبت وأرقام السيارات والعناوين المختلفة وأي معلومة أرغب بحفظها.. لقد تغيرت حياتي للأحسن في فترة وجيزة للغاية.. عندما تنبهت لأهمية تدريبات التركيز والذاكرة تلك.. قررت أن أجعلها عادة يومية لدي.. والحمد لله بعد قلق وحيرة لأيام كثيرة عدت إلى عملي سريعاً وأخذت وضعي بين زملائي ورؤسائي بدون أي مشكلة تذكر.. وكنت أقوم بعمل تدريبين يوميًا بمكتبي أثناء عملي وهما تدريب الوردية الحمراء وتدريب القراءة بالمقلوب.. وتدريب الوردية الحمراء هذا عبارة عن إحضار وردة حمراء والجلوس جلسة اللوتس الشهيرة والنظر إلى تلك الوردة بكل تفاصيلها ثم تخيلها

بذاكرتك فيما بعد ولعدة دقائق.. هذا التدريب ينمي قدرات كثيرة جدًا أهمها التخيل والإبداع والتركيز وتقوية الذاكرة.. والتدريب الآخر كما يظهر من اسمه هو قراءة أي شيء بالمقلوب، تفتح أي كتاب أو صحيفة وتمسكها بالمقلوب بيدك وتقرأ السطور من خلالها ستجد صعوبة في البداية ولكن بعد ذلك ستجد أنك تقرأ بسهولة شديدة كما تقرأ أي شيء أمامك وهذا التدريب يقوي التركيز بشكل قوي للغاية.. وهناك عدة تدريبات كثيرة مفيدة بدرجة لا تتصورونها ولكني كنت أستخدم هذين التدريبين لأنني كنت أقوم في نهاية كل تدريب بإعطاء الورود الحمراء إلى الفتيات بعد انتهاء التدريب فأكسب قلوبهن بسهولة.. والتدريب الآخر كان سهلاً للغاية لأفعله في أي وقت وبأي مكان.. هنا نظر رامي إلى الجميع فوجد أميرة تنظر له شزراً وتكاد النيران تخرج من عينيها.. فشعر رامي بأنه قد أفصح عن معلومات أكثر من اللازم فابتسم ببلاهة وهو يحدثها: «هذا بالطبع كان بالماضي قبل أن أجدك يا أميرة.»

أبعدت أميرة عينيها عنه بدلال شديد ونظرت إلى جهة أخرى.. شعر رامي بأن قلبه كاد يتهشم من تلك النظرة الغاضبة تجاهه.. وحاول أن يتحدث إليها.. فصرخ به سراج بحنق شديد وهو يشيح بيده بعصبية: «دعك من هذا الآن.. أكمل.. أكمل..».. شعر رامي بالاضطراب من غضب سراج فحاول تهدئته وهو يشير إليه بيديه:

«حسنًا.. حسنًا.. لا تغضب.. سوف أكمل.. لقد قمت بسر د كل تلك الأمور تمهيدًا لحدوث شيء فيما بعد.. فقد كنت في أحد الأيام بمهمة خارج الصحيفة وعدت بعد ذلك لكي أتابع المقالات وأمارس

تدريباتي اليومية كالمعتاد وأخذت أقرأ صحيفة أمامي بالمقلوب كما أفعل دائماً.. دلف إلى مكتبي سريعاً السيد وجيه أمين مسئول القسم الفني بالجريدة دون أن أشعر.. وظل يناديني ولم أفق من تركيزي إلا بعد عدة مرات فقد كنت منهمكاً بالقراءة بقوة لأن القراءة بتلك الطريقة تستلزم تركيزاً كبيراً بالفعل.. تنبهت له فاعتدلت بجلستي ورحبت به بحرارة.. طلبت له قهوة وأخذنا نتحدث معاً عن بعض الأمور وسألني لماذا يراني دائماً أمسك الأوراق بالمقلوب، فابتسمت محرّجاً وشرحت له الأمر كله فبدأ عليه عدم اقتناعه بحديثي فقامت في الحال بقراءة عدة مقاطع من مجلة يحملها بالمقلوب ووجدت علامات الذهول الشديد على وجهه وأخذ يتندر على هذا الأمر لفترة طويلة.. أكملنا حديثنا الودود لما يقارب الساعة، ثم بادرنى بسؤال بنهاية الجلسة قبل أن ينصرف: «هل ترغب بالسفر معي؟»..

«ماذا؟ هل ستسافر؟.. ستسافر إلى أين؟.. والعمل ماذا ستفعل به؟»..

ابتسم سريعاً وأجابني: «سوف أسافر للعمل.. سوف أذهب إلى المغرب لتغطية مهرجان الضحك هناك.»

«ماذا؟ مهرجان الضحك؟ ما هذا؟ أول مرة أسمع به»..

«إنه مهرجان للضحك كما يبدو من اسمه وهو تجمع كبير لنجوم الضحك والكوميديا من كافة أنحاء العالم يقام منذ عدة سنوات بدولة المغرب الشقيق.. وسوف أذهب لتغطيته وعمل عدة لقاءات مع ضيوفه.»

«أنت ستذهب بنفسك؟ لماذا لا ترسل محرراً أو صحفياً بدلاً منك
وتريح نفسك؟»..

«أيها الأحمق.. هل هناك شخص عاقل سوف يترك سفراً لدولة
رائعة مثل المغرب وتكاليف السفر بأكملها على العمل ويرسل شخصاً
آخر بدلاً منه؟!»..

«لهذه الدرجة المغرب جميلة لكي تذهب إليها بنفسك
برحلة عمل؟»..

«أوووه إنك تتحدث هكذا لأنك لم تزورها من قبل.. هاهي
لاحت فرصتك لكي تزورها.. أخبرني.. هل ستأتي معي لكي أحضر
لك تذاكر السفر والتأشيرات أم لا؟»..

أخذت أفكر قليلاً وأنا متردد.. أنا لا أحب الأمور التي أكون غير
محضر لها مسبقاً ولكن اسم مهرجان الضحك.. والسفر إلى المغرب
أثاراً شغفي وقلت لنفسي: لم لا؟ لا يوجد فيما أفعله هنا جديد عمّا
أفعله دائماً.. فأومأت برأسي مبتسماً: «حسناً.. سوف أذهب معك..
فرصة جيدة لكي أقضي بصحبتك بعض الأيام»..

«جيد للغاية.. على بركة الله.. أعدك بأنك سوف تعيش أياماً
لن تنساها بحياتك أبداً»..

قال تلك الكلمات وهو يصابحني وينصرف خارجاً.. ولقد كانت
نبوءته تلك صحيحة للغاية فتلك الأيام لن تنمحي من ذاكرتي أبداً..
.. مرت عدة أيام وسافرنا أنا والسيد وجيه معاً إلى دولة المغرب..
هبطت طائرنا بمطار محمد الخامس بالعاصمة الدار البيضاء.. لفت

انتباهي حينها أن جميع من قابلنا لقينا بسن ضاحكة وبوجه بشوش عندما علموا أننا مصريون.. ركبنا سيارة تاكسي بيضاء تدعى جراند تاكسي وأثناء ذهابنا إلى الفندق وجدت عدة سيارات حمراء اللون صغيرة علمت أنها سيارات أجرة هي الأخرى واسمها بُتيت تاكسي وأنها سيارات أجرة مثل الجراند ولكنها أصغر قليلاً ولا تذهب إلى المطار.. انطلقنا بشارع محمد الخامس الذي يعتبر من أهم الشوارع بمدينة الدار البيضاء وأخذت معالم المدينة تجذب انتباهي بين الخليط المعماري الرائع لأحياء من الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات وأيضاً بعض العماير الضخمة التي تقارب ناطحات السحاب.. وهنا شاهدت مبنى ضخماً للغاية يتم بناؤه.. علمنا من سائق الجراند تاكسي بأن هذا المبنى هو برج دبي كازابلانكا تاورز وهو عبارة عن برج ضخم أشبه بمجمع متكامل للأعمال والتسوق والسياحة والترفيه، يتكون من فندق فاخر ومجمع للشقق المفروشة والسكنية، وهو يمتاز بتصميم هندسي فريد، مما يتوقع معه أن يصبح فور إنجازه أحد أروع المعالم على مستوى شمال إفريقيا.. أخذنا نستمتع بحديث السائق وهو يشرح لنا بعض المعالم المشهورة بمدينة الدار البيضاء ومنها مسجد الحسن الثاني الذي يفتخر أهل المغرب به بطول البلاد وعرضها وهنا طلب منه السيد وجيه أن يذهب بنا إليه لكي نصلي به ونشاهد معالمه.. وبالفعل توجهنا إليه ولكم اندهشت مما شاهدته بينما أخذ السيد وجيه يشاهدني مبتسماً وهو يشرح لي معالم المسجد الذي علمت أنه زاره من قبل أكثر من مرة ولكم كان المسجد رائعاً بالفعل! فمسجد الحسن الثاني هو أكبر مسجد في المغرب وسابع أكبر

مسجد في العالم، مئذنته أندلسية الطابع ترتفع 210 أمتار فوق الأرض وهي أعلى بناية دينية في العالم وشيدت صومعة مسجد الحسن الثاني طبقاً للمعمار المغربي الأندلسي، تمتاز بالرخام الذي يكسوها، وهي مزودة بمنارة بثلاث تفافيح نحاسية. ويشد انتباهك ليلاً شعاع ليزر موجه من قمته نحو الكعبة الشريفة لبيان اتجاه قبلة المسلمين، يصل مداه إلى 30 كلم. توشي الزخارف المنقوشة على الواجهة الرخامية لصومعة المسجد بالصوامع المرينية. أما الألواح المزينة للجهة العليا للصومعة فهي مكسوة باللونين الأبيض والأخضر، وهما يشيران إلى ألوان السلم والحياة.. قمنا بالصلاة بداخل المسجد واشترينا بعض التذكارات من الباعة حوله وأخذنا بعض الصور التذكارية أمامه ثم ركبنا سيارة أجرة أخرى واتجهنا إلى فندقنا الذي حجزه السيد وجيه بمنطقة كورنيش عين الزياب تلك المنطقة الرائعة التي تمتد على طول الشاطئ وهي واجهة بحرية تضم سلسلة مسابح وفنادق ومقاه ومطاعم جميلة ويتمتع السائح فيها بكل ما يطلبه من شمس ورمال وشواطئ وكل ما يشتهي من المناظر الطبيعية.. لقد استمتعت بالفعل بتواجدي في تلك المنطقة هذا اليوم وكانت رحلة ممتعة ولم أتوقع أنني سوف أشعر بتلك الراحة بدولة المغرب التي أصبحت بلدي الثاني.. أخذنا نستمع بالمشاهد الرائعة والدفء والاستقبال الحار من أهل المغرب لنا لمدة يومين حتى أتى اليوم الثالث وذهبنا إلى مسرح محمد السادس لكي نغطي مهرجان الضحك الدولي المقام هناك.. ولم أفعل شيئاً سوى تتبع السيد وجيه؛ لأنه هو الذي كان لديه الخبرة والباع الطويل هناك.. أخذنا نصور المهرجان ونغطي أخبار الفنانين

والحضور من جميع أنحاء العالم وتعرفت من خلال ذلك المهرجان على عدة فنانيين كومبيين رائعين لم أخطأ بمتابعتهم من قبل للأسف مثل السيدة «دونيا بوتازوت» والسيد «عزيز حطاب» و«جلیلة التلامي» والشاب الرائع «رشيد رفیق» ومجموعة أخرى كبيرة من النجوم الذين كنت أجهلهم وأخذنا نتحدث معهم لساعات طويلة عن مشاكل الفن بشكل عام والكوميديا بشكل خاص في الوطن العربي وأمور كثيرة لا يوجد وقت لذكرها الآن.. مر اليومان الأول والثاني بطريقة ممتعة واعتيادية حتى أتى اليوم الثالث للمهرجان، كنت أتابع العروض باهتمام وفضول وأسجل بعض الملاحظات على هامش المهرجان لكي أساعد السيد وجيه بعمله.. لم تمض فترة طويلة حتى وجدت السيد وجيه يقف بجواري ومعه فتاة شديدة الجمال صافحتني وهو يعرفها بي وأخبرني أنها سيدة أعمال مغربية تدعى عائشة المهدي.. وأنها سيدة أعمال مشهورة بمدينة الرشيدية وأنها تحضر المهرجان منذ عدة سنوات ولها استثمارات بمجال قطع غيار السيارات بعدة دول ومنها مصر.. فصافحتها بحرارة وأنا أتعجب كيف لسيدة جميلة مثلها أن تعمل بمجال مثل قطع غيار السيارات.. أخبرتني أنها تعمل بعمل العائلة منذ عدة عقود وهم يتاجرون بالسيارات وقطع غيارها.. هنا أشار إلي السيد وجيه: «لقد حدثت السيدة عائشة عنك يا رامي وأخبرتها أن لديك علاقات ومعارف كبيرة بالسياسيين ورجال الشرطة بمصر على عكسي أنا جميع معارفي وعلاقتي من الفنانين.. وهي تريد منك خدمة».. اندهشت من طلب وجيه المفاجئ هذا ولكنني ابتسمت لهما على أي حال: «مُريني يا سيدتي.. كيف أستطيع مساعدتك؟»..

بادلتنى الابتسامه وهي تومئ لي برأسها: «أشكرك يا مستر رامى.. هو طلب سخيف قليلاً ولكنى لا أذهب إلى مصر كثيراً للأسف ولذلك أحتاج مساعدتكم..».. أجبتها في الحال: «ما طلبك؟ إذا كنت أستطيع مساعدتك به سأفعل دون تردد..»..

«حسنًا.. إن جدي -رحمة الله عليه- كان يذهب إلى مصر كثيراً للسياحة وللعمل أيضاً، وكان له صديق رسام مشهور بمصر يدعى مدحت فراج.. هل سمعت عنه؟»..

«لا للأسف.. لم أسمع عنه من قبل»..

«حسنًا.. لا يهم.. إنه كان في رحلة هو وجدي منذ سنوات بعيدة وتاها بالصحراء وماتا رحمة الله عليهما»..

رددت أنا ووجهه بعض الأدعية لهم: «رحمة الله عليهما.. رحمهما الله»..

تابعت حديثها: «رحمهما الله.. لقد ظل والدي يبحث عن جدي كثيراً لعدة سنوات بمصر وصحرائها وذهبنا إلى أحد البدو الذين كانوا مع أبي برحلته وذهبوا يبحثون معنا لعدة أشهر لكن لم نعثر لهما على أي أثر إلا سيارتهما وكان بها بعض حاجياتهما.. وهنا أقنعنا أهل البدو بأنهما بالتأكيد قد ضلوا بالصحراء وماتا واختفت جسدهما أسفل الكثبان الرملية أو التهمهما أحد الضواري بالصحراء.. لقد اقتنعنا جميعاً بأنهما ماتا بالفعل.. مرت سنوات طويلة بعد ذلك الحادث وفوجئنا بأن أحد أقارب البدوي الذي كان مع جدي قد حضر إلينا بالمغرب وسلمنا

بعض الحاجيات التي كانت تخص جدنا لأنهم وجدوا رفاتهما فجأة مع أحد الاكتشافات بالصحراء بمصر منذ فترة طويلة»..

هنا سألتها بفضول: «اكتشاف ماذا؟»..

«للأسف أنا لا أعلم التفاصيل لأن هذا الأمر حدث منذ فترة طويلة.. كل ما هنالك أنه بعد ظهور تلك الأشياء مرة أخرى وأخذ والدي لها من ذلك البدوي أخذ يشعر بالحزن الشديد لأنه كان يتمنى أن يكون والده مازال حيًا بمكان ما لكن بعد أن تأكد من وفاته أصيب بالمرض وظل ملازمًا الفراش لفترة طويلة.. وقمت أنا بمتابعة أعمال العائلة من حينها.. المهم حتى لا أطيل عليك.. والدي عندما قام بفرز تلك الأشياء التي وجدوها مع رفات جدي وجد أن بعضها لا يخص جدي بل يخص صديقه الرسام مدحت فراج.. وأنه يجب أن يرسل تلك الأشياء إلى أهله بمصر حتى نعيد الحق إلى أصحابه كما يقول.. ومن حينها وأنا أحاول الذهاب إلى مصر لكي أبحث عن أهل السيد مدحت فراج فلا أجدهم وأيضًا نظرًا لكثرة مشاغلي لا أجد وقتًا لكي أتفرغ للبحث عنهم ووالدي مازال يصر كلما شاهدي بأن أرسلها إلى أهله.. لقد قمت بإحضارها إلى السفارة المصرية ولكنهم أعادوها إلي بعد عدة أشهر وأخبروني أنهم لم يستدلوا له على عنوان.. ولهذا قررت أن أستغل معرفتي بالسيد وجيه بأن أطلب منه أن يساعدني بالبحث عن مدحت هذا ولكنه أخبرني أنه لن يستطيع أن يساعدني وأخبرني أنك ممكن أن تساعدني»..

ابتسمت لها في الحال: «هذا أمر يسير.. إن الشرطة المصرية تستطيع العثور على أي شخص.. لا تقلقي.. هذا أمر يسير للغاية... ولكن ما هي تلك الحاجيات؟»

«بعض المذكرات والأوراق والرسومات الخاصة به.. سوف أكون شاكرة لك إذا ساعدتني بتحقيق هذا الطلب.. لا تعلم كم سيفرح أبي بهذا الأمر إذا تحقق وسوف أكافئك بأي مبلغ تطلبه»..
«أفضل مكافأة لي يا سيدتي أني قد حظيت بمعرفتك.. أنا رهن أمرك بأي وقت.»

وهنا صافحتني وهي فرحة بشدة: «أشكرك.. أشكرك يا سيد رامي.. لقد أنقذتني من ورطة كبيرة، لدي عمل بكندا وكنت سوف أؤجله حتى أسافر إلى مصر لأبحث عن مدحت هذا.. ولكنك سترجيني من هذا العناء.. أخبرني كيف سترسل لك حاجياته؟».

تحدث إليها وجيه بالحال: «أنا سوف أعطيك عنوان الفندق الذي نقيم به.. لا تقلقي..».. ابتسمت لنا شاكرة وانصرفت مبتعدة.. بعد هذا قمنا بقضاء سهرتنا كما هو المخطط.. وبصباح اليوم التالي كنت أجلس في غرفتي بالفندق وقت الظهرية أمارس تدريب الوردية الحمراء الخاص بالتأمل والتدريب وأنا بتركيز شديد لم يقطعه إلا طرق على باب الغرفة.. تركت التدريب ووضعت الوردية الحمراء على المنضدة أمامي وذهبت سريعاً إلى الباب لأجد شخصاً من الفندق يعطيني طرداً مكتوباً عليه اسمي فقممت بأخذه وذهبت بفضول إلى السرير وفتحته لأجد رسالة من عائشة المهدي تشكرني بها وتخبرني

بأنها أرسلت الحاجيات الخاصة بمدحت فراج.. قمت بوضع الرسالة على السرير وأخذت أنشر محتويات الطرد بجواري لأجد كراسات رسم كبيرة مهترئة و6 أجنداث كبيرة الحجم بألوان مختلفة مكتوب على بعضها أجندة عام 1984 وأخرى 86 وأوراقها صفراء للغاية تظهر مدى عبث الزمن بها.. أخذت أقلب بأوراقها سريعاً لأجد كتابات كثيرة عليها بعضها بخط جيد ومفهوم والكثير منها بخط يكاد يكون ألياً.. حيث أصبحت الخطوط والكتابات غير مفهومة.. ظللت أعبث بالأوراق قليلاً لأجد أي شيء يدل على هذا الرسام الغامض فلم أجد.. أمسكت هاتفي وقمت بالبحث على الإنترنت عن الرسام مدحت فراج فلم أجد أي شيء عنه.. ظللت أبحث قليلاً فلم أجد أي شيء يذكر إلا خبراً صغيراً بمدونة مجهولة تتحدث عن الفن ذكرته بشكل سريع أنه كان رساماً متميزاً ولكنه اختفى فجأة بمنتصف الثمانينيات وبعد ذلك وجدوا رفاتة بالصحراء عام 2002 وأكثر من ذلك لم أجد أي شيء.. فابتسمت وأنا ألقى الهاتف من يدي: «يبدو أن مدحت فراج هذا لم يكن هناك أي شيء مثير بحياته إلا نهايته..».. قررت أن أعطي تلك المهلهلات إلى أحد معارفي بالشرطة ويبحث عنه هو وإن لم يجده لا يهم فقد فعلت ما وعدت به وانتهينا.. قمت بوضع المجلدات بجوار بعضها على المنضدة وهنا سمعت صوت شيء يسقط على الأرض فتلفت إليه سريعاً لأجده قطعه بيضاء صغيرة مثل الطباشور.. تعجبت من وجودها في الفندق.. أمسكتها بيدي وكان ملمسها بارداً أقرب إلى المعدن فوضعتها بلامبالاة بجوار باقي أخواتها من المهلهلات وذهبت إلى التدريب مرة أخرى.. أخذت وضع جلسة

اللوتس من جديد وأمسكت الوردة الحمراء بيدي اليمنى وأخذت أتأمل بها بتركيز شديد.. جميع التفاصيل.. ثنيت أوراقها.. الأشواك الصغيرة على ساقها الخضراء النضرة.. رائحتها الخفيفة التي يميزها الأنف بسهولة.. الورقتان الخضراوان بجانب ساقها.. الخطوط الصغيرة ما بين تلك الأوراق.. أدق أدق التفاصيل التي تخيلها كنت ملتمًا بها وأصبحت بالنسبة لي شيئًا سهلًا للغاية.. ثم وضعت الوردة بجواري وأخذت أضرم أصابعي وأشبك أناملي وأخذت نفسًا قويًا ثم أخرجته ببطء وأخرجت معه جميع توترتي وهمومي وبدأت بالتركيز الشديد بعقلي.. أنا بمكان فارغ الآن لا يوجد به إلا الوردة الحمراء وجميع ما حولي أبيض اللون.. فقط الوردة الحمراء أمامي بجميع تفاصيلها التي تخيلتها من قبل أقوم بلفها لكي أنظر إلى جميع حوافها وتفاصيلها... ها أنا الآن أشتمُّ رائحتها بسهولة.. أتلمس ملمسها بيدي.. أداعب أوراقها الصغيرة بأناملي.. أفعل ذلك كله من خلال تخيله بعقلي.. شعرت أن التدريب تم بنجاح.. فتحت عينيَّ سريعًا وأمسكت بالوردة الحمراء وأخذت أنظر إليها لكي أرى كيف تخيلتها وهل كان تخيلي دقيقًا أم لا، وكلما كانت التفاصيل التي تخيلتها دقيقة كان التدريب ناجحًا وهنا شعرت بالفرح الشديد لأنه ولو أول مرة منذ أن قمت بتدريب الوردة هذا قد تخيلت جميع تفاصيلها بالضبط كما كانت بالحقيقة.. لقد كنت فرحًا بشدة.. أخذت أصرخ وأنا أنعت نفسي بالعبقريّة والذكاء الشديد وشعرت برضاء كبير عن نفسي.. وقررت أن أكافئ نفسي بأكلة طعام فاخرة من الفندق بمناسبة نجاحي المبهر بتدريب اليوم.. قمت بوضع الوردة على المنضدة وذهبت إلى

الهاتف وطلبت وجبة غداء فاخرة.. بعد أن انتهيت أغلقت الهاتف فرحًا وذهبت إلى الحمام وأخذت حمامًا دافئًا لمدة 15 دقيقة تقريبًا.. ثم سمعت صوت طرق على باب الغرفة فارتديت ملابسني وفتحت الباب لأجدهم احضروا الطعام الذي طلبته.. جعلتهم يدخلونه الغرفة وكافأتهم ببعض الإكرامية الجيدة ثم ذهبت إلى جهة السرير وأنا أجزع عربة الطعام لكي أتناوله وأنا جالس على السرير لأشاهد التلفاز.. فضغطت بقدمي على شيء ناعم أسفلها.. رفعت قدمي سريعًا ونظرت إلى ما دهسته وهنا فوجئت بأنها الوردة الحمراء التي كنت أتدرب بها.. أمسكتها بيدي وأنا متعجب كيف سقطت من على المنضدة إلى هنا.. ثم قمت بوضعها على المنضدة مرة أخرى وهممت بالانصراف ولكن ما شاهدته جعلني مصدومًا.. لقد وجدت ورتين حمراوين على المنضدة.. أمسكت بالوردة الحمراء التي كانت على الأرض ونظرت إليها وأنا مندهش.. ثم أمسكت بالوردة الأخرى وهنا فجأة تلاشت الوردة من بين يدي.. نفضت يدي فزعًا وأنا اصرخ مرتاعًا: «ما هذا بحق الجحيم؟! ما الذي حدث؟! لقد اختفت الوردة بين يدي.. لا أعلم كيف اختفت.. أنا لا أتذكر من البداية بأني أحضرت ورتين لتدريب هذا اليوم.. لقد أحضرت وردة واحدة فقط وأستخدمها منذ ثلاثة أيام بتدريباتي.. جلست على السرير وأنا مصدوم مما حدث.. هل كنت أتوهم بأن هناك ورتين أم كانت وردة واحدة؟ لم أعلم ولكن هذا الموقف جعلني أشعر بعدم الارتياح.. ظللت أفكر كثيرًا فيما حدث ولكن لم أهتم إلى شيء.. وهنا انتابني الجوع فتركت أمور العقل وذهبت إلى الطعام وأخذت أتناوله باستمتاع شديد.. انتهيت

من الأكل وجلست أشاهد التلفاز لفترة وجيزة وهنا شعرت بمفعول الطعام يتسلل إلي وبدأت جفوني تشعر بالثقل.. تركت نفسي إلى سلطان النوم لأغفو قليلاً.. أنا أعلم بأنني لن أنام بالكامل ولكنني سأظل مسترخياً ما بين النوم واليقظة لفترة قصيرة.. هذه الحالة طالما لازمتني بعد أن أتناول الطعام وأسترخي على الأريكة.. أصوات التلفاز تصل إلى أذني ولكنني غير مهتم وبدأت أشاهد بعض الأحلام بتلك الغفوة الصغيرة.. لقد حلمت أنني نائم على سرير أبيض كبير للغاية وتتساقط علي من سقف الغرفة ورود حمراء كثيرة وأنا مستلقٍ أشاهدها مبتسماً.. ظللت أتابع حلمي بدون قلق.. ولكن شعرت بأشياء ناعمة تسقط على وجهي وعلى عيني وأنفي.. فقامت بمسح أنفي سريعاً لأنني شعرت بالحكة.. وفتحت عيني ببطء لأجد شيئاً يسقط جهة عيني فأغمضتها سريعاً وقمت من على السرير فزغاً لأرى مشهداً غريباً للغاية.. السرير ممتلئ بالورود الحمراء التي تتساقط من سقف الغرفة كما شاهدتها بحلمي منذ قليل.. أخذت أنظر إلى السرير وإلى سقف الغرفة وأنا غير مصدق أحرك عيني مع الورود التي تسقط على السرير من السقف.. ما هذا؟! يبدو أنني ما زلت أحلم.. أنا بالتأكيد أحلم.. قمت بصفع وجهي وفرك عيوني.. يبدو أنني مستيقظ.. ولكن كثيراً ما كنت أعتقد بأن الحلم حقيقة.. بالتأكيد أنا أحلم الآن وأنا أعلم بأنني أحلم.. هذا ما يسمونه بليكويد دريم.. ذهبت إلى الحمام سريعاً ووضعت رأسي تحت الصنبور وأغرقت رأسي لكي أستيقظ.. وهنا ذهبت إلى الخارج مرة أخرى لأجد الورود مستقرة على السرير وبعضها ملقى على الأرض.. ورود حمراء كلها نفس اللون والطول

والتفاصيل.. إذا أنا لم أكن أحلم.. أمسكت ببعضها وفحصتها.. إنها بالفعل نفس الورود بالضبط.. ماذا يحدث؟ نظرت إلى سقف الغرفة وأنا أظن أن شخصاً بالتأكيد قد وضعني بمقلب سخيف بأحد برامج التلفاز وأنه بعد قليل سوف يخرج علي رامنر جلال وهو يتسم ساخرًا مرتدياً فستاناً أحمر ويتصنع أنه بائعة ورود.. ولكن كان السقف عادياً للغاية ولا يوجد أي شيء غريب به.. ماذا يحدث بحق الجحيم؟ ما هذا؟ هنا صدر صوت غريب بالغرفة جعلني أقفز خوفاً للحظات ثم تداركت سريعاً أنه صوت هاتفي.. فتوجهت إليه سريعاً لأجد المتصل السيد وجيه يخبرني بأنه قد حجز بطاقة الغد لكي نعود إلى مصر بعد انتهاء مهرجان الضحك اليوم فصدقت على حديثه وأنهيت المكالمة سريعاً وتوجهت بقلق إلى السرير وأمسكت بعض الورود وأخذت أشمها فوجدتها بدون رائحة.. جميعها بدون رائحة. عندما عاينتها عن قرب تلك المرة وجدتها بالفعل تشبه الورود ولكنها ليست وروداً، إنها أشبه برسمة ثلاثية الأبعاد لورود وليست وروداً طبيعية بالتأكيد.. إذا هذا من صنع شخص ما.. إذا بالتأكيد هناك شخص يراقبني ونفذ علي ذلك المقلب السخيف.. شعرت بالغضب الشديد ونويت أن ألقن هذا الوغد درساً هو ومسئولي هذا الفندق الذي سمح بحدوث مثل هذا الأمر.. ارتديت ملابسني وقفزت سريعاً إلى استقبال الفندق وظللت أرعد وأبرق غضباً على العاملين بالفندق وأصحابه فالتف حولي الزائرون والعاملون يحاولون تهدئتي وانتهى الأمر إلى منعي من استكمال صراخي بداخل الفندق ونقله إلى مكتب المدير الذي ظللت أهدهه بأني صحفي وأني سوف أفعل بهم الأفاعيل إذا

لم يكشف لي عن من قام بهذا الأمر السخيف.. تأسف لي الرجل كثيرًا وأبدى تفهمه لغضبي وطلب مني أن أذهب معه وبعض العمال لكي يروا هذا الأمر بأنفسهم.. أخذتهم متوعدًا إلى غرفتي وفتحت لهم بابها وأنا أصرخ عليهم ليشاهدوا ماذا يحدث بفندقهم اللعين.. وهنا نظر لي مدير الفندق نظرات مريبة وهو يحدثني متحفزًا: « أين تلك الورود التي حدثتنا عنها يا سيدي؟! »..

نظرت له بضيق وأنا أصرخ عليه غاضبًا وأنا أتوجه إلى داخل الغرفة: « هل تتصنع الغباء أم ماذا؟ إنها هنا أمامك ».. وفوجئت في تلك اللحظة بأن السرير لم يكن عليه أي شيء نهائيًا ولا حتى ورقة ورد واحدة.. نظر إلي المدير بضيق وهو يحدثني بعنف: « ماذا يحدث هنا يا سيدي؟! لقد قمت بصنع جلبة وفعل أمور غير مقبولة أمام النزلاء الآخرين ولا يوجد شيء هنا كما تدعي ».. ظللت أبحث أسفل السرير وحواله وأنا غير مصدق وأنا أصبح مندهشًا: « إنها كانت هنا.. بالتأكيد أنتم قمتم بأمر ما.. أنتم قمتم بتنظيف الغرفة عندما كنت بمكتبك.. أنا متأكد من ذلك »..

أجابني بنبرة غاضبة: « أمازلت مصرًا على حديثك غير اللائق هذا؟! إن فندقنا هذا خمس نجوم يا سيدي مستحيل أن يحدث به شيء كهذا.. وإذا أردت أن تتأكد بأنه لم يدخل أحد غرفتك وأنت بالخارج نستطيع أن نجعلك تشاهد الكاميرات بنفسك ».. هنا صرخت متحمسًا « نعم.. نعم الكاميرات.. أريد أن أشاهد الكاميرات ».. أخذني مدير الفندق ومعه بعض العاملين إلى غرفة الأمن وجعلني أشاهد الكاميرات.. ومنذ لحظة دخول الغداء إلى غرفتي حتى لحظة

خروجي من غرفتي غاضبًا لاشتكي لهم ما حدث معي بالفعل لم يدخل أي شخص إلى الغرفة أو يخرج منها حتى لحظة عودتي بالمدير إلى الغرفة.. وهنا ابتلع الهر لساني ولم يكن لي عين أتحدث إلى المدير الذي نظر إلي نظرة غاضبة وتحدث إلى مساعده بجواره: «أخلوا غرفة السيد المحترم رامي واتركوا متعلقاته خارج الفندق الآن».. ثم تركني وانصرف وأنا أجمع حطام كرامتي التي تبعثت منذ أن تم طردي لأول مرة بحياتي من فندق ما وعلمت بعد ذلك أنه تم وضعي على القائمة السوداء ومنع دخولي إلى ذلك الفندق مدى الحياة.. حدثت عدة أمور تلك الليلة أنستني جميع ما حدث وانتهى الأمر بسفري عائدًا إلى مصر مرة أخرى.. جلست بغرفتي تبعًا من السفر وأنا أفكر بما حدث معي بالمغرب وما إذا كنت أتوهم كل ذلك؛ ولهذا خشيت أن أذكر أي شيء مما حدث معي حتى لا يعتقد أي شخص اعتقادًا خاطئًا عني.. تناسيت الأمر ومرت عدة أيام توقفت خلالها عن استخدام تدريب الوردية نهائيًا وظللت أستخدم القراءة بالمقلوب.. كنت بعلمي في أحد الأيام فور دتني مكالمة من رقم خارج مصر.. رقم غير مسجل لدي.. رددت على المكالمة لأجد المتصل هي عائشة المهدي هاتفني لكي تستفسر عما فعلته بحاجيات مدحت فراج ذاك.. فطمأنتها وأخبرتها أنني سوف أذهب في الغد إلى أحد معارفي بالشرطة وهو سيقوم باللازم وأخبرتها أن تعتبر الموضوع انتهى تمامًا.. أنهيت معها المكالمة ثم تحدثت إلى أحد الضباط من أصدقائي وأخبرته عن الأمر وأخذ مني اسم مدحت فراج وأخبرني أنه سيقوم بالبحث وعمل التحريات اللازمة وطلب مني أن أهاتفه مرة أخرى بعد عدة أيام.. أنهيت المكالمة وظللت

أسترجع ما حدث معي منذ أن كنت بالمغرب وهنا جال بخاطري أن أقوم بتدريب الوردة الحمراء مرة أخرى وبالفعل قمت بإرسال أحد العاملين ليحضر وردة لي وبعد ساعة كنت بمكتبي بمفردي وأخذت وضع زهرة اللوتس وقمت بتدريب الوردة لعدة دقائق ثم فتحت عيني بقلق وترقب شديد ولكن لم أجد شيئاً غريباً.. قمت بتكرار التدريب مرة واثنين وثلاثاً وبالفعل لم يحدث أي شيء غريب عمّا يحدث معي عادة.. إذا الأمر كان مقلّباً بالتأكيد أو أنني كنت متوهماً أو كنت متأثراً بالحلم الذي شاهدته حينها.. أخذت أضحك على نفسي كثيراً وقد كنت أعتقد بأن ما حدث كان حقيقياً وظللت أصف نفسي بالغبى.. عدت إلى منزلي هذا اليوم وقمت بتحضير مهلهلات هذا الرسام المكلوم الذي مات وحيداً بأقاصي الصحراء.. وهنا للمرة الأولى فتحت رسوماته وشاهدتها بعناية. إنها رسومات بديعة بالفعل لبعض الجبال والمناطق بالصحراء وبعض البدو وحيوانات الصحراء.. أخذت أقلب قليلاً بالرسومات فشاهدت رسومات لسيدة وثلاثة أطفال متفاوتي الأعمار، ثم رسومات كثيرة لجسد رجل وجسد امرأة عاريين ثم رسم لأعضاء البشر بالتفاصيل الشديدة ورسومات لشوارع وسيارات وأشياء كثيرة تكاد تنبض بالحياة.. ولفت ناظري رسمة بحجم كبير لطفل صغير مرسومة بإتقان شديد.. وهنا شعرت بالحزن على وفاة هذا الرسام الرائع الذي بالتأكيد لم يسلط عليه الضوء أو على أعماله الرائعة تلك.. وهنا أخذت قراري بأن هذا الرجل يستحق أن يسلط عليه وعلى أعماله الضوء.. وإذا لم يلق التقدير الجيد بحياته هذه فسوف يتم تقديره بعد مماته.. وانتويت أن أقوم بسبق

صحفي عنه وعن عائلته وعرض رسوماته تلك لكي أساعد الناس على تذكره قليلاً.. قمت بوضع حاجياته بحرص شديد وباحترام تلك المرة على مكان مرئي بالنسبة لي حتى أتذكره ولا أنساه في ظل انشغالي المعتاد.. وهنا شاهدت كتاباً بالإنجليزية مكتوباً عليه «الفايكنج والأساطير الإسكندنافية» لكاتب يدعى روبرت باول Robert poul طبعة عام 1979 أخذت أتفحصه قليلاً وبحرص شديد لأنه قد اهترأ تقريباً فوجدت ورقة تمزقت به وأنا ألقبه فتركتها سريعاً مكانها وقمت بإغلاق الكتاب حتى لا أمزقه تماماً.. ثم قمت بتفحص الأجنادات التي كانت تحمل غطاءً جلدياً سميكاً أنقذها قليلاً من عوامل الزمن التي لا ترحم.. وجدت بها كتابات مكتوبة بشكل أشبه إلى مشي الطيور.. والخطوط مائلة إلى أعلى وإلى أسفل.. يبدو أن من يكتب لا يهمنه أن يقرأ أحد ما يكتبه.. ولكن وجدت بأجندة منها خط واضح وقابل للقراءة بطريقة جيدة.. فأخذت أقلب بها قليلاً ثم قمت بفتحها من الصفحة الأولى وقمت بقراءتها..»

« لا أعلم بالضبط كم مكثت هنا.. لا أعلم الليل من النهار.. لا يوجد من نجا سواي أنا ويونس ولكنه مصاب إصابة شديدة للغاية بقدمه.. إنه يتألم بشدة لا أستطيع أن أتحدث معه لئلا أشق عليه.. كل الحديث الذي يدور بيننا من طرفي أواسيه فقط.. لقد قمت بمحاولة البحث عن مخرج خارج هذا الكهف فلم أجد.. المدخل الصغير الوحيد قد أغلق بسبب الانفجار الذي حدث.. لا أعلم ماذا حدث بالضبط.. في أوقات كثيرة يراودني شك كبير.. هل نحن محظوظان أنا ويونس أننا لم نموت من الانفجار أم لا؟ أعتقد أننا محظوظان بالنسبة

لسالم وهانز.. لقد وجدت بعض أشلائهما وقطعاً من ملابسهم بداخل الكهف.. ولكن كيف أظن أننا محظوظون إذا كنا سنموت بداخل هذا الكهف بالنهاية؟ كان من الأفضل لنا أن نموت جميعاً ولا نعيش بمثل هذه الأيام العصيبة.. لا.. أعتقد أننا نجونا أنا ويونس لأننا مازال لدينا عمر معاً.. يجب ألا أياس.. بالتأكيد سوف نجد مخرجاً من هنا.. أو سيأتي لنا أشخاص ليبحثوا عنا وسيجدون سيارتنا وسيأتون لينقذونا.. يجب أن نتمسك بالأمل فبالإيمان سوف نخرج أحياء أنا ويونس من هنا.. إن يونس يتألم للغاية الآن.. سوف أذهب لأعطيه بعض الطعام والمياه»..

أصابني الفضول الشديد وأنا أقرأ تلك الكلمات.. أيعقل أن تلك مذكرات مدحت فراج؟! ولكنه يذكر كهفاً.. ألم يموتا بالصحراء؟ إذا لقد وجدنا كهفاً ويبدو أنه كان معها شخص يدعي سليم وشخص يدعي هانز.. هل هو أجنبي؟ هل هو صاحب كتاب الأساطير الإسكندنافية تلك.. وماتوا بالانفجار؟ أي انفجار هذا؟ ماذا حدث هناك بالضبط؟ لقد خرج مارديتال الفضول بداخلي وقمت بالتهام صفحات تلك المذكرات بمتعة شديدة فوجدت بعض الصفحات مكتوباً بها بعض الجمل ولكن يتم محوها بالقلم مرة أخرى ثم يتم وضع علامة إكس كبيرة على الصفحة وهكذا على مدى أربع صفحات.. ثم وجدت بالصفحات التالية باقي مذكرات مدحت..

«لقد ماتت.. لقد مات يونس بالأمس.. لم يجلس معي كثيراً.. لقد تركني رفيقي يونس.. لا أدري ماذا أفعل الآن»..

وهنا وجدت بعض الحبر قد مسح بشيء يشبه المياه.. يبدو أن مدحت كان يبكي على رفيقه يونس وهو يدون تلك الكتابات.. وهنا تحركت مشاعري ودمعت عيناى حزناً على أناس لم أشاهدهم بحياتي أو أسمع عنهم ولكن تخليداً لتلك الذكرى الأليمة بكييت معهم بمفردي.. أكمل مدحت كتابته:

«أنا الآن لا أدري ماذا أفعل.. لقد أصبحت وحيداً بالكهف مع جسد صديقي يونس.. لا أدري ما عدد الأيام التي قضيتها هنا.. أنا أعلم الليل من النهار بسبب ثقب صغير للغاية بأعلى الكهف تتسلل إليه أشعة الشمس بالنهار والهواء الذي يسمح لي بالتنفس والعيش بداخل ذلك الكهف أو الحفرة الآن بتعبير أدق.. يبدو أن هذا المكان سيكون قبري أنا أيضاً.. لقد كنا نمنى أنفسنا بالمغامرة والأموال والشهرة ولكننا سنموت جميعاً هنا بسبب تلك الصخرة اللعينة.. لقد فرح يونس وهانز للغاية عندما شاهداها وها هي الآن تمكث أمامي تذكرني بمدي غيابنا وحمقنا.. لمن أستطيع أن أشاهدها بعد الآن سوف أحركها بعيداً عن ناظري بأي ركن مظلم بالكهف بعيداً عن ذلك الضوء الضئيل الذي يزيدها وهجاً كما أتخيل دائماً»..

هنا أثار تلك الجمل انتباهي.. صخرة.. أي صخرة تلك التي كانوا يفرحون بمشاهدتها؟ وأي أموال وشهرة؟ يبدو أنهم كانوا يسعون خلف شيء ما.. هل كان كنزاً أم مقبرة فرعونية يا ترى أم ماذا؟ لا يوجد أي تفسير آخر إذ يبدو أنهم بالفعل كانوا يبحثون عن آثار من نوع ما.. تابعت قراءة المذكرات مرة أخرى:

«لقد حدث شيء مدهش منذ قليل عندما كنت أحرك تلك الصخرة بعيداً.. لقد قمت بإزاحتها بعيداً فوق كثيب رملي بأحد الأركان ولكنها سقطت على جانبها إلى أن وصلت إلى منتصف الدائرة التي بمنتصف الكهف وكانت محاطة بأحجار فتبعتها إلى الدائرة وأنا أنوي أن أكمل ما فعلته وأزيجها بعيداً ولكن هنا وجدت أن الأرض تهتز أسفل قدمي فشعرت بالخوف وتحركت سريعاً إلى خارج تلك الدائرة، ولكن فوجئت بأن الأرض أخرجت ماء قليلاً.. شعرت بالاندهاش الشديد.. ماذا يحدث؟ أخذت أتحرك بجوار تلك الدائرة لعدة مرات ولاحظت شيئاً عندما أتحرك بجوار تلك الدائرة أو بداخلها تُخرج ماءً إلى سطح الرمال.. يبدو أن هناك بركة ماء من مياه جوفية أسفل تلك الدائرة وقد امتلأت بالرمال في الماضي.. شعرت بالفرح الشديد وأنا أدور بجنون حول الدائرة لأجد أن الصخرة تغوص قليلاً ويخرج من أسفلها ماء.. إذاً هناك ماء كما ظننت.. يبدو أن تلك إشارة أرسلها لي الله لكي لا أياس فأنا الآن لن أموت عطشاً.. اقتربت من الماء وأخذت أتشممه قليلاً فلم أجد له رائحة غريبة فشربت منه قليلاً فوجدته ماءً بارداً وطعمه جيد لكن بداخله بعض الرمال وهنا قمت بعمل حفرة حول الماء وأخرجت بعض الرمال ولكنها كانت تعود مرة أخرى.. يجب أن أصنع حافة كبيرة من الصخور على جانب المياه وأضع بجوارها الرمال حتى لا تعود إلى البركة مرة أخرى.. ولكن كان الليل قد اقترب فلقد تغير اتجاه أشعة الشمس جهة اليسار من الكهف.. إذاً الشمس تغرب الآن وسيحل الليل؛ ولهذا تركت العمل على البركة وسوف أعود للعمل عليها من الغد.. أنا أدون ما حدث

معي الآن على الضوء المتبقي من النهار قبل أن يجل الظلام بداخل الكهف.. سوف أقوم بأكل حصة زيادة الآن من الطعام بهذه المناسبة فأنا الآن أصبح لدي طعام أكثر بسبب وفاة يونس، ولكن يجب أن أحذر فالطعام محدود وإذا كنت وجدت مصدرًا للمياه فإن الطعام حتى الآن لا يوجد له مصدر»..

شعرت بالفرح لفرح مدحت أثناء قراءتي لتلك الكلمات.. يبدو أنني تأثرت بقصته تمامًا وشعرت أنني أعيش مغامرة معه.. تابعت قراءة المذكرات:

« لقد قمت بوضع الكثير من الأحجار ولكن الذي كان جيدًا منها هي تلك الأحجار القديمة التي كانت موضوعة من قبل حول بركة المياه فهي الوحيدة التي صمدت أمام الرمال واندفاع المياه.. يبدو أن من كانوا يسكنون هذا الكهف من قبل هم أكثر دراية مني بطبيعته.. أشعر بالاندهاش الشديد كلما لامست حجرًا من تلك الأحجار التي قام بصنعها قدماء المصريين منذ عشرة آلاف سنة.. أنا في وسط عقب التاريخ وجماله لقد أخذت أغوص برسومات القدماء تلك، ويا لها من رسومات أنا أتخبر كفناني كيف ظلت تلك الألوان ثابتة على تلك الجدران لآلاف السنين.. إن الألوان زاهية للغاية وتكاد تكون مصنوعة بالأمس.. بعض الحوائط تبدو الرسومات عليها ممتازة وبعضها قد بان أثر الزمان عليها فطمس أشياء كثيرة منها.. لكن ما هذه الأيدي الصغيرة؟ إنها بالمئات على الحائط رسومات لأيدي صغيرة تبدو كأيدي أطفال البشر، ولكنها صغيرة للغاية لا تبدو كأيدي بشر، ورسومات أخرى لبشر يرعون مع حيوانات، ويا لها من رسومات تكاد تنطق

بالحياة من جودتها! ولفت انتباهي شيء مثير للغاية.. هناك الكثير من الرسومات لحيوانات بدون رأس.. أيعقل أن تكون هناك حيوانات بدون رأس كانت تعيش بالماضي؟ لا أعلم إذا كان هذا صحيحًا أم لا، ولكن جميع الرسومات على الحائط منطقية وطبيعية إلا تلك الأيدي الصغيرة وتلك الحيوانات التي بدون رؤوس.. لاحظت أيضًا في الأيام السابقة أن جسد يونس قد أصبح منتفخًا.. يبدو أنه قد بدأ بالتحلل.. إذاً يجب علي أن أدفنه ولكني لا أعلم كيف، وهل يجب علي أن أغسله أم أدفنه هكذا؟ أنا في حيرة من أمري.. ولكني أميل أن أدفنه هكذا لأن المياه هنا مصدر لا يجب التفريط به أبدًا.. سامحني يا صديقي.. أرجو أن يتغمدك الله برحمته، ويلحقك جسدك إلى الجنة..

لقد قمت بدفن يونس بصعوبة شديدة، لا أعلم هل الدفن صعب هكذا أم لأني لا أعرف كيف أفعلها.. لقد قمت بالحفر بين الرمال ببعض الصخور بأحد أركان الكهف بعيدًا عن المياه وعن كل شيء ولكني لم أستطع أن أحفر لمسافة كبيرة خوفًا أن تتساقط الرمال ببركة المياه مرة أخرى ولكن كانت كافية بما يكفي لكي أضع بها جسد يونس وقمت بوضع الرمال فوقه حتى اختفى تمامًا.. لقد جمعت متعلقاته وأشياءه جميعها وحتى إذا غادرت هذا الكهف فسوف أعطيها لأهله.. عندما أخرج من هنا سأطلب من السلطات أن تسمي هذا الكهف باسم كهف يونس المهدي؛ لأنه يستحق أن يذكره الناس دائمًا.. رحمك الله يا يونس يا صديقي!

.. هذا الصباح وجدت شيئًا مدهشًا للغاية.. لقد ظهرت بعض الحشائش الصغيرة حول بركة الماء بمفردها.. سبحان الله! لم أكن

أتوقع أن يظهر زرع هكذا بالصحراء، ولكن بالفعل (وجعلنا من الماء كل شيء حي).. سوف أحاول رعايتها والحفاظ عليها، وهكذا سوف أبحث عن أي بذور للطعام معي وأحاول أن أزرعها بجوار تلك الحشائش لعلها تنمو هي الأخرى..

إن الكهف أصبحت رائحته سيئة للغاية.. إن الرائحة لا تطاق.. لا أعلم ما تلك الرائحة.. إنها رائحة سيئة جداً.. لا أستطيع الجلوس أو النوم بسبب تلك الرائحة السيئة.. أشعر بأني سوف أموت من تلك الرائحة..

.. اللعنة!! الكهف ممتلئ بالرائحة السيئة والديدان.. إنها تملأ ملابسني وأرضية الكهف.. إنها تأتي من جهة المكان الذي دفنت به يونس.. اللعنة! ما هذه الأشياء؟ إنها بكل مكان.. إنها حتى بشعري وإذا قمت من النوم أجدها بفتحات أنفي وأذني.. لقد قمت بوضع الرمال فوق قبر يونس كثيراً وكثيراً ولكنها لم تمنع هجمات الديدان من التوافد علي.. أقتل منها كل يوم الكثير ولكن لا أستطيع أن أمنعها.. الآن أعلم كيف كان شعور المصريين أثناء هجوم الجراد والضفادع بعهد سيدنا موسى.. والأسوأ من ذلك أن البرد أصبح شديداً للغاية بالليل.. أنا أتعذب لا أستطيع النوم من الديدان والبرد والرائحة التي كلما اعتقدت أنني اعتدت عليها تؤرقني من جديد..

أكتب من جديد بعد فترة معاناة كبيرة خلال الأيام السابقة.. لقد انتهت أسراب الديدان ليظهر بدلاً منها أسراب الذباب الذي كاد يغطي كل شيء حولي، ولا أعلم من أين أتى كل ذلك الذباب

اللعين.. لقد قمت بصناعة بعض الأشياء التي أستطيع من خلالها إشعال بعض النيران التي تدفئني بالليل ولكن جميع الأخشاب التي معي انتهت لا أدري كيف سأشعل النيران بعد ذلك.. يبدو أنني عندما أخرج من معضلة أدخل بمعضلة أكبر.. ولكن لحسن الحظ وجدت أنواعاً من فطر عيش الغراب موجودة بكثرة بالقرب من بركة المياه.. على الرغم من طعمه غير المميز ولكنه مصدر جيد للغذاء كنت آكله كثيراً بالطعام بالسابق»..

أخذت أقرأ في المذكرة لعدة ساعات كانت كتابات متفرقة تتحدث مرة عن مشاعره، ومرة عن الطعام، ومرة عن مشكلة واجهها، ولكن الذي لاحظته أنها تكتب على فترات طويلة، وأن خطه أصبح أسوأ، وأن الجمل صارت تكتب بدون تركيز أو مراجعة.. يبدو أنه كان يكتب لمجرد الكتابة فقط.. ظلت المذكرات على تلك المنوال حتى الأجندة الثالثة.. وهنا وجدت خطه أصبح سيئاً للغاية ولا أكاد أفهم جملتين فقط من كل صفحة.. وفي إحدى تلك الجمل كانت هناك كلمة أول مرة أشاهدها أو ألاحظها هي عبارة عن حرفين (ك. م) لقد لاحظتها بكتاباته واعتقدت أنها مجرد اختصار لكلمة ما، ولكنه لأول مرة أشار بها إلى شخص ما أتذكر تلك الجملة جيداً كانت مكتوبة هكذا:

«اليوم (ك. م) أخذ يسألني عن الطعام وعن مذاقه والفرق بينها وإنه سألني: لماذا نحتاج إلى طعام؟ ولماذا نحتاج إلى أن نخرجه بعد الهضم؟ إن هذا الطفل الصغير على الرغم من أسئلته التي لا تنتهي جعل لصحبتني معنى من جديد لم أكن أتخيل العيشة بدونه الآن، وإعطاني الصخرة التي سهلت علي حياتي كثيراً»..

هنا اندهشت من من ذكر (ك. م) هذا.. طفل.. من أين أتى ذلك الطفل؟ ولماذا ظهر فجأة هكذا بدون سبب بكتابات مدحت؟ لم أفهم شيئاً وظننت أنني غفلت عن جزء مهم من القصة.. فذهبت إلى المذكرات لأقرأها بعجالة بحثاً عن (ك. م) هذا فلم أجده إلا ببعض المقاطع مكتوبة بخط لا يقرأ.. حاولت كثيراً فهم ما هو مكتوب فلم أستطع ولا حظت أن مدحت بالفعل لا يهتم بكتابة مذكراته بالتفصيل لكي يشرح ما حدث معه بل إنه يكتب أفكاره التي يشعر بها حينها، عكس بداية كتاباته التي كانت واضحة ومفهومة.. أخذت أقلب بباقي المذكرات أحاول فهم أي شيء من الكتابات فلم أستطع، لقد تحولت باقي الكتابات إلى مجرد نقوش فقط أقرب إلى اللغة المسامرية القديمة، أو إلى شفرات سرية لا يفهمها إلا كاتبها، مع أنني أظن أن مدحت فراج نفسه كان لا يستطيع قراءتها حينها.. ولكن الفضول جعلني أبحث عن أي كلمات عن هذا الطفل (ك. م) وجدت بعض الكلمات كانت واضحة قليلاً مثل.. معرفة.. خوف.. قلق.. الصخرة الصغيرة.. عائلتي.. لم أفهم شيئاً منها.. آخر صفحة كانت مكتوبة بالأجندة كانت مكتوبة بخط كبير؛ لهذا كنت أستطيع قراءتها بصعوبة قليلاً فكانت كالآتي:

«لقد استيقظت اليوم لأجد (ك. م) يقرأ بمذكرتي.. لقد اندهشت من هذا المشهد ولكنني قلت لنفسي إنه ينظر بها بحب استطلاع لأنه كان يسألني عما أفعل بتلك الأجندات فكنت أخبره أنني أكتب، لكنه أشار إلى صفحة كتبتها من قبل وسألني عنها باستنكار.. لقد قال لي: «أنت كاتب هنا أنك تخاف مني.. هل أنت تخاف مني؟ هل أنا شيرير

بنظرك؟».. وهنا صعقت مما قاله فبالفعل أنا كتبت ذلك بمذكرتي ولكن ليست تلك المشكلة.. المشكلة أنني لم أعلم (ك.م) القراءة أصلاً.. فكيف استطاع أن يقرأ هكذا بسهولة؟! إن دل هذا على شيء فإنه يدل على أنه لديه قدرة على التعلم كبيرة.. ولهذا من اليوم لن أكتب شيئاً آخر عمّا أفكر به حتى لا أعلم.

تلك كانت آخر جملة مكتوبة بمذكرات مدحت فراج.. ومع آخر جملة تلك شعرت بالغموض الشديد.. أنا لم أفهم منه شيئاً ولكن يبدو أن ذلك الطفل (ك.م) أشعر مدحت بالخوف بعدما كان يشعر بالطمأنينة لوجوده معه من قبل.. من هذا الطفل؟ وكيف وصل إلى الكهف؟ ولماذا يشير إليه ب (ك.م) ولا يناديه باسمه؟ قرأت مذكرات مدحت فراج وزادت حيرتي وتساؤلاتي.. لماذا ذهبوا إلى هذا الكهف من البداية؟ ومن (ك.م)؟ ومن أين أتى؟ وما قصة تلك الصخرة التي ذكرت كثيراً بكتاباتة؟ زاد فضولي - وأنا فضولي بلا حدود- ألقيت بالمذكرات وأخذت كراسات الرسم وجلست أشاهد الرسومات مرة أخرى، وهنا ترجم عقلي ما قرأته على الرسومات فهنا رسومات الوحوش التي بلا رأس التي تحدث عنها مدحت وتلك الأيدي الصغيرة واضحة برسوماته أيضاً.. وصورة لطفل صغير يتسم بحجم كبير.. إذاً هكذا كان يبدو المدعو (ك.م).. أثار هذا الأمر شهيتي وسأل لعابي وتأكدت بتلك اللحظة أن القدر قد ساق إلي سبباً صحفياً سيجعل اسمي يتردد لسنوات طويلة.. أخذت أقلب بالمذكرات سريعاً وهنا سمعت صوت شيء يسقط فنظرت إليه سريعاً لأجده قطعة الصخرة البيضاء الصغيرة التي رأيتها بالسابق.. وهنا حملتها

بيدي سريعاً وأنا أفكر: هل هي تلك الصخرة التي كان يتحدث عنها مدحت فراج بمذكراته؟ ولكنه كان يقول إنه كان يزيحها إذا لابد أنها كانت كبيرة الحجم، ولكن الصخرة التي معي صغيرة، لقد احترت كثيراً بهذا الأمر ولم أفهم أي شيء، وأنا لا أحب أن أكون جاهلاً يعيش في ظلال المعلومات، بالذات التي تكون تحت أنفي.. ذهبت مسرعاً إلى حاسوبي وقمت بفتح متصفح الإنترنت الشهير جوجل وأخذت أكتب: وحوش بلا رءوس وكهف.. لحظات وظهرت لي بعض مواقع الرعب وأظهر لي المتصفح عدة إعلانات لأفلام رعب مصرية شهيرة باسم الشماس.. لم أجد غايتي التي أبحث عنها باللغة العربية بعد عدة محاولات فاشلة بحثت باللغة الإنجليزية وظهرت لي اقتراحات كثيرة ومنها وجدت ضالتي.. كهف يشتهر باسم «كهف الوحوش» تم اكتشافه بمصر عام 2002 على يد بعض المصريين والإيطاليين.. إذاً هذا هو.. هذا الكهف الذي تحدث عنه مدحت فراج بالسابق بمذكراته.. لقد أصبحت متيقناً بعد أن شاهدت بعض الصور مطابقة لرسومات مدحت فراج.. إذاً هذا هو ضالتي بالتأكيد.. وأخذت أضحك ساخراً كيف كان مدحت يرغب بأن يسمي الكهف على اسم يونس المهدي والآن أصبح اسمه كهف الوحوش.. فكرت قليلاً بزيارة هذا الكهف من كثرة فضولي ولكن بعد أن علمت مكانه البعيد بداخل الصحراء تغلب شيطان الكسل علي وطردت الفكرة من رأسي.. يبدو أنني أصبحت أميل أكثر للحياة الافتراضية أكثر من الواقعية، فالمشاهدة من خلف الشاشات أكثر أماناً من التعامل مع بعض البشر بالتأكيد.. ظللت أبحث قليلاً على الإنترنت وأخذت أتجول بين بعض

صفحات التواصل الاجتماعي ثم شعرت بالتعب يجتاحني فتمددت على سريري أنظر إلى هاتفي لعدة دقائق ثم رغبت بالنوم.. فقامت بإزاحة حاجيات مدحت من على سريري ووضعتها على المنضدة بجواري ووضعت الصخرة الغربية تلك فوق المذكرات ثم وضعت الهاتف بجوارها وذهبت أبحر بعالم الأحلام.. استيقظت في الصباح على الصوت المزعج لمنبه هاتفي وككل يوم كنت أنوي أن أؤخر الهاتف قليلاً ليوطني بعد عشر دقائق ثم أؤخره لعشر دقائق أخرى وهلم جرا حتى أستيقظ مرغماً وأذهب للعمل.. أخذت أتمسك بيدي بجواري على المنضدة بحثاً عن هاتفي وأنا مغمض العينين نصف نائم لعدة ثوانٍ ثم وجدت ضالتي بالنهاية فحملت الهاتف بيدي وضغطت على زر الإيقاف سريعاً ثم وضعت على المنضدة مرة أخرى وعدت لأستكمل غفوتي ولكن صوت منبه الهاتف اللعين ظل يطاردني.. لم يتوقف عن رنينه بداخل رأسي.. شعرت بالضيق وبحثت عن الهاتف مرة أخرى وأمسكته بيدي وأغلقته ووضعت بجواري على السرير ولكن ما زال صوت المنبه يصرخ بأذني كالمجنون.. اعتدلت بجلستي بضيق وأمسكت الهاتف بغضب بيدي وظللت أضغط على زر الإغلاق وأنا أسب وألعن في الوقت الذي اشتريته به، ولكن ما زال صوت الهاتف يعمل أيضاً.. نظرت إلى الهاتف بيدي وأنا مغتاظ ماذا به؟ هل به عطب؟ ظللت أضغط وأضغط بضيق على زر الإغلاق ولكن لم يتوقف الصوت.. انتابني نوبة غضب جعلتني ألقى الهاتف أرضاً وأنا أسب أباه وأخاه والقبيلة التي تؤويه.. وعلى الرغم من ذلك ظل الهاتف يصدر رنينه المقيت حتى بعد أن ألقيت به أرضاً.. شعرت

بالاندهاش مما يحدث.. كيف يظل يعمل بعد كل ذلك؟! إنه يتحطم إذا وضعته بجيبي بسرعة فكيف يعمل بعد أن ألقيته أرضاً بقوة؟! ظل صوت الرنين مستمراً وهنا لاحظت شيئاً مهماً.. أن هذا الصوت ليس صادراً من الأرض ولكنه يصدر من جانب المنضدة بجواري، وهنا نظرت بجانب عيني ببطء لأجد أن هاتفي على المنضدة مستمر برنينه المزعج لم أصدق عيني.. هل مازلت نائماً أم ماذا؟ سحبت الهاتف سريعاً من على المنضدة وحملته بين يدي فوجدته يصدر رنينه وهو يهتز بقوة بيدي.. نظرت غير مصدق إلى الأرض لأجد هاتفي ملقى على الأرض بعيداً.. ألقيت الهاتف من يدي وقفزت من على سريري مرتاعاً.. اللعنة! ماذا يحدث؟! أخذت أفرك عيني بقوة أحاول أن أستشعر أنني قد استيقظت وبكامل قواي العقلية.. وبالفعل أنا يقظ للغاية وها أنا أشاهد هاتفي يرن على السرير وآخر ملقى على الأرض بجانب السرير.. حملت هاتفي متردداً وذهبت للهاتف الآخر وحملته بين يدي هو الآخر ولكن هنا لاحظت الفرق.. أن الهاتف الذي ألقيته يشبه هاتفي بالفعل بالضبط ولكنه لا يعمل به أي شيء.. وخفيف الوزن للغاية هو أشبه بنسخة لعبة من هاتفي.. شعرت بالحيرة.. من أين أتى هذا الهاتف؟! هل دلف شخص إلى شقتي وأنا نائم ليضع هذا الهاتف بجواري؟ ولكن لماذا سيتحمل هذا العناء فقط لكي يجعلني هكذا؟! شعرت بالقلق يحتاجني أن ما حدث مع الورد بالمغرب يحدث معي من جديد ولكن بمنزلي بالقاهرة.. ماذا يحدث بحق الجحيم؟! أخذت أدقق بالهاتف الآخر وأنا مرتاب ووجدت به بعض الاختلافات الطفيفة عن هاتفي ولكنه نفس الحجم والشكل تقريباً

ولكن الوزن مختلف تمامًا.. تنهدت وأنا متحير ماذا يحدث؟ ماذا يحدث معي؟ وهنا حدث شيء قد أثار هلعي حينها بشدة.. الهاتف اللعبة الذي كان بيدي بدأ يختفي ويتلاشى من أمامي.. فنفضت يدي بخوف وتسلقت السرير مرتاعًا وأنا أكاد أجن.. لقد اختفى الهاتف الثاني بين يدي كأنه لم يكن.. توقف الزمن حولي ولم أشعر بنفسني نهائيًا إلا بعدما وجدت هاتفي يرن مرة أخرى فقفزت فرعًا وأنا أنظر إليه مترددًا ولكن لمحت اسم أحد المساعدين الذين يعملون برفقتي.. فقامت بالرد على المكالمة وأنا مرتاب ومتوقع أن يختفي الهاتف بين يدي مرة ثانية ولكن لحسن الحظ لم يحدث ذلك.. لقد أرادوا الاطمئنان علي بعد أن تأخرت عن العمل فيبدو أنني قد غبت عن وعيي وأنا يقظ لمدة تقارب الثلاث ساعات وهذا عيب كبير من عيوب التدريب على التركيز، فحين تركز بشيء لا تشغل بأي شيء آخر عنه.. تصنعت المرض وأخبرتهم بأني لن أحضر اليوم إلى العمل، وهكذا أصبح لدي اليوم بأكمله لأتفكر بحادث هذا الصباح.. تناولت الطعام سريعًا وأنا أشعر بأني قد أصبت بالجنون.. بالتأكيد ما الذي يحدث معي؟ لماذا أرى بعض الأشياء مرتين ولا أتخيلها فقط ولكنني أراها رؤية العين، والأكثر من ذلك ألمسها وأشعر بها وبوزنها.. إن هذا الأمر لا يمكن أن يكون مجرد خيال أبدًا، إنه حقيقي بنسبة كبيرة ولكن كيف تختفي هكذا؟ ولماذا وكيف تظهر من البداية؟ وهنا لجأت إلى صديقي الوحيد الذي لا أخجل منه بسؤاله عن أي شيء.. ألا وهو الإنترنت.. الذي خضت بحره لعدة ساعات ولكن لم أهتد إلى ضالتي قط.. تركت الحاسوب وجلست مسترخيًا على المقعد أفكر قليلًا بأحد التدريبات التي تمرنت عليها للذاكرة وهو

تدريب التذكر العكسي، ويتم استخدامه حين أريد أن أتذكر شيئاً فعلته بالماضي فأسترجع كل التفاصيل التي سبقت فعلي لما أبحث عنه، وجلست أتذكر ما حدث معي بصباح اليوم وما حدث معي بالمغرب في السابق، وهنا لاحظت شيئاً واحداً مشتركاً بين هذين الحادتين.. إنها مذكرات مدحت فراج.. حينما اقرؤها يحدث معي ذلك ولكن لماذا؟ لا أعلم.. هنا شعرت بالفضول يكاد يمزق عقلي فأخذت بعض المذكرات من فوق المنضدة فسقط شيء وأنا أحمل المذكرة فنظرت إليه سريعاً فوجدتها الصخرة البيضاء الصغيرة.. فقامت بالتقاطها بيدي وأخذت أداعبها بأناملي.. وتذكرت كتابات مدحت عن الصخرة البيضاء وعن (ك.م) ولكن أيعقل أنه كان يتحدث عن تلك الصخرة؟ هل تلك الصخرة الصغيرة التي كانت ضالته هو وصديقه يونس المهدي؟ أخذتها وأنا عاقد العزم على كشف اللغز الذي خلفها ولماذا ذهب هؤلاء الأشخاص إلى أقاصي الصحراء للبحث عنها.. كنت أشعر بسخف ما أفكر به وأنا أرتدي ملابسني وأتجه إلى سيارتي مغادراً وأنا أعتقد أنها -بنسبة كبيرة- حجر كريم مثل الزبرجد والياقوت والأشياء الغريبة تلك التي أسمع عنها دائماً، فتوجهت إلى أحد معارفي الذي يمتلك سلسلة محلات للذهب والمشغولات الثمينة وقابلني الرجل بترحاب شديد وبعد الكثير من المشروبات والمجاملات أعطيته الصخرة لكي يعاينها ويخبرني ما نوعها.. ولقد كان الرجل متحمساً للغاية ولكن عندما أعطيتها له نظرتي مندهشاً وهو يتسم:

«أتمرح معي أم ماذا؟! ما هذا؟»..

شعرت بالإحراج الشديد وأنا آخذ منه الحجر مرة أخرى: «هل هو حجر عادي وليس حجرًا كريمًا؟»..

أعطاه لي ساخرًا: «إن الحصى الذي بالرمال يبدو أكثر قيمة منه.. ما الذي جعلك تعتقد أنه حجر كريم من الأساس؟ هل خدعك شخص ما وأخبرك أنه حجر كريم؟ لو حدث ذلك فأنت تم النصب عليك يا صديقي بالتأكيد».. وضعت الحجر بجيبي سريعًا وظللت جالسًا معه لمدة خمس دقائق أخرى أستمع إلى جميع النكات الغبية التي كان يطلقها علي بأني قد اشتريت العتبه الخضراء والترام وتمثال أبي الهول وهرم منكاورع.. تحملت تعليقاته السخيفة تلك بضيق واستأذنت منصرفًا وأنا أنوي أن أقطع علاقتي بذلك التاجر إلى الأبد؛ لأنه سيحول هذا الموقف إلى علكة بلسانه يتندر بها لجميع من سيراه بالأعوام المقبلة لأنه كان يفعل ذلك مع بعض الأشخاص أمامي من قبل.. كنت عائداً إلى منزلي وأنا في نيتي أن ألقى بجميع تلك الأشياء بعيداً عني بأي مكان آخر وأعود إلى حياتي الطبيعية حتى لا أصاب بالجنون.. وهنا فوجئت بموكب مار لأحد الشخصيات المهمة وتم إغلاق الطريق بالكامل أمامنا حتى يمر سيادته بسرعة من بين جموع البشر العاديين الذين يؤرق سيادته أن يمر بوسطهم.. نظرت إلى الموقف متأففاً وقلت بتشغيل المذياع الذي ظل يردد الأغنية الجديدة للمطرب الشهير حسن بلولة حتى جعلوني أمقته وأمقت وقت أن امتهن الغناء، وجاءت الوصلات الإعلانية الطويلة لتكمل على ما تبقى من صبري، ولكي يكتمل الموقف تمامًا أخذ أحد الصبية الذي يمتهن مواقف الإشارات مقرراً له يدق بإلحاح شديد متدرب عليه منذ خشونة أظافره

لكي يجعل الهدف الذي أمامه لا يجد له إلا حلًّا من اثنين: إما أن يقتله أو أن يعطيه أموالاً وليس أمامك حل ثالث سوى هذين لكي تتخلص منه، وأنا على اعتياد بتلك المواقف السخيفة اليومية، لهذا كنت أضع دائماً بعض النقود المعدنية أمامي فوق تابلوه السيارة ولكن لسوء حظي اليوم لم أجد.. ظللت أقلب بضيق بملابسي والطفل يسارع ضرباته على زجاج السيارة والابتهالات الدينية التي تخرج من فمه لتدخلني الجنة تلاحقني مثل الرصاص، وأخذت دعواته تتصاعد مع طرقاته لكي تجعلني أسرع الوتيرة قليلاً ليتركني ويلحق زبوناً آخر بجواري.. أخذت أنفخ الهواء من داخل صدري بقوة وأنا أتلمس جميع مواضع نقودي لأجدها جميعاً أموالاً صحيحة من فئة الخمسين جنيهاً وفما فوق.. نظرت إلى الطفل بجواري باستعطاف وأنا أتمنى أن يتغاضى عني تلك المرة: «للأسف ليس لدي أموال فكة الآن.. المرة القادمة سوف أعطيك».. كنت أتمنى أن يتكرم ويتركني هذه المرة ولكن هيهات أن يحدث هذا فزادت الطرقات والدعوات وشملت أمي وأبي وابن عم جد خال من أتوا بي إلى تلك الدنيا.. تأففت للمرة المائة بعد الخمسين على التوالي وفكرت جدياً بترك السيارة له والذهاب بعيداً حتى يتركني، ولكنني خشيت أن أكون بذلك لقمة سائغة له أكثر فيقوم بمطاردتي ركضاً هو وعصبته المنتشرة بين باقي السيارات فصرفت نظري عن تلك الفكرة بالحال وأومأت له برأسي متأسفاً: «صدقني ليس معي نقود فكة لأعطيكها لك».. لم يقتنع الصبي وأخذ يربت على صدره بيده وهو يترجاني: «والنبي يا بيه.. أعطني نقوداً.. لم آكل أنا وأختي الصغيرة منذ أمس والنبي أعطانا نقوداً لناكل»..

هنا هز حديثه قلبي بشدة.. أنا أعلم بالتأكيد بأنه يحفظ هذه الجمل عن ظهر قلب ويخبر بها الجميع ولكن لا أستطيع أن أخفي تلمسي بعض الحقيقة خلف تلك الكلمات.. فأنا علمت من بعض تحقيقاتي الصحفية حول مهنة الشحاذاة أنهم بالفعل يجعلون الأطفال لا يأكلون لعدة أيام حتى يصبح حديثهم مقنعًا للزبائن، وهذا أقل من القليل الذي اكتشفته بالكوارث التي تلحق بهؤلاء الصبية، وهممت أن أعطيه مبلغًا كبيرًا ولكني كنت أعلم بأنه في النهاية لن يستفيد الصبي من تلك الأموال بشيء وسوف يأخذها منه الشخص البلطجي الذي يقوم على تشغيلهم بتلك المنطقة، وبالتالي لن يستفيد الصبي بشيء وأنا لن أستخدم إلا ضياع أموالى إلى يد بلطجي ليشتري بها بعض المخدرات.. فتنهدت وأخذت أبحث بملاسي للمرة الثالثة على التوالي وأنا أعلم أنى لا أحمل نقودًا فكة لأنى أضعها دائماً على تابلوه السيارة.. وأخذت أعبت بملاسي غاضباً وأنا أحدث نفسي بضيق: اللعنة!! أين ذهبت تلك النقود؟ وتمنيت من كل قلبي أن أجدها بمكانها.. وهنا شاهدت أغرب شيء بحياتي.. احمم.. أقصد كان أغرب شيء شاهدته بحياتي حتى تلك اللحظة بالطبع.. لقد ظهرت أمامى على التابلوه نقود معدنية.. بالضبط أربعة جنيهات فضية.. ظهرت هكذا من العدم أمامى.. أخذت أنظر إليها مصدوماً مشدوهاً.. وأنا أشعر بالدماء تتدفق بانديفاع خرطوم سيارات الإطفاء إلى رأسى.. لماذا؟ لماذا أهلوس الآن وبهذا الوقت؟ وهنا تصاعدت طرقات الصبي على الزجاج أكثر فأكثر.. فصرخت عليه غاضباً: «لقد أخبرتك بأنى ليس معى فكة.. اذهب من هنا الآن هيا».. ولكنه أخذ يربت على صدره وهو يدعولى

بجميع ابتهالات العالم.. وأشار بإصبعه جهة تابلوه السيارة وسألني مترجياً: «النقود أمامك يا بيه.. أعطني بالله عليك لم آكل أنا وأختي منذ الأمس.. أريد أن أشتري لها الإفطار».. وهنا نظرت إلى حيث أشار فوجدته يتحدث عن النقود المعدنية التي ظهرت أمامي.. ماذا؟ هل يعقل أنه يرى الهلاوس التي أراها أنا أيضاً؟ صدمني هذا الأمر بشدة.. فسألته في الحال: «هل تستطيع روية تلك النقود؟».. ولكنه لم يجبني سوى بالرد الآلي الذي حفظه: «أعطني نقوداً يا بيه لم آكل أنا وأختي منذ الأمس.. أريد أن أحضر لها الإفطار».. هنا لم أستطع أن أفكر بماذا أفعل.. لقد ظهرت النقود كما طلبت والطفل يبدو عليه أنه رآها.. ماذا أفعل الآن؟ وجدت يدي وبدون إدراك مني تمتد إلى الجنيهات الفضية وتجمعها بقبضة يدي وصوت اصطدام العملات المعدنية يرن بأذني، ثم فتحت زجاج نافذتي ومددت يدي بالجنيهات ووضعتها بيد الطفل الذي شعر بالفرح الشديد وأخذ يدعو لي ببعض الأدعية الجديدة التي لم أسمعها منه من قبل.. بعد أن أعطيته النقود شعرت بخطأ ما فعلته.. كيف أعطيه تلك الأموال هكذا.. إن العملات المعدنية هذه لا يجب أن يتم التفريط بها يجب أن أدرسها جيداً وأعلم كيف لهلوسة أراها هكذا بمفردي أن تصبح شيئاً ملموساً لشخص غيري؟ فأمسكت الطفل بقوة من يده قبل أن ينصرف مسرعاً.. فشعر الطفل بالذعر وسألني بخوف: «ماذا تريد يا بيه؟».. طمأنته بالحال ووضعت يدي بجيبي: «لا تخف.. سوف آخذ منك تلك النقود وأعطيك بدلاً منها خمسين جنيهاً».. هنا قام الطفل بسحب يده بعنف وأخذ ينظر إلي غاضباً: «إنك تريد أن تخدعني.. سوف تأخذ

مني النقود مرة أخرى.. يالك من بخيل ابن...! وأخذ يسبني بأمي وهو يركض مبتعدًا عني بين السيارات.. رد فعله هذا أضحكني بشدة وأخذت أصرخ عليه وأنا ألوح له بالخمسين جنيهاً بيدي ولكنه لم يولني أي اهتمام فيبدو عليه أنه كان مقتنعًا بالفعل بأني بخيل وسوف آخذ منه النقود مرة أخرى.. غرابة الموقف جعلتني أضحك بدون وعي لوقت طويل لا أعلم بماذا أفكر أو بماذا أشعر فقط أضحك وأضحك.. وهنا لحسن الحظ انتهى الموكب من الذهاب بعيدًا عنا نحن الأوغاد العاديين وسمحوا لنا بالمضي قدمًا أخيرًا فأخذت أنطلق بسيارتي وأنا لا أدري ماذا أفعل ولا أدري كيف كنت أقود.. لم أشعر بنفسي إلا وأنا بمكان هادئ للغاية لا يوجد به سوى بعض السيارات وبعض الأحبة بداخلها يتناولون أطراف الحديث.. احمممم.. الحديث فقط بالطبع.. بعد أن توقفت أخذت أفكر كثيرًا بما حدث وكيف أنني قد هلوست مرة أخرى ولكن هذه المرة هناك من رأى تلك الهلوسات وتلمسها بيده مثلي.. ماذا يحدث معي؟ ولماذا يحدث معي؟ ظللت أسترجع جميع الحوادث التي حدثت معي بالمغرب ثم بمصر حتى هذا اليوم لم أجد رابطًا واحدًا بينها أبدًا إلا أن قراءتي مذكرات مدحت فراج كانت العامل المشترك بتلك الحوادث دائمًا.. ولكن هذا اليوم أنا لم أقرأ مذكرات مدحت فراج نهائيًا أو على الأقل لم أقرأها حينما ظهرت العملات المعدنية أمامي.. أيمن أنهما ليست المذكرات ولكنها... وضعت يدي بجيبتي وأخرجتها سريعًا وأخذت أنظر إليها مندهشًا.. أيعقل أنها تلك الصخرة الصغيرة؟ هل هي التي تفعل ذلك؟ ولكن كيف؟ كيف لصخرة أن تفعل مثل تلك الأشياء؟! ولكن عندما أربط

جميع الأحداث ببعضها يبدو أن تلك الصخرة هي التي كانت غاية مدحت ويونس؛ لأنها بالفعل ليست من أنواع الأحجار الكريمة.. إذا لا يوجد أي شيء منطقي يجعلها يسعيان خلفها إلا ذلك، ولكن.. كيف تعمل؟ ظلت أفكر وأنا أشعر بالسخف من تفكيري.. لا يعقل أبداً أن تكون صخرة ضئيلة مثل تلك تمتلك مثل هذه القوى أبداً.. وهل هي التي تجعلني أرى تلك الهلاوس من البداية؟ لم أفكر كثيراً.. قررت أن أقوم بتجربة عملية الآن.. سوف أقوم بتخيل الوردية الحمراء مثلها كنت أفعل ولكن تلك المرة بيدي اليسرى.. أخذت أتلفت حولي متوتراً من أن يشاهدني أحد ولكن لم أجد أحداً يعاباً بوجودي من الأساس.. كله كان منشغلاً.. احممم بتناول أطراف الحديث.. أغلقت عيني وأخذت أركز على تنفسي وأنا أستخدمه ببطء، وبعد عدة مرات نجحت في التحكم بمعدل تنفسي، وبهذا انخفضت دقات قلبي المتوترة وعادت إلى معدلاتها العادية، وبدأت بالاسترخاء، وهنا أخذت أباشر بتخيلي الوردية الحمراء بجميع تفاصيلها ولكن بيدي اليسرى تلك المرة لا أدري كم استغرقت من وقت ولكن شعرت فجأة بشيء دافئ يباعد بين إصبعي الإبهام والسبابة ففتحت عيني بقلق ولكم كانت دهشتي عندما وجدت الوردية الحمراء بيدي.. شعرت بالفرع وألقيتها من يدي بخوف وأنا أصرخ: إنها حقيقة.. إنها حقيقة.. لك أن تتخيل أن كل ما يحدث معك بالسابق كان بالمصادفة ولكن عندما تفعله بإرادتك فهذا شعور آخر لن أستطيع شرحه لك بكلمات أبداً.. أخذت أهدئ نفسي وأنا أنظر إلى الوردية بالأرض أسفل مني وبالصخرة التي وضعتها على التابلوه أمامي.. إن ما يحدث الآن ضرب

من المستحيل بالفعل.. هل أهلوس أم أن الوردة ظهرت بين أصابع يدي اليسري كما تخيلت بالضبط؟! أمسكت بالوردة وأخذت أنظر إليها باندهاش وهنا قررت أن أقطع الشك باليقين.. سوف أفعلها مرة أخرى ولكن بيدي اليمنى.. وبالفعل قمت بنفس التدريب مع التخيل أن الوردة بيدي اليمنى.. وهنا كانت المفاجأة كبيرة عندما نجحت تجربتي وأصبح لدي وردتان بالفعل.. وهنا اكتشفت أنه يمكن الجمع بين أكثر من شيء تخيلته بنفس الوقت ولا يختفي ما تخيلته أولاً عند ظهور الشيء الجديد الذي تخيلته.. قمت بنفس التدريب ولكن غيرت لون الوردة الحمراء وجعلتها زرقاء ولكم كانت دهشتي عندما حملتها بين يدي وردة زرقاء! تخيلت صفراء وخضراء وبنفسجية.. وإذا بجميعها بين يدي.. تخيلت وردتين بيدي الاثنتين بنفس الوقت ولكن لم تظهراً معاً.. أخذت أتدرب على فعلها لوقت طويل وبالنهاية فعلتها وردتين واحدة حمراء والأخرى صفراء بكلتا يدي.. بعد حصيلة ثلاث ساعات تخيلت 14 وردة اختفى منها 8 وردات.. لاحظت أن الورد التي تخيلتها أولاً تختفي أولاً قبل التي تخيلتها حديثاً.. إذاً هناك وقت محدد لظهور تلك الأشياء واختفائها.. ولكني لم أعلم كم هذا الوقت بعد.. شعرت بالإرهاق والعرق يغطي جميع ملابسي ولكن شعرت بالفرح الشديد أيضاً.. مهما كنت تشعر بسعادة فلا تقارن بشيء قد تخيلته برأسك وأصبح واقعاً بين يديك هذه هي المتعة المطلقة.. بدأت أشعة الشمس تختفي متسللة منسحبة للظلام ليحل مكانها.. وتنبهت أنني مازلت بالشارع، وهذا أمر خطير، وخفت على كنزي الجديد أن يقع بيد أحد آخر فقبضت على الصخرة بخوف كما أقبض على روعي

تمامًا وأخاف أن تنسل من جسدي.. وضعتها بجيبي جهة قلبي وقفلت عائداً إلى المنزل.. وعندما وصلت لم أقم بفعل أي شيء نهائياً إلا تخيل الورد وبأشكال وأحجام مختلفة، وكانت بعض محاولاتي فاشلة ومعظمها ناجحة.. والفاشلة كانت بسبب أنني لم أقم بتخيل بعض الورد بشكل صحيح لأنني لم أحملها بيدي وأطلع عليها جيداً.. وهنا اكتشفت شرطاً جديداً أنه يجب أن يكون ما تخيلته شيئاً أحفظه بعقلي جيداً ولا أستطيع صنع شيء لم أره أو أتحمك بتفاصيله جيداً.. واكتشفت شيئاً ثانياً هو أن هناك بالفعل وقتاً معيناً لتلك الأشياء التي تظهر يتراوح ما بين 8 دقائق إلى 13 دقيقة.. لا أعلم بعد لماذا تختلف الأوقات بينها، ولكنني في النهاية سوف أعلم.. لاحظت أيضاً اختلاف الأحجام والأوزان.. عندما قمت بتخيل العملات المعدنية من جديد فكانت أوزانها مختلفة كثيراً عن وزن العملات الحقيقية.. وأشياء كثيرة مختلفة عن الأشياء الأصلية.. تغيبت عن العمل خمسة أيام متتالية قمت خلالها بتجربة جميع ما يأتي بعقلك من تخيلات وأخذت أقرأ مذكرات مدحت فراج حرفاً حرفاً ولكن لم أخرج بالكثير مما قرأته سابقاً ولكن زاد فضولي بشدة عن المدعو (ك.م) وأنه أعطى لمدحت الصخرة.. وهنا شعرت بالحيرة ففي بداية مذكرات مدحت فراج كان يتحدث قبل ظهور (ك.م) أنهم أتوا من أجل صخرة وأنها كانت سبباً في عثوره على بركة المياه عندما حاول إزاحتها؛ فهذا يدل على أنها كبيرة الحجم.. وبعد ذلك في المذكرات التالية كتب أن (ك.م) أعطاه صخرة ولقد أسعدته كثيراً.. ماذا يعني هذا؟ هل يعني أن هناك صخرتين أم ماذا؟ أو أن هناك صخرة واحدة ويبدو أن مدحت فراج قد فقد عقله

واختلق (ك.م) هذا من رأسه نظرًا لمكوته وحيدها؟ شعرت بأن رأسي سينفجر؛ فهناك أشياء كثيرة تبدو حدثت لو كنت أعلمها لكانت حياتي الآن اختلفت بالتأكيد.. اللعنة على مدحت فراج!! لماذا لا يحسن خطه إذا كان يكتب لأناس غيره؟ أخذت أضحك على نفسي وأنا ألوم شخصًا قد مات منذ ما يقارب العقدين من الزمان.. لا يهم ما حدث بالماضي.. ما يهم الآن هو تلك الصخرة التي أحملها بين يديّ الآن.. إذا لم أكتشف تاريخها فسوف أصنع لها تاريخًا.. وهنا بدأت تجاربي على تلك الصخرة تتجه إلى مرحلة جديدة.. لقد أصبحت قادرًا الآن بعد أسبوع واحد فقط أن أصنع أي شيء أتخيله بتلك الصخرة، ولم تكن كلها بالطبع تجارب ناجحة فالطعام؛ مثلاً لا تستطيع أكله لأنه يشبه الشيء البلاستيكي.. وأيضًا النقود لم أنجح بجعلها ورقية دائمًا حيث تصبح صلبة وجامدة ولا أستطيع تخيل جميع تفاصيل الرسوم التي بها.. المخلوقات التي بها روح لم أستطع أن أصنع شيئًا منها أبدًا.. كانت دائمًا ما تتجسد على شكلها ولكنها كانت تبدو كالتماثيل تمامًا.. وأشياء أخرى كثيرة سيطول شرحها الآن.. ولكن الخلاصة أنني استطعت تخيل أشياء كثيرة وكنت راضيًا عنها أشد الرضا.. وهنا قررت أن أجرب تلك الأشياء التي أتخيلها على أناس آخرون غيري.. كنت أخاف بشدة أن أتخذ تلك الخطوة حتى لا يعتقد أحد بأنني مجنون وأرى أشياء غير موجودة، ولكن تجربة الطفل المتشرد بالسابق جعلتني أطمئن قليلًا.. وقررت أن أقوم بأولى تجاربي على البشر.. صنعت بالصخرة وردة حمراء وبعض النقود المعدنية التي احترفت صنعها وأصبحت سهلة جدًا بالنسبة لي، وقررت أن أتجه إلى أقرب كشك لبيع

السجائر وأجرب تلك الأشياء التي صنعتها.. فذهبت إلى كشك صغير بعيد عني وأنا متردد وقلبي يدق بشدة فهذا هو اليوم الموعود إما أن يكون كل ما حدث بالنسبة لي بتلك الفترة السابقة أو هامًا اختلقتها برأسي وإما أن يكون قد فتحت لي أبواب السماء بامتلاكي تلك الصخرة التي تصنع الأعاجيب.. ذهبت إلى العجوز الذي يقف بكشك السجائر وطلبت منه بعض الحاجيات وأعطيته ورقة نقدية من فئة المائة جنيه فأعطاني مشرياتي وقدم لي باقي النقود وأعطاني معها بعض العملات المعدنية فأخذتها على الفور ووضعتها بجيبي ثم أخرجت وردة حمراء كنت قد صنعتها من قبل وأعطيتها للعجوز وأنا أبتسم: «تفضل يا سيدي.. هذه لك»..

نظر إلي العجوز نظرة غريبة.. مازلت أتذكر نظراته تلك حتى الآن.. نظرات مستنكرة غاضبة فسألته متوترًا: «ماذا هنالك يا سيدي؟ هل لا تعجبك الورود؟».. تحدث إلي بنبرة غاضبة: «ورود؟ هل أنت مجنون يا بني؟ أين تلك الورود؟».. أمسكت الوردة بيدي وأنا مندهش وأجبتته سريعًا: «تلك الوردة التي أعطيتها لك بيدي.. هل لا تراها؟».. أجابني بضيق: «اللهم أغني عن تلك الشغلة يا الله.. أنا لا أرى شيئًا.. ماذا تريد يا أخي؟ لا تضيع وقتي معك.. هل تريد شيئًا أم لا؟ إذا لم ترد شيئًا فاذهب إلى حال سبيلك يهديك الله»..

شعرت بالقلق الشديد من حديث الرجل ولم أفهم رد فعله.. هل يستنكر أني أعطيه وردة أم أنه لا يراها من الأساس؟.. فصاح بي بالحال صيحة أصابتنني بالفرع: «أتريد شيئًا أم لا؟ لا تقف هكذا طويلًا».. شعرت بالإحراج الشديد فوضعت الوردة بجيبي وأخذت

بعض الحاجيات من أمامي وأنا أشعر بالعرق يغزوني وقدماي تتراقصان أسفل مني خوفاً من ذلك العجوز القحف.. فقررت أن أشتري منه أي شيء آخر درءاً للإحراج الذي أشعر به الآن فوضعت يدي بجيبي لأخرج بعض الأموال ولكنني تذكرت العملات المعدنية التي صنعتها بالسابق فسحبت يدي من جيبي وأخذت حفنة من تلك العملات المعدنية ومددت بها يدي جهة العجوز وأنا متردد خوفاً من ألا يراها هي أيضاً ويصيبني بوابل كلماته اللاذعة ولكن سبق السيف العذل ومد العجوز يده إلي فوضعت العملات المعدنية بيده وهنا أخذها ونظر بها وهي ملء كف يده ثم نظر إلي نظره مخيفة جعلتني أذوب بمكاني وتمنيت أن تنشق الأرض وتبلعني بالحال.. فصرخ بي بحدة شديدة وبنظرات نارية: «ما هذا يا أستاذ؟ النقود تنقص ثلاثة جنيهات»..

هنا ردت إلي الروح بعد أن فارقت جسدي تقريباً.. يبدو أن النقود ليست كافية فقط ولكنه يراها وبوضوح.. فأخرجت ثلاثة جنيهات وأعطيتها له وأنا فرح.. قام بالتدقيق بهم للحظات ثم وضعها جميعاً بدرج صغير بمحله ورمقني بنظرة تفرز شديدة.. أخذت أضحك وهممت بالانصراف ولكن فضولي اللعين جعلني أعود إليه مرة أخرى فنظر لي نظرة مريض الجذام: «اللهم طولك يا روح.. ماذا تريد مرة أخرى؟»..

ابتسمت له وسألته بالحال: «سؤال واحد وسأنصرف.. هل شعرت بالضيق من أني أعطيك وردة أم أنك لم تر الوردة من الأصل؟»..

أجابني وهو يتأفف: «لا.. لم أر شيئاً.. لا وردًا ولا فجلاً حتى.. هل شعرت بالارتياح الآن؟ اذهب إلى حال سبيلك هيا»..

.. انصرفت مغادرًا وأنا أشعر بالرضا وأنا أفكر بنتائج تجربتي ولكن صوت العجوز خلفي وهو يسبني وينعتني بأني من زمرة الخواجات جعلني أذهب إلى سيارتي مطأطئ الرأس خجلًا.. عدت إلى سيارتي وأنا راض بتجربتي التي كانت غريبة بالفعل فالعجوز لم ير الوردة الحمراء ولكنه رأى النقود ولا أعلم لماذا لكن قد ظهرت برأسي تلميحًا هكذا جعلتني أنطلق مسرعًا إلى أقرب كورنيش للنيل أجده وهنا ذهبت إلى صفوف الشباب والفتيات وأخرجت من سيارتي ثلاث وردات حمراء وأخذت أتحرك مسرعًا جهة الفتيات هناك وأعطي لهن الورد التي معي.. منهن من أبت ومنهن من أخذت الورد ومنهن ترددت ثم أخذتها بعد ذلك.. انتهت التجربة بمطاردة باعة الورد الجائلين لي ظنًا منهم أنني منافس جديد اقتحم مكان عملهم.. بعد شرائي لبعض الورد منهم وإعطائهم بعض المال قاموا بتركي إلى حال سبيلي.. لقد كلفتني تلك التجارب الكثير من الأموال والكثير والكثير من كرامتي التي تبعثت بكل مكان ولكن كنت سعيدًا بانتهاء كل تجربة لأنني علمت معلومة جديدة عن طبيعة عمل تلك الصخرة، ومنها أنه كلما رأى الشخص المستهدف شيئًا معتادًا عليه أصبح تقبله لوجود ما تخيلته واقعًا أمامه.. أكثر فنظرًا لعدم استخدام العجوز للورد كان من الصعب له أن يتقبل شيئًا مثل هذا لا يتعامل معه أبدًا

ولكن مع النقود كان تقبله لها أمراً طبيعياً؛ لأنه يتعامل مع هذا الأمر بشكل يومي.. وبالنسبة للفتيات فجميعهن رأين الورد حتى هؤلاء ممن لم يتقبلنها مني ورفضنها بعد أن رأينها بيدي وهذا يرجع إلى طبيعة الفتيات الرومانسية وتكوين صورة ذهنية لهن عن تقديم الورد لهن وأنها رمز للحب والإعجاب.. استمرت تجاربي الكثيرة المتواصلة لمدة ثلاثة أشهر تقريباً استطعت خلالها فعل كل شيء وتحيل كل شيء أردت أن أتخيله.. أصبح استخدام تلك الصخرة كشراب المياه بالنسبة لي أستطيع تجسيد ما أتخيل بمجرد التفكير به للحظات قليلة.. كل هذا شجعني لكي أفكر في القيام بالتجربة الذاتية..

* * *

(تجربة ذاتية)

لقد قمت كما أخبرتكم بتجربة اختبارات كثيرة لأرى كيفية عمل تلك الصخرة وتجسيدها لتلك التخيلات التي برأسي.. ومنها ما لاحظته كما أخبرتكم من قبل.. وهو كلما كان ما تخيلته اعتاد الناس أن يروه كل يوم كان أسهل لهم تقبله ومشاهدته بسهولة بعد ذلك.. ومن أهم الأشياء التي كانت مهمة للغاية بتجاريبي أنه كلما كان عدد الناس الذين شاهدوا تجسيدها الصخرة بالواقع كبيراً كانت تجسيدها أكثر واقعية ويزيد وقت بقائها وعدم اختفائها، ومررت بتجربة مهمة لإثبات ذلك حيث قمت بصنع شخصية كارتونية مشهورة وأعطيتها هدية لروضة أطفال قاموا بتعليقها على الحائط والغريب أنها مازالت موجودة حتى الآن ولم تختف.. هل شعرت بمدى القوة التي كنت أمتلكها بسبب تلك الصخرة الصغيرة؟ لقد جعلت لي القدرة على تجسيد أحلامي وأفكاري واقعاً فعلياً.. لقد قمت بصنع عدد كبير من الجمل والأفكار التي برأسي وأصبحت أشياء حولي موجودة بغرفة المعيشة.. لقد كنت ممنوناً للقدر الذي جعل مدحت فراج بمذكراته وصخرته وحكايته تقع بين يدي، وكنت أشعر بالاندهاش الشديد بتفريط عائشة المهدي وعائلتها بذلك الكنز الثمين.. لقد اتصلت بي بعد اكتشافني سر هذه الصخرة بأسبوعين لتسألني عما فعلته بحاجيات مدحت وأخبرتها

أني أرسلتها إلى عائلته وأنهم يشكرونها للغاية ويريدونها أن تأتي إليهم لتزورهم قريباً.. وبالطبع هي اعتذرت بشكل لطيف وأنا متأكد بأنها تناست مدحت بعائلته بحاجياته بكل شيء يخصهم بعد تلك المكالمة، وهذا كان من حسن حظي بالطبع.. أما الضابط معرفتي فلم أقم بالاتصال به بعد ذلك أبداً حتى لا يعلم أحد بأي شكل من الأشكال عن امتلاكي لهذه الصخرة ويحاول سلبني كنزي؛ ولهذا قمت بحرق جميع حاجيات ومذكرات مدحت فراج حتى لا يعلم أي شخص عن ماهية هذه الصخرة أبداً ما حيت.. لقد فكرت كثيراً بالأشياء التي أستطيع فعلها بتلك الصخرة وكانت أفكارى وطموحاتي عظيمة بالفعل.. نويت أن أستخدمها لمصلحتي ولحل جميع المشاكل التي أراها سهلة الحل وتجعل الجميع يشعر بالسعادة، وكنت أندهش من عدم تنفيذ أحد لتلك الأمور البسيطة التي ستجعل الجميع سعيداً ولكن لتنفيذ مخططاتي تلك كان يجب أن أقوم بالتجربة الذاتية كما أسميها..

بتلك اللحظة توقف رامى عن سرد ماضيه وأخذ ينظر للجميع بتردد وبالذات جهة سراج الذي كانت معالم الحيرة وعدم التصديق بادية على وجهه فربت أميرة على كتفه وهي تطمئنه: «رامى.. لا تقلق.. أنا معك»..

.. كان يعتلي عصام الفضول الشديد وسئم من توقفه عن سرد ما حدث معه.. فاستحته سريعاً: «أخبرنا هيا.. ما هي تلك التجربة الذاتية؟»..

نظر رامي إلى سراج الذي كانت علامات الدهشة والذهول مستمرة على وجهه ثم نظر جهة أميرة التي أخذت تومئ له برأسها أن يكمل.. فأخذ نفساً قوياً وزفره ببطء ليهدئ نفسه وتابع حديثه..

«لقد قمت بالتفكير كثيراً بتنفيذ الخطط التي كانت برأسي واقتنعت بأنني أصبحت شخصاً لا يهزم قادراً على فعل أي شيء.. وهنا خطرت برأسي فكرة كانت مجنونة للغاية ولكنها كانت تؤرقني كثيراً وكانت جزءاً لا يتجزأ من خططي المستقبلية.. لقد قررت أن أقوم بتجسيد بشر عن طريق أفكارى»..

ألمت الدهشة بالجميع وأخذ عصام الفضول الشديد وهو يضع يده على فمه متعجباً مندهشاً فوق الاندهاش الذي كان يجتاحه بالفعل.. فتابع رامي حديثه لهم:

«ولكنه كان أمراً بغاية الصعوبة لم أستطع تجسيد أي شيء.. كلها كانت كالتخيلات.. كانت أشياء أشبه بالصور الهولجرامية سرعان ما تظهر وسرعان ما تختفي.. لم أقبل بالفشل بهذا الأمر.. أخذت أقرأ عن علوم التشريح والأعضاء البشرية وأخذت أتعلم الرسم بيدي والنحت، والفضل يعود إلى ذاكرتي التي أصبحت قوية للغاية ووصلت لدرجة أنني أرى الشيء فأحفظه من المرة الأولى.. لقد امتلكت أعظم قدرة بشرية من وجهة نظري.. لقد أصبحت أمتلك ذاكرة فوتوغرافية.. مكنتني تلك الذاكرة من حفظ أي شيء في لحظات بسيطة ولكن الحفظ شيء والتطبيق شيء آخر.. استغرقت شهراً كاملاً أمارس الرسم والنحت وأصبحت لدي مهارة معقولة بهما

ولكن عندما شعرت بأني أستطيع فعل ذلك وتجسيد البشر لم أستطع فعلها أبدًا.. وهنا أخذت أفكر حائرًا لماذا لا أستطيع فعل ذلك مهما حاولت؟ وتذكرت العامل المهم من خلاصة تجاربي أنه كلما كان تقبل البشر لشيء معتادين عليه كان التجسيد ناجحًا.. وهنا اختمرت فكرة بعقلي بأن أقوم بمحاولة تجسيد شيء أعرفه كثيرًا وأعلم كل شيء حوله إلا وهو أنا.. لقد قررت أن أجسد نفسي»..

نظر له سراج مصدومًا وهو فاغر فمه لا يدري ماذا يقول، وشعر عصام بالفضول يجتاحه فأخذ يحثه على استكمال حديثه: «هيا.. هيا أخبرني.. هل استطعت فعل ذلك؟ هل نجحت؟ أخبرني بالتفاصيل المملة وكيف كنت تفكر بصناعة نفسك تلك؟»..

أخذ رامى يتحاشى النظر إلى سراج، وظل يتحدث إليهم وهو متوتر للغاية: «حسنًا.. لقد كنت أعتقد بأني أعلم نفسي جيدًا حينها ولكن اكتشفت أنني حتى لا أحفظ ملامح وجهي عند محاولة رسميه له لأنني لا أراه بشكل مستمر، وهذه كانت صدمة كبيرة لي.. البشر يعتقدون أنهم يعلمون أنفسهم ولكن بالفعل نحن لا نرى أنفسنا إلا نادرًا فلا ندري كيف يرانا الآخرون من خلال عيونهم.. وللتغلب على هذا الأمر فكرت بإحضار كاميرات كثيرة وتوصيلها بالمنزل ومراقبة نفسي من خلالها ولكن هداني تفكيري إلى شيء أبسط من هذا بكثير ولكنه فعال أكثر.. لقد قمت بتحويل غرفة نومي كاملة إلى مرايا كبيرة.. الأرض والسقف والحوائط جميعها مرايا حولي.. لقد استطعت أن أرى وجهي وجسدي وطولي وجميع ملامحي.. أخذت

أجلس كثيرًا عاريًا أتابع تفاصيل جسدي وعضلاتي وأشياء كثيرة جدًا كنت أجهلها عن جسدي، وبهذه الطريقة أخذت أحسن من غذائي ومن بنية جسدي.. استمر هذا الأمر لما يقارب الشهرين.. أصبحت خلاهما مهووسًا بنفسي أشاهدها بكل صباح ومساء ومهووسًا دائمًا برؤية ملاحمي حتى وأنا بالخارج بسيارتي أو بعلمي كنت دائمًا ما أضع المرايا الكبيرة حولي حتى أرى نفسي باستمرار ولكن كنت أفعل ذلك وأنا أحاول إخفائه عن الجميع، وكان هذا صعبًا للغاية.. أن تكون مهووسًا بشخص ما شيء وأن تكون مهووسًا بنفسك هو شيء آخر.. حتى لا أشق عليكم.. مع نهاية اليوم الخامس والأربعين من تجاربي على جسدي وبعد وجود المرايا حولي دائمًا حدث أن نجحت فجأة إحدى تجاربي.. لقد ظهرت أمامي.. جسدي العاري ظهر على السرير أمامي كما تخيلته بالضبط.. ليس بالضبط بالطبع لأنها كانت تجربتي الأولى ولكم كنت أشعر بالغرابة الشديدة وأنا أتمس الجسد أمامي أو بوصف أقرب شكل أقرب إلى جسدي.. إنه أنا ولكن في نفس الوقت لست أنا.. لقد نجحت بتجسيده لمدة 12 ثانية بالضبط.. تخيل تدريب شهرين تقريبًا أنتج 12 ثانية ولكن بعد أن شاهدت نجاحي ذلك لم أتوقف ليلاً أو نهارًا من حينها.. لقد أخذت إجازة طويلة من عملي وأصبحت أمارس تدريبي على تجسيدي كل لحظة من استيقاظي حتى نومي.. وهنا نجحت بظهوره بشكل مُرضٍ لي ولمدة عدة ساعات.. أخذت أمارس الكثير من التجارب على نفسي.. أقصد على جسدي الجديد هذا.. لقد قمت بشق الجسد ولكن وجدته فارغًا من الداخل ولا يوجد به دماء أو أعضاء، وهنا قمت بإضافة تفاصيل

أخرى جديدة بتدريباتي تلك، فقامت بتخييل تفاصيل أكثر وأكثر عن أعضاء الجسد الداخلي أولاً والدماء وجريانها.. وبعد محاولات كثيرة كثيرة للغاية فاشلة نجحت بالفعل بتجسيدها.. لا أخفيكم سرًا.. لقد أعجبت بنفسي للغاية، لقد أظهرت تلك الصخرة قدرات ذهنية لدي لم أكن أحلم يوماً من الأيام بالتفكير بها وليس امتلاكها مثلما أفعل الآن.. وبالنهاية لقد قمت أخيراً بتجربة ناجحة 100% لأرى جسدي أمامي به أدق التفاصيل التي حولي.. أدق التفاصيل التي تفكر بها جميعها قد فعلتها والأعضاء الداخلية والدماء وجميع ما تتخيل.. لقد قمت بصناعة.. لقد أصبحت أرى نفسي شخصاً عبقرياً يستطيع إنتاج شخص كامل من خلال عقله.. ولكن حدث شيء جعلني أشعر بأن كل هذا كان مجرد هباء منثور.. لم أستطع تخيل أي شخص أبداً إلا نفسي فقط هي التي كنت أستطيع تخيلها بسهولة قليلاً ويتجسد أمامي.. أما عندما أحاول أن أصنع آخرين فكان لا يقترب حتى من وصفه بالجسد، ولا أعلم لماذا.. قد يكون السبب أنني لا أعلم تفاصيلهم كاملة ولم أشاهد أجسادهم كثيراً مثلما فعلت مع نفسي، والشيء الآخر الذي كان يشق علي أن الجسد كان يدوم لعدة ساعات فقط أكثرها 12 ساعة ثم يختفي وأقوم بإعادة كل شيء من الصفر مرة أخرى.. والشيء الأخير الذي أرقني بشدة أن هذا الجسد لا يتحرك.. لا يتنفس.. لا يفعل أي شيء.. إنه مجرد شكل لجسد فقط مصنوع بحرفية متقنة ولكن هذا شيء سهل الآن ويتم فعله بجميع أنحاء العالم.. فلا يوجد شيء مميز به إلا أنني أستطيع صنعه من رأسي

فقط.. ولا أعلم كيف أتحكم بتلك الآلية أيضًا إنما هي تحدث فقط..
فأنا لا أتحكم بالصنع ولكني أتحكم بالمنتج النهائي»..

هنا قاطعة عصام مبتسمًا: «بالطبع ماذا كنت تتوقع أكثر من ذلك؟
إنك مجرد مقلد ولكنك لست إهًا تصنع شيئًا وتدب به الروح».

أجابه رامي بثقة: «لا أعتقد أنك كنت ستتقبل هذا الأمر إذا كنت
بمكاني.. لقد كنت أشعر بالفعل أنني أستطيع فعل كل شيء.. لقد
حاولت مرارًا أن أجعل جسدي هذا يحرك يده.. يحك أنفه.. يحرك
شعره من رأسه.. ولكن لم يحدث أبدًا مهما حاولت.. وهنا شعرت
باليأس.. لقد كانت خططي كلها قائمة على تلك التجربة إذا نجحت
فإني بالفعل سوف أصبح قادرًا على فعل أي شيء.. ولكن تأتي الرياح
بما لا تشتهي السفن، حيث حدث شيء غريب بآخر تجربة فعلتها كان
له أثر كبير على طريقة تفكيري بعد ذلك.. فلقد قمت بصناعة جسدي
مرة أخرى بعد تحضير لوقت طويل وصنعت جسدًا أقل ما يقال عنه
أنه مثالي.. الشعر والعيون والأنف.. تلك التفاصيل التي تجعل الفرق
بين العمل المتقن والعمل الخارق ظاهرًا بوضوح.. لقد فعلتها.. لقد
صنعت جسدًا خارقًا بالنسبة لي كنت أراه أقوى من جسدي الحالي
حتى.. قمت بما أفعله دائمًا معهم.. محاولة جعلهم يتحركون، ولكن
فشلت كالعادة، وبعد أن سئمت قررت التوقف اليوم وسأحاول
معاودة الكرة بالغد بعد أن أكون قد صفت ذهني وحاولت التفكير
بأفكار جديدة تجعلني أنجح تلك المرة.. فجلست أفكر وأنا أنظر إلى
الجسد لعدة ساعات وأنتظره أن يختفي ولكن جسدي لم يختفٍ.. مرت

12 ساعة ولم يختفِ الجسد.. لقد شعرت بالفرح بالبداية أني استطعت زيادة معدل بقاء الجسد أكثر من المعتاد.. ولكن مرت 24 ساعة وشعرت بالفرح والسرور أيضًا.. ولكن اليوم أصبح اثنين وثلاثة وأربعة وخمسة أيام.. أسبوع كامل لم يختفِ هذا الجسد.. شعرت بالغرابة مما يحدث.. لم يقم جسد صنعته من قبل بالبقاء أكثر من 12 ساعة ولكن هذا الجسد مختلف.. لقد مكث لمدة أسبوع كامل وأصبح هذا مشكلة لي.. لقد انتهت إجازتي وأصبحت مجبراً على العودة إلى العمل.. لقد بدأت أشعر بالذعر بالفعل.. شيء رائع أن ترى جسدك أمامك لمدة عدة ساعات ولكنه يتحول إلى شيء شاذ عندما تجد نفسك بمكان آخر بمنزلك.. أذهب إلى المطبخ لأحضر طعاماً لي وأعود لأجد جسدي موجوداً بغرفة المعيشة.. لقد شعرت بالخوف ينهشني.. هذا شيء مهما شرحتة لكم لن تعوا ما قد كنت أمر به يومياً وأنا أستيقظ من نومي لأشاهده أمامي.. أذهب إلى الحمام وأعود فأجده بغرفتي.. لقد نقلته إلى عدة أماكن بالمنزل ولكن كنت دائماً ما أخطئ وأدخل وأشاهده أمامي.. جسدك أنت ولكنه لست أنت.. أنت تقف أمامه وهو ممدد لا يحرك ساكناً.. لقد جعلته يشبهني تماماً ولكن لم أكن أعلم أن نجاحي هذا سيجعلني أشعر بالخوف مما فعلته.. لقد أصبح مني اثنان الآن.. لقد كنت أخشى أحياناً أن أنام وهو معي بنفس الغرفة.. لقد كنت أخشى أن يستيقظ ويأخذ روحي ويجعلني أنا جسداً بلا روح بدلاً منه.. لقد استحوذ هذا الأمر علي بقوة حتى إنني رأيت كثيراً بأحلامي يستيقظ من سباته يضع يده على عنقي ويسلبني روحي وأصبح أنا جسداً غير قادر على الحراك.. لقد ظلمت

أستيقظ فزعاً من هذا الحلم لعدة أيام.. وهنا خشيت أن يندمج عقلي مع الصخرة الملعونة تلك ويصنع هذا الأمر بالفعل.. لقد كنت أخشى من قوة عقلي بهذا الوقت.. ماذا لو حدث هذا دون أن أعلم؟ فكرت بأن أصنع جسداً جديداً ليختفي هذا الجسد القديم، ولكن ماذا لو أن هذا الجسد لم يختفِ حينها؟ ماذا لو ظهر جسد آخر ولم يختفِ هو أيضاً وأصبح لدي بدل الجسد جسداً فكيف سأستطيع التعامل معهما حينها؟ ماذا لو اتحدا ضدي؟ ماذا لو تقاتلا على من يستحوذ على روعي؟ مواجهة شخص بالتأكيد سوف تختلف عن مواجهة شخصين.. تخيل شخصين لهما نفس تفكيرك ولهما نفس بنيتك الجسدية يتصارعن معك من ستكون له الغلبة؟ لقد اقشعر جسدي حينما كنت أفكر هكذا وأنا بعلمي فصرفت نظري عن تجسيد أشخاص آخرين نهائياً.. وكانت دائماً تسري القشعريرة أسفل رأسي حينما أعود إلى المنزل لأرى هذا الجسد.. ولكن كنت يجب أن أراه يومياً، بل كل عدة ساعات، بل وصلت إلى كل عدة دقائق.. كنت أتمنى بكل لحظة حينها أن يختفي من أمامي ولكن تبدل الأمر إلى شيء آخر بدلاً من مراقبته على أمل أن يختفي أصبحت أراقبه حتى أطمئن أنه لم يقف من مكانه ليطيح بي ويأخذ روعي.. لقد كنت أصرخ كالنساء عندما أشاهد نفسي بأي مرآة بالمنزل.. كنت أعتقد بأنني أراه هو وأنه أصبح لديه روعي بالفعل ولست أنا.. حينها شعرت بأنني ميت وأن ما يطوف بين الجميع الآن هي روعي.. لقد شككت بعقلي وحواسي وبكل شيء.. حطمت جميع المرايا التي بالمنزل.. وغرقتي أصبحت ركاماً وكنت لا أقرب منها أبداً.. بمعنى أدق لقد أصبح وجود هذا الجسد شيئاً

سيجعلني مجنوناً بالفعل.. وشككت لحد اليقين بأنه لا يوجد جسد من الأساس وأني أتخيل كل تلك الأشياء برمتها منذ البداية.. وهنا أصبحت تلك الصخرة التي كنت أعتقد بأنها مصدر قوتي أصبحت مصدر جنوني وفقداني لعقلي.. لقد فكرت مرات كثيرة بأن أذهب إلى الطبيب الذي عاجني منذ البداية ولكن ماذا سأقول له؟ أي أستطيع أن أحول أفكارني إلى الواقع عن طريق صخرة بيضاء صغيرة بلمس المعدن؟ واني أخاف من جسد يعيش معي صنعته بعقلي وأخشى أن يأخذ روعي؟ هل سيعتقد لوهلة أي عاقل بالفعل؟ لم أستطع أن أحتمل أكثر من ذلك وقررت أن أتخلص من ذلك الجسد حتى لا أفقد أنا عقلي.. لكن كيف سأتخلص منه؟ هداني تفكيري إلى أن أذهب إلى منزلي القديم الذي كنت أسكن به قبل أن أعمل بالجريدة.. وأترك هذا الجسد هناك فإن اختفى بعد ذلك فسوف أكون ممتناً، وإن لم يختفِ فسيكون هذا سجنه الحالي حتى أفكر بشيء آخر.. أهم شيء ألا أجتمع مع هذا الجسد بمكان واحد بعد الآن.. اتخذت قراري وبالفعل حملت الجسد في سيارتي بحرص شديد مع اقتراب الفجر وانطلقت بطريقي إلى منزلي القديم محتمياً بهدوء الليل وقوة الظلام وكنت أشعر بالتوتر الشديد كلما نظرت إلى مرآة السيارة لأشاهده خلفي.. لا أخفيكم سرّاً لقد أصبحت أخشى المرايا بشدة ولكن يجب أن أتعامل مع خوفي هذا كل يوم وبكل مكان حتى لا يظن الناس أن بي خللاً ما.. طمأنت نفسي بأنه بعد عدة ساعات سأتخلص من هذا الكابوس حتى ولو كان لوقت مؤقت.. أثناء اختراقي لسكون الليل بسيارتي شاهدت ما جعلني أكاد أبلل بنطالي.. سيارة تلاحقني من الخلف تصدر عدة

أضواء معروفة باللون الأزرق والأحمر وتصدر سرينتها الشهيرة.. كما تخيلتم بالضبط.. إنها سيارة شرطة تلاحق سيارتي.. كاد قلبي يقفز من بين ضلوعي ويشيب شعر رأسي.. لماذا تطاردني سيارة الشرطة الآن؟ هل علموا بالأمر؟ هل الشرطي الذي طلبت منه أن يبحث عن عائلة مدحت فراج توصل إلى شيء ما جعلهم يطاردونني؟ هل وهل وهل.... مئات الأفكار تزاومت برأسي وشلت تفكيري، لا أدري ماذا أفعل أو ماذا سأقول.. لقد أيقنت أنني سوف يقضى عليّ تمامًا الآن.. وأنا أشاهد سيارة الشرطة تزيد سرعتها وتتخطاني بعنف.. إنهم الآن سوف يغلقون طريق الهروب علي وسوف يحيطونني لكي أقع بقبضتهم.. شعرت بالخوف الشديد ونويت ألا أقاوم وأكتفي بالاستسلام للأمر الواقع وأرضخ لمصيري.. ولكن لم تقف سيارة الشرطة لتمنع هروبي أو شيئاً من ذاك القبيل، بل زادت في سرعتها ثم دلفت إلى أول شارع يقابلها على الجهة اليمنى.. إذا هم لم يكونوا يطاردونني أنا.. عندما شاهدت السيارة تختفي من أمامي وابتعد صوت سرينتها تدريجياً.. هنا ارتخت أعصابي ولم أستطع أن أحرك ساكناً فتوقفت بالسيارة بوسط الطريق وأخذت أضع رأسي على مقود السيارة أحاول أن أستجمع قواي من جديد.. ظللت على هذا الحال لمدة طويلة من الوقت ثم استجمعت هدوئي وضحكت ساخرًا من نفسي: لماذا كنت خائفًا لهذه الدرجة؟ أنا لم أفعل شيئًا خاطئًا لكي تطاردني الشرطة.. ولكن هاتفًا هتف بأذني: ماذا لو قاموا بتفتيش السيارة ووجدوا جسدك؟ ماذا سيكون رد فعل الشرطة؟.. وهنا طرأت على رأسي فكرة شيطانية.. ماذا لو وجدت الشرطة جسدي؟

ماذا سيحدث؟.. ابترسمت لنفسي وأنا أنظر لعينيّ بالمرآة.. إنها فكرة عبقرية ولكنها خطيرة بنفس الوقت.. ظلت تلك الفكرة تشغل تفكيري وأنا أقود سيارتي حتى ذهبت إلى شقتي.. حملت جسدي بحرص وهو مغطى بقطعة قماش كبيرة وصعدت إلى الشقة ووضعته بإحدى الغرف وأخذت أفكر بعمق في تلك الفكرة التي خطرت لي.. لو تم تنفيذ هذه الفكرة جيداً فسوف أخرج منها بفوائد عظيمة.. حيث أولاً سوف أستطيع أن أقيس رد فعل أناس كثيرين على مدى تقبلهم لشيء غريب تم تجسيده من رأسي مثل أن يجدوا جسداً ميتاً لشخص حي.. إنه شيء غريب ومتناقض.. هل سيكون تقبلهم للأمر كبيراً أم لا؟ وكيف سينعكس هذا على مدى قوة تجسيد الجسد بالواقع؟ الأمر الثاني هو أنني سوف أتخلص من هذا الجسد ولن أخشى أن تجده الشرطة وأكون في موضع المشتبه به.. بل إنني سوف أجعل الشرطة هي التي تتخلص منه بنفسها من أجلي.. أخذت تحتمر برأسي الفكرة أكثر وأكثر ولم أنم تلك الليلة أبداً.. في الصباح الباكر ذهبت إلى عملي كالمعتاد وأخذت أضع سيناريوهات عدة لما سيحدث لو وجدت الشرطة هذا الجسد ماذا سيكون رد فعلهم؟ ماذا سيحدث إذا اختفت فجأة بين أيديهم؟.. ماذا سيحدث إن لم يروا الجسد من الأساس؟ ماذا سيحدث لو قاموا بتشريحيها؟ ماذا عن البصمات والحمض النووي لهذا الجسد؟ هل سيتطابق معي أم سيكون مختلفاً؟ ولو كان مختلفاً عن بصماتي والحمض النووي الخاص بي فهل سيكون له حمض نووي من الأساس؟ اهتممت بهذا الجزء جداً.. وفكرت بالفعل أن أذهب إلى أحد المعامل وأخذ أثراً من هذا الجسد وأقارنه بحمضي النووي، ولكن

فكرت بأن الشرطة قد تقوم بالبحث خلفي وتتوصل لذهابي وقيامي بهذا التحليل، وهنا سوف تكون شكوكهم كبيرة حولي بأني خلف كل هذا الأمر برمته.. ظللت أفكر كثيرًا وأنا أضع أسئلة وتوقعات حول خطتي تلك لمدة عشرة أيام متتالية كنت كل يوم منها أقاوم رغبتني بتنفيذ تلك الفكرة، وفي نفس الوقت التلخص من هذا الجسد.. ولكن أخذت أتريث وأحاول تغطية جميع الجوانب بقصتي ومحاولة توقع ردود الفعل المختلفة لهذا الأمر.. اقترب على وجود هذا الجسد بالواقع ما يقارب العشرين يومًا، وهنا يئست أن يختفي هذا الجسد من نفسه وأخذت أباشر خطتي، وكان من أهمها إطلاق النار على ظهر هذا الجسد حتى يظهر للجميع أنها جريمة قتل، والأمر الثاني هو كيفية إبلاغي عن هذه القضية.. استخدمت سلاحًا ناريًا أخذته من أحد المجرمين المعروفين وأعدته له مرة أخرى بمقابل مادي كبير وأخبرته أنني كنت أستخدمه كعينة لأحد تحقيقاتي الصحفية.. الأمر الثاني هو كان اختياري لأحد معارفي من ضباط الشرطة لكي أقوم بإبلاغه عن هذه الجريمة التي لم تحدث وعن اكتشافني لجثتي.. وبعد تفكير وبحث طويل وقع اختياري على العقيد سراج توفيق»..

هنا أخذ سراج يهز رأسه بضيق وهو ينظر للأرض ويضم يديه، وأخذ يعطي ظهره لرامي وهو يستمع إليه دون أن يضطر إلى مشاهدته.. أخذ رامي ينظر إلى سراج بإحراج شديد، وأخذ يتلع ريقه بقلق ويتابع حديثه:

«ثم ذهبت في أحد الأيام إلى مكان هادئ على جانب الطريق ووضعت الجسد هناك بجهة غير ظاهرة وتأكدت من عدم وجود شخص هناك يراقبني، ثم حفظت المكان عن طريق الـ جي بي اس GPS بهاتفني ثم استجمعت شجاعتي وحفظت جيداً القصة التي كنت سأخبرها للشرطة وذهبت للسيد سراج وأعتقد أنكم تعلمون باقي ما حدث حينها»..

هنا صرخ سراج بصوت قوي وهو يعطي لرامي ظهره: «لماذا؟».. ثم أدار له جسده وهو يشبك يديه على صدره: «أخبرني لماذا اخترتني.. لماذا اخترت سراج توفيق من بين جميع الضباط الذين تعرفهم؟»..

ابتلع رامي ريقه وأخذ ينظر للأرض خجلاً: «لأنك لا تعرفني جيداً وفي نفس الوقت مركزك قوي ومرموق، ولأنك....».. قاطعه سراج بغضب: «ولأني أحقق.. أنا ضابط مغفل أحقق.. أليس كذلك؟»..

شعر رامي بالقلق وأخذ يحاول أن يحسن من موقفه: «لا بالطبع.. أنا.. أنا...»..

.. قاطعه سراج وهو يتحدث إليه بعصبية شديدة ويقرب منه ببطء: «أنت.. أنت ماذا؟ أتعلم ماذا شعرت حينما شاهدت جثتك اللعينة تلك؟ أتعلم بماذا مررت بسببك وبسبب ما فعلت؟ لقد ذهبت إلى الجحيم.. إلى تلك المدينة اللعينة بسببك.. كل ما حدث

لي من مصائب ومشاكل وما زالت تحدث لي حتى الآن بسببك..
أفتقد زوجتي وأولادي.. أفتقد عملي وحياتي وأعيش الجحيم كل
يوم هنا بجهينة بسببك.. وكل هذا في النهاية يكون تجربة قمت أنت
بفعلها!!).. أخذ يمسك بتلابيب رامي بغضب شديد وهو يهز جسده
بعنف ويصرخ به، وعصام يحاول تخلص رامي من يده، بينما أخذت
أميرة تضع يديها على فمها خائفة للغاية وهي تشاهد سراج يصرخ
برامي: «أيها اللعين.. أعد إلي حياتي التي سلبتها أيها اللعين.. سوف
أقتلك أيها الوغد.. سوف أقتلك»..

استطاع عصام أن يخلص رامي من يد سراج بصعوبة شديدة،
وأخذ رامي يلتصق بالحائط خائفاً من رد فعل سراج.. حاول عصام
تهدئة سراج وهو يتحدث إليه بنبرة هادئة: «اهدأ يا سيد سراج.. اهدأ
أنت رجل قانون وتعلم أن العنف ليس الحل هنا.. اهدأ أرجوك»..

أخذ سراج يفرك يديه وهو يتسهم بغیظ شديد ويتحدث بعصبية
كبيرة: «كيف أهدأ؟! كيف أهدأ؟! إنه يخبرني أن جثته وما مررت به
جميعه كان تجربة من صنعه هو.. كيف أهدأ؟! أهدأ كيف?!»..

أخذ يتحرك سريعاً بمكانه وهو يمسك رأسه: «لقد كان أحمد على
حق.. لقد أخبرني منذ البداية بأن رامي اللعين ذلك هو الذي دبر كل
تلك الأمور وأنا لم أصدقه، وأخبرته بأن رجل الشرطة لا يتبع حدسه
وإنما يتبع الأدلة.. كم كنت مغفلاً أحمق! ابن خالتك الصغير كان أذكى
منك يا سراج.. أيها الأحمق.. أيها الأحمق»..

أخذ رامي يتحدث إلى سراج محرّجًا: «يا سراج باشا صدقني بالفعل أنا لم أقم بهذا الأمر للتقليل منك أو لأني كنت أعتقد بأنك أحق أو شيء من هذا القبيل.. كل ما بالأمر أني قمت بتجربة وقادني القدر إليك.. والدليل على كلامي هذا أني لم أقم بتوريطك بالاختبار التالي الذي صنعه»..

نظر له سراج مندهشًا وهو يشيح بيديه مصدومًا: «التالي؟! هل قمت باختبار آخر؟»..

أومأ رامي برأسه مصدقًا على حديثه: «نعم.. لقد قمت باختبار آخر وعلى عدد كبير من الناس هذه المرة»..

انتاب الفضول عصام وأخذ يتحدث إليه متلهفًا: «اختبار ماذا؟ أخبرنا بسرعة هيا».

أخذ رامي يتابع حديثه بينما أخذ سراج يضرب كفيه متعجبًا:

«بعد أن علمت باختفاء الجثة عندما زارني السيد سراج بمنتصف الليل بأحد الأيام وأخبرني بغلق القضية ونسيان ما حدث شعرت بالفرح الشديد يتتابني.. لقد تخلصت من هذا الجسد اللعين» وفي نفس الوقت انتهت القضية من جهة الشرطة.. هذا كان أفضل سيناريو لي ولم أتخيل يومًا أن يصير الأمر بسلاسة هكذا.. وتشجعت حينها على اتخاذ الخطوة التالية.. لقد فكرت بأنني يجب أن أجعل ما أتخيله برأسي ويتجسد بالواقع يتحرك.. وبعد أن فكرت كثيرًا اكتشفت أني أريد لشيء جامد أن يتحرك بسهولة وهذا أمر مستحيل «هذا كتعليم طفل

رضيع الطيران.. يجب أن أبدأ من البداية تمامًا.. يجب أن أتعلم الحبو أولاً.. وبدأت بتجسيد أشياء صغيرة وغير لافتة حتى إذا لم تحتف لا تسبب لي مشكلة مثلما حدث مع جسدي من قبل.. وبالفعل أخذت أقوم بالتجارب على بعض الأشياء المختلفة» ونجحت بعد معاناة وكثرة تدريبات ذهنية قوية على التحرك أن أجعلها تتحرك من مكانها إلى اليمين أو اليسار وتعود لمكانها مرة أخرى، وكان هذا بالنسبة لي انتصارًا عظيمًا، فبعد عدة صدمات وأصابني الفشل كثيرًا نجحت بتحريك الأشياء أخيرًا، حتى ولو كان بشكل آلي وبسيط، ولكنها بداية مرضية بالنسبة لي.. وأخذت أقوم بالتدريبات لفترة قصيرة حتى كنت عائدًا من عملي بأحد الأيام وكنت أتصفح مواقع التواصل الاجتماعي وشاهدت على صفحة أحد الأصدقاء لدي مقطعًا من فيلم اسمه scream «الصرخة» ولفت انتباهي شكل القناع الذي يرتديه القاتل في الفيلم وأخذت أتخيل مشهدًا برأسي لهذا الأمر.. وهنا تعلق عقلي بتلك الفكرة وأخذت أفكر بها لمدة طويلة.. ماذا لو صنعت شيئًا مثل هذا وجعلته بمكان عام ليشاهده عدة أشخاص وبنفس الوقت أرى كيف سيتقبله هؤلاء الناس وهل سيتحرك إذا ما جعلته كذلك أم لا.. وهنا قررت أن أطبق ثلاثة أشياء بتلك التجربة لكي أعتبرها ناجحة.. الأول أن يكون ما صنعتته حجمه كبير حتى يستطيع عدد كبير مشاهدته.. الثاني أن يكون بمكان عام به كثير من الناس.. الثالث أن يكون شيئًا مألوفًا لدى أناس كثيرين.. ولكن لم يهدني عقلي لشيء يجمع تلك الأشياء الثلاثة معًا.. لقد كنت أفكر كثيرًا ولم أجد هدى حتى حدث بأحد الأيام أن كنت ذاهبًا لمقابلة أحد زملائي بمقهى بوسط

البلد وهنا شاهدت شيئاً ألهب خيالي بالحال (جرافيتي) إحدى الرسومات الكبيرة على إحدى الحوائط بأحد شوارع ميدان التحرير لهيكل عظمي ضخمة يرتدي عباءة ويده منجل حديدي كبير.. توقفت مشدوهاً أمام تلك الرسمة وشعرت بأنها ضالتي المنشودة فأخذت هاتفني وقمت بتصويرها واحتفظت بها.. أنهيت لقائي وعدت إلى منزلي أتفنن بالنظر إلى تفاصيل تلك الرسمة الرائعة وأخذت أتخيلها برأسي إذا ظهرت لعدد كبير من الناس فماذا سيكون رد فعلهم؟ وهذا شيء مهم لتجاري أن وجدت الرسمة وهذه هي الخطوة الأولى من التجربة، والخطوة الثانية كانت اختيار المكان، والثالثة والأهم كيف سيراه الناس على أنها شيء مقبول.. إنها مقبولة بالفعل للبعض، ولكن للمعظم غير معروفة، وهنا طرأت لرأسي فكرة أعتقد أنها عبقرية.. سأقوم بوضع رسم مصغر لتلك الشخصية على أحد الجدران بالقرب من مكان ظهورها ولكن بحجم مناسب يجب أن يكون ظاهراً للأعين ولكن لا يحوز اهتمامهم.. وبالفعل بعد عدة أيام أخذت أبحث عن المكان المناسب لهذا الحدث واخترت بالنهاية كوبري عباس وقمت بالتواصل مع أحد مصممي الجرافيتي المعروفين على الإنترنت وأرسلت له مبلغاً مالياً دون أن يعلم شخصيتي الحقيقية، وطلبت منه أن يرسم تلك الرسمة على أحد الجدران القريبة من مدخل كوبري عباس فكان أحد شوارع شارع مراد هو المكان المنشود.. وضع تلك الرسمة هناك وبعد عدة أيام مررت بسيارتي على هذا المكان أكثر من مرة وكنت أشاهد الرسم واضحاً ولكنه قد يكون عابراً للسائقين لا يعلق بذهنهم، ولكنه بالتأكيد يترسخ بعقلهم الباطن.. فصدقني

العقل الباطن لا ينسى شيئاً شاهدناه على مدار حياتنا كلها حتى ولو مرة واحدة.. ظللت أذهب إلى هذا المكان يوميًا حتى وجدت أن عمال المحافظة قد قاموا بمسح تلك الرسمة وهنا اكتمل الإعداد لخطتي ولم يتبق إلا تنفيذها.. ذهبت إلى أسفل كوبري عباس مساء أحد الأيام وقمت بتجربة ظهور تلك الرسمة، وبالفعل نجحت في إظهارها وجعلها تقوم بحركات بسيطة للرأس مرة لليمين ومرة لليسار، وأضفت تفصيلاً صغيرة.. إنه يختفي إذا حاول شخص أن يلمسه، وبعد تطبيق هذا الأمر لثلاث مرات متتالية وتم ما أردت انتظرت مرور يومين آخرين حتى جاءت نهاية الأسبوع يوم الخميس الساعة الثالثة والربع عصرًا اتخذت أحد الأركان بعيدًا عن الأنظار واخترت بناظري مكانًا مناسبًا فوق سور الكوبري، وقمت بالتركيز الشديد على ما برأسي قليلًا.. وها هو يظهر أمامي بكل تفاصيله الرائعة التي أتقنتها.. حاصد الأرواح يقف بشموخ فوق سور الكوبري ورأسه يتحرك يمينا قليلًا ثم يتوقف ثم يتحرك بعد ذلك يسارًا.. وللحق لقد كان مشهده مخيفًا بالفعل وهو يظهر بكل وضوح تحت أشعة الشمس وخلفه مشهد المياه والمباني البعيدة.. كانت فرحتي شديدة للغاية عندما وجدته لفت انتباه المارة فوق الكوبري.. إذا لقد لاحظوه أمامهم، وهذا كان شيئًا فوق الوصف بالنسبة لي عندما تجد أناسًا كثيرين يتفاعلون مع شيء صنعته من رأسك.. ولكن فرحتي لم تدم طويلًا وكاد قلبي يقفز من بين أضلاعي عندما شاهدت بعض السيارات تصطدم ببعضها فوق الكوبري.. لم يأت في بالي نهائيًا أنه قد يحدث ذلك على الرغم من أنه شيء بديهي ولكن إلحاح تنفيذ التجربة

برأسي جعلني أتناسى كل شيء آخر.. وهنا أردت أن أجعل حاصد الأرواح ذلك يختفي حتى لا تحدث وفيات وأكون مسئولاً عن إزهاق الأرواح.. فلم يكن هذا يمر بخاطري أبداً أثناء التفكير بتنفيذ تلك التجربة.. وهنا بالطبع لم يختف حاصد الأرواح لأني وضعت شرطاً مسبقاً أنه يختفي عندما يحاول أحد ملامسته.. اللعنة!! لماذا لم أفكر من قبل أن أفعل تلك التجربة؟ وهنا اكتشفت أنه مهما كانت الفكرة رائعة وعبقريّة برأسك لكن عند تنفيذها بالواقع قد تتحول إلى شيء آخر تماماً.. لم أشعر بنفسي إلا وأنا أتناسى كل شيء وأذهب إلى جهة السيارات التي اصطدمت ببعضها لكي أرى ماذا حدث لركابها، فأنا كنت أشعر بأني مسئول بالفعل عما أصاب هؤلاء البؤساء واندمجت وسط المارة وسائقي السيارات الآخرين ولكن وجدت المصابين غير عابئين بإصابتهم، وكل تركيزهم انصب على حاصد الأرواح أعلى سور الكوبري.. وحينها هدأ قلبي قليلاً لعدم وجود إصابات خطيرة وتعلق بصري بمشاهدة ردود أفعال الآخرين وهم يشاهدون تجسيد مخيلتي.. لقد امتلأت غروراً ونشوة وأنا أشاهدهم يصرخون وخائفين من شيء ما صنعه.. لقد كادت ضحكاتي تفضحني وسط كل هؤلاء المندهشين الخائفين.. توقفت حركة السيارات فوق الكوبري تماماً.. وهنا تراجعنا إلى خلف الحشود أربعم من بعيد، وحينها أخرج العديد هواتفهم وأخذوا يصورون حاصد الأرواح ذلك، ولك أن تتخيل حينها كم شعرت بالغباء الشديد يحتاجني تلك اللحظة، فعلى الرغم من مئات الأشياء التي صنعتها بواسطة تلك الصخرة وجسدها بالواقع لم أقم بتجربة تصويرهم ولو لمرة واحدة طوال تلك الفترة،

وهنا زاد فضولي.. ماذا سيحدث..؟.. هل سيستطيعون التقاطها
بكاميراتهم؟ هل ستستطيع الكاميرات التقاط خيالات صنعتها
برأسي؟ أخذت أفكر بحيرة كيف سأستطيع الوصول إلى تلك الصور
على هواتفهم؟ لم يمض وقت كثير حتى قاد الفضول أحد الواقفين
للذهاب جهة حاصد الأرواح وتصويره وحينما تشجع أكثر بسبب
صيحات الناس من خلفه حاول لمس حاصد الأرواح هنا اختفى
حاصد الأرواح حينما حاول أن يلمسه كما قررت بالضبط.. أخذت
أنظر بساعتي الرقمية إلى الوقت الذي استغرقته تلك التجربة من بداية
ظهور الحاصد حتى اختفائه وهنا صدمت بشدة مما رأيته فلم يمر على
شاشة ساعتي إلا 32 ثانية فقط ولكن بالنسبة لي ولجميع من كان في
هذا الموقف حينها شعرنا بأن هذا الحادث قد أخذ منا ساعات طويلة..
لاح لي أن أقتحم المشهد وأسأل المارة عما صوروه على هواتفهم بصفتي
الرسمية كصحفي، ولكن كيف سأبرر بعد ذلك وجودي في مسرح
الحدث الآن؟ فأنا بالفعل تحت ملاحظة العقيد سراج بسبب أمر
جثتي.. فكيف سأبرر له بعد ذلك تواجدي هناك لو ظهر اسمي في
هذا الأمر؟ هل سأخبرهم أنها صدفة؟ واكتشافي لجثتي كان صدفة
أيضاً؟ إذا ستكون الصدف كثيرة، وتلك إشارة خطيرة لرجال الشرطة؛
لهذا آثرت السلامة وابتعدت عن المكان لوقت قصير كنت أشعر بأنها
أعوام تمر علي.. انتظرت طويلاً حتى شاهدت زملاء لي صحفيين
وسيارات مراسلي قنوات الأخبار التي جعلتني أشعر بالاندهاش
كيف انتشر هذا الخبر سريعاً هكذا حتى يلفت أنظار القنوات الفضائية؟
وهنا وجدت مبرراً لظهوري هناك واقتحمت مسرح الحدث بجسارة

وثقة مستغلًا مهنتي الوظيفية واستخدمت هناك جميع ما أملك من أسلحة وخبرة صحفية طويلة.. استطعت أن أستجمع معلومات كثيرة عن تجربتي تلك التي ظهر في البداية أنها ناجحة ولكن عندما استطلعت آراء 70 شخصًا تقريبًا كان هناك 40 شخصًا لم يشاهدوا حاصد الأرواح وشاهدوا اصطدام السيارات ببعضها فقط.. و30 شخصًا شاهدوا حاصد الأرواح ومنهم 12 شخصًا قاموا بتصويره ولكن شخصًا واحدًا فقط الذي استطاع أن يحتفظ بصورة له ولكنها غير واضحة، ويبدو أن هذا الشخص يمتلك نخيلة وعقلًا قويًا حتى استطاع التقاط تلك الصورة على هاتفه، ولكن بالمجمل معظم من كانوا هناك لم يشاهدوا حاصد الأرواح، واكتشفت أنه من الممكن أن تظهر تلك التجسيدات على الكاميرات ولكن يبدو أنها تحتاج إلى شروط وظروف أخرى لا أعلمها بعد.. إذا وبعد تفكير عميق كانت نهاية تجربتي تلك فاشلة لأنها لم تحقق جميع ما كنت أصبو إليه.. قررت التوقف عن ممارسة تجاربي لمدة من الوقت لأني وجدت ما فعلته صار حديثًا للناس بداخل مصر وخارجها لعدة أيام، ولكن تلك الأحاديث ظلت تخبو وتخبو بظهور عدة أخبار أخرى أخذت مكانها سريعًا، فبعد عدة أيام انتشر خبر ظهور سفينة بداخل مدينة جهينة، وأصابني الفضول الذي كاد يصيبني بالجنون وأنا أفكر كيف لشيء كهذا أن يحدث؛ وبمصر؟! وهنا طرق رأسي التفكير بأنه قد يكون شخص آخر يمتلك الصخرة البيضاء مثلي وأنه يفعل بعض التجارب هو أيضًا ولكنه بالتأكيد أكثر خبرة مني أن يجعل شيئًا ضخمًا مثل السفينة يظهر هكذا.. إنه بالتأكيد يحمل عقلًا جبارًا.. كل ذلك كان تكهنات

واعتقادات برأسي ولكنها كانت كافية بأن تدفعني دفعًا لكي أذهب إلى جهينة لكي أرى بنفسى صحة اعتقادي هذا.. وتوالت الأحداث والغرائب كما شاهدتم وكنت قد وصلت لاعتقاد يصل إلى حد اليقين بأن ما يحدث هذا بالتأكيد له علاقة بحادث مدحت فراج.. ولكن لم أتيقن أبدًا من هذا الاستنتاج حتى اعترف كريم بأنه يعلم مدحت فراج وسألني عن الصخرة، وهنا تأكدت بأن كريم خلف ذلك كله، وأنه بالتأكيد (ك.م) الذي تحدث عنه مدحت فراج بمذكراته..

سأله سراج بحيرة: «إذا من كريم هذا؟ وكيف يستطيع أن يفعل كل ذلك مثلما تخبرنا؟ ولماذا يفعل ذلك؟»..

«لا أعلم لماذا يفعل ذلك، ولكنه بالتأكيد لديه صخرة أكبر من التي معي ويفعل عن طريقها كل ذلك»..

اقترب منه عصام وحدثه بفضول: «أخبرني كيف عرفت أن كريم هذا هو الشخص الذي كنت تبحث عنه من البداية؟»..

«أنا بالطبع لم أكن أعلم أنه هو؛ ولهذا مكثت بجهينة أتحمس الأخبار وأشاهد أهل المدينة وأنا أشك بالجميع، ولكن لم أجد دليلًا ماديًا على أي شيء، أما بالنسبة لكريم هذا فلم أشعر بالارتياح له منذ أن قابلته لا أعلم لماذا، ولكن حدسي أخبرني بأنه شخص غير طبيعي؛ لأنه كان طبيعيًا للغاية.. ولكن لم أكن أعتقد أنه هو لأنني لم أكن أعلم عمَّ أبحث من الأساس ولكن عندما قابلت أميرة - وشاور بيده جهة أميرة فنظر الجميع إليها وشعرت هي بالإحراج وأخفت وجهها بيدها بدلال شديد وتابع رامي حديثه إليهم - وعلمت بقدراتها العظيمة

تلك وبعد أن قامت بلمسي أخبرتني أنني سوف أقتله.. وهنا لا أعلم ماذا حدث.. حديثها معي جعلني لا أرى إلا صورة كريم بوجهي.. أتقصد أن هذا الذي كنت سأقتله؟ بالطبع لم أقتنع بأفكاري تلك لأنها قد تكون مجرد إيجاءات قد تسللت إلى رأسي بفعل حديث أميرة.. لكن على الرغم من محاولتي التفكير بعقلانية إلا أنه قد حدث ما أخبرتني أميرة بالضبط.. ولا أعلم هل قتلت كريم لأن أميرة أخبرتني بذلك أم أن أميرة قد شاهدت المستقبل بالفعل، ولكن ما حدث أنني قد تأكدت بأن كريم هو الشخص المقصود»..

سأله عصام بفضول: «وكيف تأكدت من ذلك؟»..

أخرج رامى هاتفه وفتحه وأخرج صورة على شاشته وأعطاهها لعصام الذي أخذ ينظر إليها بفضول، واقترب منه سراج وأميرة ليشاهدتا تلك الصورة أيضاً، وهنا شاهدوا رامى يلتقط صورة لنفسه وبجواره شخص ولكن يحمل رأس بطيخة خضراء..

نظر الجميع مندهشين إلى رامى وسأله عصام: «ما هذا؟.. أتلك صورة معدلة بالحاسب؟»..

أجابه رامى بابتسامة وهو يأخذ هاتفه مرة أخرى ويضعه بملابسه: «لا.. إنها صورة حقيقية بالفعل، والشخص الذي معي بالصورة ويحمل رأس بطيخة هو كريم بالفعل»..

اندهش الجميع من إجابته وسأله عصام «كريم.. كيف هذا؟»..

ابتسم رامى وهو يجيبهم: «الأمر ليس غريباً.. لقد أخبرتكم أنني كنت أشك برامى بالفعل ولكي أتأكد من شكوكي تلك قمت

بتصوير عدة أشخاص كنت أشتبهم، وكنت أتخيل أشياء غريبة على رؤوسهم، ولأني أعلم أن من يفعل هذه الغرائب بجهينة يحمل قوة مثلي أو أكثر تأثيراً منها ولذلك فسوف تظهر تخيلاتي تلك معه في الصورة.. حسناً لم أكن متأكداً من نجاح هذه الفكرة لأنني لم أقم بها من قبل، ولكن قررت أن أفعلها على أي حال، ولكم أن تتخلوا مدى صدمتي وفرحتي في نفس الوقت عندما نجحت مع شخص واحد فقط وهو كريم استطعت أن أجسد ما أتخيله بالصورة وهو بجواري.. إذا بالفعل كريم هو الذي يمتلك تلك الصخرة أو على الأقل هو المسئول عما يحدث بجهينة، ولا تنسوا شيئاً مهماً أخبرتكم به من قبل: (ك.م) الذي كان يتحدث عنه مدحت فراج بكتابته.. اختصار لأول حروف اسم كريم ماهر.. لا أعتقد بأن هناك مصادفات كثيرة كهذه تحدث بشكل اعتباطي وغير مرتب»..

سأله سراج بحدة: «ولماذا قتلته؟»..

«كنت أعتقد بأنني إذا قتلت كريم فسيعود كل شيء إلى طبيعته، وسوف تختفي كل تلك الأشياء الغريبة التي كانت تحدث بجهينة، ولكن لم أعتقد أبداً أنه لا يموت.. لقد قمت بقتله عدة مرات وكل مرة يعود إلى الحياة»..

أخذ سراج يمسك برأسه وهو يتحرك بمكانه ويحدث نفسه بصوت عالٍ: «اللعنة! اللعنة! سوف أجن!»..

أخذ الجميع يرقبه بصمت شديد قطعه عصام بسؤال مقتضب: «إن ما تخبرني به شيء غير مقنع ولا أجد سبباً لتصديقه.. هل تملك دليلاً على صدق كلامك هذا؟».

قام رامي بوضع يده بملاسه وأخرج قبضة يده مضمومة وفتحها ببطء أمام عصام ليكشف عن الصخرة البيضاء بين يديه.. وأخذ يحدثه بثقة: «ها هو دليلك الذي تريد.. تلك هي الصخرة البيضاء التي صنعت بها كل ما أخبرتك به»..

ظل عصام ينظر إليها متردداً للحظات ثم انقض عليها بفضول شديد من بين يدي رامي وحملها بين يديه وهو غير مصدق، وهنا تعلقت عيون أميرة وسراج على الصخرة بين يدي عصام الذي أخذ يتفحصها وهو يبدي تعليقاته للجميع دون أن يشعر: «إنها بيضاء بالفعل ولكن استخدام مصطلح صخرة معها خاطئ.. إن الصخر يطلق على الأحجام الكبيرة التي لا يستطيع حملها الإنسان بسهولة أما هذه الأحجام الصغيرة فيطلق عليها أحجار وهذا الحجر الأبيض الصغير.. اممم إنه مختلف.. إنه ليس مقتطعاً من صخور نارية أو من صخور رسوبية.. إنه أقرب إلى الصخور المتحولة.. ولكن أيضاً هو ليس له خصائص الصخور المتحولة المعروفة.. إنه أقرب إلى شيء صناعي ولكن هذا غريب.. وزنها يكاد يكون معدوماً.. كتلتها يجب أن تعطي وزناً مختلفاً عن ذلك، وأيضاً ملمسها البارد ذلك.. لم أر شيئاً مثل ذلك الحجر من قبل على الرغم من أنني عالم جيولوجي ورأيت صخوراً من جميع بقاع الأرض، ورأيت الكثير من الصخور والحجارة

من خارج كوكب الأرض بحكم عملي بوكالة ناسا، ولكن لم يصادفني شيء مثل هذا من قبل»..

أمسك سراج الصخرة بيده وهو يقلبها مندهشًا ويحدث رامي مصدومًا: «هل هذا الشيء الصغير هو الذي جعلك تصنع جثتك؟ هل هذا هو؟»..

ابتلع رامي ريقه بقلق «نعم.. تلك الصخرة التي جعلتني أفعل ذلك..»

أخذ سراج يهز رأسه معترضًا: «لا.. لن أصدق ما تقوله حتى أراه بعيني.. فلتجعل هذا الشيء اللعين يصنع جثتك مرة أخرى مثلما تدعي»..

أخذ رامي يهز رأسه نفيًا: «للأسف لا أستطيع.. بعد أن أتيت إلى جهينة لن تعمل الصخرة مرة أخرى مهما حاولت، وهذا كان يؤكد شكوكي بأن هنالك شيئًا له علاقة بهذه الصخرة بجهينة»..

هنا قام سراج بإلقاء الحجر الأبيض من يده بعنف وهو يصرخ غاضبًا: «كنت أعلم أن حديثك هراء»..

قاطعته أميرة سريعًا: «لا.. جميع ما قاله رامي صحيح.. لقد شاهدته بذكرياته بنفسه.. هو لم يشرح كل شيء بدقة ولكنه كان صادقًا بجميع ما رواه»..

حدثها سراج بحنق: «أنت لا تتحدثي إطلاقًا.. بالطبع سوف تدافعين عن محبوبك الوغد هذا.. فلتذهبا معًا ولتحترقا بالجحيم».

توجه إليه رامي غاضباً وهو يصرخ به: «لا تتحدث إلى أميرة هكذا أبداً»..

وأمسك بملابس سراج بعنف.. وهنا نظر له سراج نظرة مجنونة جعلت رامي يشعر بالخوف يغزو جسده ومفاصله ترتجف بارتياح.. حدسه أخبره أنه فعل فعلاً أحمق سوف يجعله يخسر حياته، وهنا بالفعل شعر عصام وأميرة بأن رامي سيفقد حياته، وتأكداً من ذلك عندما دفع سراج رامي بكل قوة دفعة جعلت رامي يرتطم بالحائط وتحول وجه سراج إلى اللون الأحمر الداكن والدماء صبغت بياض عينيه بالحمرة وأخذ يصرخ دون أن يفهم أحد ماذا يقول، ولكن تمت ترجمة أفعاله عندما سحب سلاحه الناري وقام بفتح زر الأمان ووجهه إلى رامي.. أيقن الجميع أن سراج لم يعد سراج الهادئ الرزين الذي يعلمونه ولكنه تحول إلى شيطان غاضب سيفتك بالجميع.. قفز جسد عصام بدون وعي منه وأطبق على يد سراج وهو يطلق النيران لتخطئ الطلقة النارية رأس رامي بمسافة صغيرة جعلت رامي يقف بمكانه مثبتاً بالغراء لا يقوى على الحركة من هول الصدمة التي حدثت له، وصرخت أميرة خائفة مما حدث، وأخذ عصام يصرخ على سراج لعله يعود إلى رشده، ولكن ثلاث طلقات أخرى خرجت من سلاح سراج جهة رامي جعلت عصام يوقن بأن سراج غير متاح في هذه اللحظات أبداً.. وقفز رامي مبتعداً عن مكانه بعد أن شاهد الطلقات وهي ترتطم بالحائط بجواره بالحركة البطيئة يكاد يجزم أن الزمن قد توقف تلك اللحظات ورأى كل شيء بأدق التفاصيل.. هل هذا

شعور من سيموت حينما يدنو به الموت ليصاحبه إلى الجحيم؟ في تلك اللحظة علم رامي أنه سوف يقتل على يد سراج فقفز من مكانه جهة سراج وأخذ يحاول إمساك يده هو الآخر ليمنعه من قتله وسط صراخ أميرة الذي أضاف على الموقف توترًا أكثر وعبق المكان برائحة الخوف المختلط برائحة البارود وعرق الأدرينالين.. ولكن على الرغم من مواجهة الاثنين لسراج ولكنها لم يستطيعا إيقاف شيطان غضبه الذي يبدو عليه أنه امتطاه للأبد وبلا رجعة.. فكان سراج بجسده الضخم الرياضي كالثور الهائج استطاع أن يطيح بالاثنين في لحظات بعد أن مزقا بعض ملابسه وهما يتشبثان به بعد أن قذفها بعيدًا عنه.. وهنا تحول سراج بسلاحه الناري من جهة رامي إلى العقبة التي تقف أمامه لقتل رامي وهو عصام، وقام بإطلاق طلقتين سريعًا جهته، ولكنه أخطأه عندما أمسك رامي بأقدام سراج وأسقطه على الأرض ليحول سراج الدفة جهة رامي مرة أخرى، وهنا أيقن رامي أنه هالك لا محالة، فسراج رفع سلاحه الناري بالقرب من رأسه في لحظة ولا توجد أي سرعة يمتلكها في العالم تجعله يهرب من هذا الموقف، فأغلق عينيه رغمًا عنه وهو يشتم رائحة البارود المحترق يتصاعد من فوهة المسدس الذي كان على بعد إنشات قليلة من رأسه، وانتظر صدور صوت إطلاق النيران الذي سوف يكون وصل إلى أذنه بعد أن تكون الرصاصة اخترقت جبهته لتثر بقايا رأسه بكل مكان حوله، ولكن لم يصل إلى أذنه صوت الطلقات، بل وصل إلى أذنه صوت صراخ سراج.. فتح عينيه سريعًا ليرى ماذا يحدث ليجد أميرة تمسك وجهه

سراج بقوة شديدة وعيناها بيضاوان ويبدو أنها في نشوة ما بينما سراج يصرخ متألماً.. لحظات قليلة شعر رامي وعصام بالاندهاش مما يحدث وكيف لهذا الثور الهائج سراج الذي لم يستطع الاثنان مواجهته بغضبه وكانا بين يديه كالأوراق بمهب الريح وهو يصرخ بين يدي أميرة تلك الفتاة الضئيلة التي هي أشبه بدمى الأطفال، وفجأة سقط سراج مغشياً عليه، وانهارت أميرة خلفه، فذهب رامي مسرعاً جهتها وأخذ يطمئن عليها بينما توجه عصام جهة سراج وأخذ يتفحص نبضه بعد أن أبعد سلاحه بعيداً عن يده.. أفاقت أميرة من غشيتها وأخذت تمسك رأسها ورامي يصرخ عليها بقلق: «أميرة.. أميرة.. هل أنت بخير؟ هل أصابك مكروه؟»..

حدثته أميرة بنبرة متعبة: «لا.. أنا بخير.. أنا بخير»..

سألها عصام بفضول: «ماذا فعلتِ بسراج؟ لماذا كان يصرخ هكذا؟»..
«لم أفعل شيئاً به.. لقد قمت بإرسال ذكريات رامي إلى رأسه لكي يتأكد من أن أقوال رامي حقيقة»..

سألها بفضول شديد: «وهل تستطيعين أن تفعل ذلك يا أميرة؟»..

أجابته بقلق: «لا أعلم ماذا حدث لي.. منذ أن قمت بملامسه كريم وأنا أشعر بطاقة قوية للغاية بداخل رأسي جعلتني أدرك أشياء عن قدراتي كنت أجهلها، وأصبح الآن لدي شعور بأني أستطيع أن أتحكم بأي شيء من قدراتي أريد أن أفعله بالضبط وليس بالصدفة كما كان يحدث معي بالماضي.. أنا لا أعلم ماذا حدث لي بالفعل ولكن

ما شاهدته من هذا الشيء الذي يدعى كريم جعلني أعلم لماذا كان يتجنب أن يلمسني دائماً.. إنه كان لا يفعل ذلك لأني منبوذة، ولكنه كان يخشاني.. يخشى أن أعلم عنه ما أعلمه عنه الآن».

بفضول شديد سألتها عصام: «وماذا تعلمين عنه؟ أخبرينا سريعاً».. وهنا قبل أن تتحدث أميرة حدث شيء غريب للغاية.. لقد سمعوا صوتاً قوياً لشخص يتحدث إلى شخص آخر..

اندهش الجميع.. ما هذه الأصوات؟ ومن أين جاءت؟ وكانت دهشتهم أكبر عندما وجدوا أن تلك الأصوات تأتي من جميع أنحاء جهينة.. هذا الصوت يدوي بجميع أنحاء جهينة.. الجميع يسمعها بلا استثناء.. أصوات مكبرات ضخمة في جميع الأنحاء تصدح بأصوات هذين الشخصين وكانا يتحدثان بأمور شخصية للغاية..

* * *

(أسرار قدرة)

مع حلول الساعات الأولى من الليل حدث شيء أدهش جميع سكان مدينة جهينة.. مكبرات صوت بكل مكان بأصوات ضخمة ولكن واضحة ونقية تصدر من أماكن متفرقة من أنحاء المدينة، ولم يستطع أحد العثور على مصدرها.. تبث أصوات ومحادثات عادية لأشخاص من أهل المدينة يتحدثون فيما بينهم بأريحية شديدة، ويبدو أنه تم تسجيل تلك المحادثات بمنازهم نظرًا لطريقة تحدثهم الدارجة التي تحدث بين الأصدقاء وأفراد العائلة.. كان أول تسجيل يسمعه الجميع يدور بين ثلاث فتيات يتحدثن مع بعضهن وهن يتضحكن ويتهامسن ويتغامزن على بعض النسوة في المدينة، وصدحت واحدة منهن بحديث وهي متحمسة للغاية: «أتعلمن يا فتيات لماذا خلعت سعاد محمد نفسها من علوان زوجها بعد ثلاثة شهور فقط؟».. سألتها الفتاتان بفضول: «ماذا حدث؟ لماذا؟ أخبرينا».. أجابتها إحداهن سريعًا: «هل كان ضعيفًا جنسيًا؟ هل كان لا يلبي لها احتياجاتها؟».. ابتسمت الفتاة وهي تنفي سريعًا: «لا.. ليس هذا.. ولكن يجب أن تعدانني أنكما لن تخبرا أحدًا عن هذا السر».. أجابتها الفتاتان سريعًا: «نعدك.. نعدك.. لن نخبر أحدًا»..

«إذا اسمعن جيداً.. لقد شرحت لي صابرين أخت سعاد ما حدث بالضبط.. بعد أن أخبرتها أن لدي عريساً لأختها ولكنه متردد في أن يتقدم لها لأنها خلعت زوجها بعد ثلاثة شهور.. فأخبرتني لكي تدافع عن أختها.. بأن زوج سعاد علوان منذ زواجهما لم يستحم أبداً.. وكانت رائحته سيئة للغاية، وكانت سعاد تعتقد بأن زوجها غير نظيف فقط ولكن بعد ثلاثة شهور لم تعد تتحمل رائحته الكريهة هذه عندما كان يحاول أن يتقرب منها.. وسألته بغضب لماذا لا يستحم، لأن رائحته غريبة، فأخبرها بأنه لا يستحم أبداً ولا يقترب بجسده من الماء لأنه مصاب بمرض جلدي يجعل جلده يحتاج بشدة عندما يلامسه أي ماء.. وهنا أخبرته سعاد بأنه خدعها ولم يخبرها بحقيقة مرضه هذا من قبل.. وهكذا قامت بخلعه سريعاً بعد أن تأكدت المحكمة من صحة قولها».. تحدثت إحدى الفتيات وهي مصدومة: «اللجنة! لم أكن أتوقع أن يكون علوان هذا قذراً هكذا.. ولكن هذا يوضح لماذا كان يبتاع من محل الإكسسوارات الذي أعمل به الكثير من العطور.. ياله من قذر!».. وأخذت الفتيات يتصاحكن ويتندرن على هذا الأمر.. كانت المدينة تضج بحديث هؤلاء الفتيات الذي كان يدور بداخل أحد منازلهن ليتحول إلى حديث عام يسمعه الناس بالطرقات وبداخل منازلهم.. لقد شعر الجميع بالاندهاش بالطبع في البداية مما يحدث ولكن بعد مرور عدة ساعات وسماعهم العديد من الأسرار القذرة لعدد كبير من أفراد المدينة تحول هذا الأمر إلى شيء مُسلٍّ يسمعونه بفضول شديد وهم يتلهفون لسماع الحكاية الخاصة التالية لأحد أفراد المدينة كانتظارهم لعمل تلفازي مشوق.. كانوا

يرون في تلك الفضائح المجانية تعزية لهم عما يحدث لهم من مصائب
بجهينة.. فلقد صدق المثل القائل: من ير مصائب الغير تن عليه
مصائبه».. ولكن لم يكن هذا لسان حال من كان الناس يستمعون
لفضائحه؛ فالكثير منهم كان يتمنى أن تنخسف به الأرض وتبتلعه
وهو يستمع إلى أسراره تنتشر على الملأ سواء على لسانه أو على لسان
أحد أقاربه أو أصدقائه المقربين أو من كان يعتقدهم كذلك.. وكان من
بينهم كامل إبراهيم الذي كان يتعجب دائماً مما يحدث لسيارته التي كان
يتركها أمام منزله ليعود ويجدها قد تمزقت إطاراتها دائماً أو يجد ألوانها
قد جرحت بشيء حاد بخط طولي كبير وبدون أي دليل على الفاعل..
وظل هذا الأمر يتكرر معه كثيراً لدرجة جعلته يصرف مبالغ طائلة على
تغيير الإطارات وتصليح ألوان سيارته، ولم تنجح محاولاته للتربص
بالفاعل ومعرفة، وحاول مراراً وتكراراً مع عمدة المدينة مازن أن
يضع كاميرا أمام منزله وكان العمدة يرفض هذا الأمر ويخبره بأن هذه
الأشياء ممنوعة كحيازة الأسلحة بالمدينة؛ لأنه قد يتم استخدام تلك
الكاميرات بصورة سيئة، ولم يقتنع أبداً بضرورة أن يتم استخدامها
لإيجاد الفاعل الذي يخرب سيارة كامل.. ولكم كانت صدمة كامل
قوية عندما علم أخيراً من الذي يفعل ذلك بسيارته! ها هو يسمعه
الآن يتفاخر بفعلته ذلك مع زوجته.. إنه جاره السبعيني العجوز
الذي يفعل ذلك به ويثقب إطاراته ويخرب ألوان السيارة ويفعل تلك
الأمر الصبيانية بغرض الانتقام من كامل لأنه دهس بسيارته تلك
قطته التي عاشت معه تؤنسه لسنوات طويلة.. لم يتوقع أبداً أن يكون
من يفعل ذلك معه هو جاره العجوز ولسبب تافه مثل مقتل قطة من

وجهة نظر كامل .. وهذا السبب الذي جعله يشتاط غاضباً وهو يصرخ منفعلًا متوجهًا إلى منزل جاره الذي تجاهل صراخه المصاحب لطرقاته على باب منزله .. وأخذ يصرخ عليه وهو يرى جاره العجوز يتجاهله وهو يشاهده من النافذة خلف الستائر الحريرية .. «أنت أيها العجوز اللئيم .. كنت تتصنع أنك جاري العزيز وأنت تعبت بسيارتي .. أنت أيها الوغد فلتأت لمواجهتي أيها العجوز» .. استشاط كمال أكثر وأكثر وهو يرى ظل جاره من خلف الستائر وهو يراه ولا يعيره أي اهتمام .. فأخذ يبحث حوله غاضبًا ولا يعلم ماذا يفعل .. وهنا شاهد سيارة الرجل العجوز القديمة وهي واقفة بسكون أمام منزله فاهتدى إلى فكرة جالت بعقله جعلته يقفز جهة السيارة القديمة ويرطم سقفها بباطن يده وهو يتحدث إلى العجوز: «حسنًا .. كما فعلت بسيارتي سوف أفعل بسيارتك .. تالله لا جعلتك تندم على ما فعلته معي للأبد» .. وهنا صرخ العجوز من خلف النافذة: «لا تقرب من سيارتي أيها اللعين» .. نظر له كامل وعلى وجهه ابتسامة خبيثة، وذهب كمال مسرعًا إلى منزله وغاب لعدة دقائق .. كان الهدوء خلالها يدوي بالحي لا يقطعه إلا صوت فضيحة أخرى لشخص آخر يستمع إليه العامة .. عاد كامل إلى جهة سيارة العجوز الذي يرقبه متوجسًا وراه وهو يحمل برميلًا صغيرًا أحمر اللون ويقف أمام سيارته ويقوم بسكب شيء من هذا البرميل فوق السيارة .. صرخ العجوز عليه محذرًا: «ماذا تفعل أيها الفتى؟ اترك سيارتي أيها اللعين» .. وتحرك مسرعًا جهة باب منزله وأخذت زوجته العجوز تحاول منعه من الذهاب إلى الخارج ومواجهة هذا الفتى الغاضب ولكن كان العجوز يشعر بالخوف أكثر على سيارته

من تحذيرات زوجته فتركها وخرج إلى باب منزله وهنا لاحت إلى أنفه رائحة ما سكبها كامل على سيارته.. إنه وقود.. وكان يشعر بالصدمة من أن يضحى كامل بالوقود هكذا الذي كان سعر اللتر منه يقارب سعر جرام الذهب الآن لندرته.. فصرخ على كامل وهو يدفعه بعيداً عن سيارته: «ابتعد عن منزلي وسيارتي يا ابن العاهرة!!».

ألقى كامل بالبرميل أرضاً وهو يصرخ على العجوز: «أيها الوغد العجوز أتدري كم كنت أنفق من ثروة على تصليح سيارتي بسببك وأنت تتصنع البراءة وتسب من كان يفعل ذلك وأنت تحيني كل مرة.. كنت تخدعني كل يوم وأنت تضمري الشر.. كل ذلك لتنتقم مني بسبب قطة.. قطة أيها الرجل الخرف!».

صرخ عليه العجوز: «إنها ليست قطة يا ابن العاهرة.. إنها كانت بمثابة أحد أبناءي الذين لم أنجبهم.. كانت بالنسبة لك مجرد قطة ولكن كانت بالنسبة لي شخصاً حياً من لحم ودم وروح وأنت قتلتها برعونتك واستخفافك بأرواح المخلوقات».. حدثه كمال بحنق: «لقد أخبرتك مراراً أنني لم أدهسها عن قصد.. وهل تساوي بين سيارتي الفارهة تلك وبين قطتك الرخيصة تلك.. أجننت يا رجل؟! إنها مجرد قطة لعينة.. كنت سوف أحضر لك غيرها من أي متجر أو شارع لو كنت أخبرتني»..

«مازلت تتحدث عنها كأنها شيء ليس له قيمة.. إنها مخلوق من روح ودم عاشت معي لحظات مرحي ومرضي.. كانت لا تنام إلا بجوار رأسي.. أشعرني بحب لم أشعر به من جهة بشر من قبل..

حب خالص وصافٍ ليس له غرض أو منفعة.. أتستطيع أن تشتري لي بفلوسك اللعينة تلك هذه اللحظات التي ذهبت بلا رجعة.. أتستطيع أن تحضر لي تلك المشاعر التي افتقدتها بسبب قتلك لها؟!».

أخذ ينظر له كامل باندهاش: «يبدو أنك بالفعل مجنون.. أتقارن قطة بالبشر؟ يا لك من مخبول! هل كنت تضاجعها بدلاً من زوجتك أيضًا؟!».. وأخذ يبتسم ساخرًا.. فشعر العجوز بالإهانة من حديثه فدفعه بقوة على غفلة فسقط كامل على الأرض.. وهنا شعر بالإهانة الشديدة.. وأخذ الشرر يتطاير من عينيه ووقف بسرعة وتوجه مندفعًا جهة العجوز الذي شعر بالخوف الشديد ورفع يده أمامه ليحتمي من كمال الغاضب.. وهنا توقف كمال أمام العجوز الذي وقف أمامه مرتعشًا.. فشعر بالشفقة على العجوز فأخرج غضبه المشتعل بزفرة قوية من فمه وقام بركل البرميل الأحمر الملقى على الأرض بكل قوة فطار بعيدًا ليسقط على بعد عدة خطوات خلفها، وتحدث إلى العجوز بنبرة مهددة: «أنا لن أضع إصبعي عليك نظرًا لأنك رجل كبير السن ولكنني لن أسامحك على ما فعلته بسيارتي.. سوف تدفع مصاريف إصلاح السيارة جميعها وبعد ذلك تقطع علاقتك معي.. لن أعرفك ولن تعرفني»..

أخذ يتحدث إلى العجوز الذي قال وهو يرتجف: «لا.. لن تأخذ مني قرشًا واحدًا أيها القاتل.. اذهب إلى الجحيم يا ابن العاهرة».. صرخ به كمال وهو يستشيط غضبًا: «أيها العجوز اللعين.. ماذا تريدني أن أفعل؟ أتريدني أن أقتلك أم ماذا؟ أخبرك بأني سوف أسامحك

مقابل تكاليف إصلاح ما خربته وأنت ترفض يا ابن ال... حسناً أنا مخطئ لأنني أتحدث معك بالحسنى.. سوف أحرق تلك الخردة القديمة التي تطلق عليها سيارة مقابل ما فعلته بسيارتي».. وأخذ يخرج أعواد الثقاب من جيبه.. صرخ به العجوز: «ماذا ستفعل يا ابن العاهرة؟ اترك سيارتي واذهب إلى الجحيم».. وهنا أخذت زوجته تصرخ وهي تشاهد ما يحدث من نافذة منزلها فشعر كمال بالارتباك وتحدث إلى العجوز: «للمرة الأخيرة أخبرك بأن تدفع قيمة إصلاحات سيارتي وإلا سوف أحرق سيارتك بالمقابل».. وقف العجوز أمامه وهو يعطي ظهره لسيارته ويحميها بجسده وهو يفرد ذراعيه متحدثاً كمال: «أخبرتك أنني لن أدفع لك قرشاً واحداً أيها القاتل»..

شعر كمال بالغضب الشديد وصرخ به: «تَبَّ لك ولعنادك أيها العجوز الأحمق!».. وقام بدفعه بعيداً عن السيارة فسقط العجوز متألماً وقام كمال بإشعال الثقاب ووضعها على السيارة التي تشبعت بالوقود فاشتعلت بالحال وصرخت السيدة العجوز وهي تشاهد سيارتهم تحترق بالنيران، وخرج بعض الفضوليين والمارة وتجمعوا على أصوات الصرخ تلك.. وهنا قفز العجوز جهة سيارته وهو يسب كمال وينعته بأقذع الألفاظ وكمال ينظر للعجوز وهو يحاول أن يطفى النيران المشتعلة بسيارته بياس جعل كمال يشعر بالندم لفعله ذلك.. اقترب العجوز من السيارة متحيراً وهو يحاول أن يزيح الوقود المشتعل من عليها ووضع يده بالنيران يحاول إزاحتها هي والوقود من فوق السيارة وهو يئس، وهنا اشتعلت النيران بيده في الحال وسقط الوقود المشتعل بالنيران على ملابسه ليشتعل هو الآخر ويتحول إلى كتلة من النيران

وسط صراخ زوجته وبعض النساء من جيرانه، بينما حاول بعض الرجال إطفاءه وسط ذهول كمال الذي لم يتوقع أن يتحول هذا الموقف إلى ذلك أبداً..

على الجهة الأخرى من المدينة كان رجلان يدخان السجائر وهما يستمعان إلى فضائح الآخرين بتلذذ شديد؛ رجل في بداية العقد الرابع من عمره والآخر شاب في منتصف العقد الثاني وهما يتغامزان ويتلاسان على الفضائح التي يسمعاها.. تحدث الأربعيني إلى الشاب: «أرأيت يا عماد.. الأستاذ رجاء هذا الرجل المحترم الوقور يسرق السجائر والأقلام.. إنه يسرق جميع الأشياء الصغيرة».. أجابه عماد بعد أن أخذ نفساً عميقاً من سيجارته وأطلق دخانها مع ضحكته المجلجلة: «نعم.. هههههه.. نعم.. هذا الرجل الوقور لص سجائر.. لقد كنت مخدوعاً به.. لقد سمعت أن هذا مرض عند بعض الأشخاص يسرقون أي شيء حتى ولو تافهاً ويشعرون بالسرور من ذلك».. أجابه الأربعيني: «صغيرة أم كبيرة.. السرقة هي السرقة.. لقد أصبح رجائي لصاً رسمياً.. لو كان مازن مازال العمدة لكان جعله منبوذاً بالتأكيد.. سوف يصبح الفترة لقادمة أضحوكة البلدة.. والأسوأ من ذلك كله أنه قد تم فضحه على يد ابنه.. هو الذي أخبر الجميع أن أباه لص»..

سأله عماد بفضول: «لكن من الذي قام بتسجيل تلك المحادثات والفضائح؟ وكيف استطاع أن يدخل منزل الجميع هكذا؟!».. أجابه الأربعيني ضاحكاً: هل هذا الذي يشغلك الآن؟ لم أعد أستغرب أي شيء يحدث بجهينة حتى لو طلعت الشمس من مغربها لن أندعش

من ذلك».. أجابه عماد فزعاً: «لا.. لا.. هذا يعني يوم القيامة.. حرام عليك.. ما زلت صغيراً ولم أتزوج بعد».. فأخذ الاثنان يضحكان وهم مازالا يستمعان إلى فضيحة جديدة تحدث الآن.. فلكر الأربعيني عماد وهو يحدثه: «اسمع.. اسمع هذه...» فأخذ عماد يستمع بإنصات شديد.. وهنا دلف جهتها علوان وهو مطأطئ الرأس خجل.. لا يستطيع رفع وجهه أمام أي شخص وهو يتخفى برفع ملابسه على وجهه.. وهنا لمح الأربعيني فلكر عماد وأشار بسرعة جهته: «انظر.. انظر».. وهنا ضحك الأربعيني بشدة وهو يصدع بصوت عالٍ إلى عماد: «ما هذه الرائحة الكريهة؟ ألا تستحم يا رجل؟!».. وهنا أخذ عماد ينظر إلى علوان ويتحدث بصوت عالٍ هو الآخر: «لا.. لن أستحم.. إنها رائحتي وأنا فخور بها».. وظلا يتضحكان وهما يتصافحان ويتغامزان على علوان.. الذي نظر إليهما غاضباً وهو يحاول أن يحفظ آخر قطعة من كرامته المبعثرة.. فنظر إليه عماد متحدياً: «إلام تنظر أيها القدر؟! اذهب من هنا قبل أن تغطينا رائحتك القدرة».. هنا لم يستطع علوان أن يتحكم بأعصابه فذهب مسرعاً جهة عماد فاستقبله الأربعيني بلكمة قوية على وجهه أسقطته أرضاً.. وأخذ يركله هو وعماد والأربعيني يصيح عليه: «أتجرؤ وتحاول ضرب صديقي عماد أيها القدر؟ إنه مثل أخي الصغير إذا نظر له شخص نظرة لا تعجبه أمزقه بأسناني».. أخذ علوان يتألم وهو يحاول أن يصد بيده ركلات عماد والأربعيني بلا جدوى.. بعد أن ركلاه لعدة دقائق تركه عماد والأربعيني بعد أن شعرا بالتعب فأخذا يلتقطان أنفاسهما وهما يشاهدان علوان يسقط على الأرض متألماً ووجهه تغطيه الدماء.. وهنا

اخترق أصواتهم تسجيل آخر ولكن من نوع آخر.. كان الشبق والغنج
صفة ظاهرة به.. إنه صوت امرأة ورجل يمارسان الجنس بوضوح..
وهنا أخذ الأربعيني يستمع بفرح ولكز عماد بكتفه: «استمع..
استمع».. وأخذ الاثنان يستمعان وهما يتندران ويفعلان بأجسادهما
ما يسمعانه بأذنهما.. حتى علوان أخذ يستمع إلى التسجيل باهتمام
وهو يحاول أن يتناسى فضيخته بسماعه لفضيحة شخص آخر.. أخذ
الأربعيني يستمع إلى أصواتهما وهو يصفر ويتحدث شامتاً وهو يفرك
شاربه بفخر ويتحدث إلى عماد: «ااه.. يا ليتني كنت أنا بدلاً من هذا
الشخص المحظوظ».. وأخذ يلكز عماد ولكن هذه المرة لم يبادلها عماد
الضحك كالمعتاد على نكاته السمجة.. ولكن وجد العكس.. وجهه
ممتقع وعرقه يغطي رأسه وجسده يرتجف.. فسأله الأربعيني بقلق:
«ما بك يا عماد؟ لماذا تغير وجهك هكذا؟».. وهنا جاءته الإجابة
سريعة عندما وجد السيدة تتحدث بغنج شديد وترجى عشيقها بأن
يستمر بالمزيد أكثر وأكثر.. وتخبره أنها تعشقه وتحبه للغاية.. ونادت
باسم عشيقها بوضوح: «عماد».. وهنا ابتسم الأربعيني وأخذ ينكز
عماد بيده: «ههههه أرأيت يا ابن المحظوظة أن اسمه عماد مثلك»..
ولكنه وجد عماد يراجع إلى الخلف مرتاعاً وهو ينظر له فارغ الفم
مشدوهاً.. شعر الأربعيني بأن هناك شيئاً خاطئاً يحدث.. وأخذ
يستمع إلى صوت السيدة وهي تتحدث بتركيز أكثر وحينها تعرف على
صوتها بسهولة لأن هذا صوت زوجته.. إذاً إنه يستمع الآن إلى زوجته
تتغنج وهي تمارس الجنس ولكن هذه المرة ليس معه بل مع عشيقها
الذي يدعى عماد.. هل يعقل؟ لم يستطع عقله تصديق استنتاجه هذا..

لا يمكن أبداً أن يصدق لوهلة أن زوجته المحبوبة التي حارب جميع أهله من أجلها أن تخونه مع من يعتبره أخاه الأصغر عماد.. أبى أن يصدق بالتأكيد.. هذا شيء غير معقول.. بالتأكيد هذا صوت يشبه صوت زوجته ولكن ليست هي.. وأيضاً هذا عماد آخر وليس عماد صديقي الذي ألزمه دائماً ويعمل معي بورشتي.. بالتأكيد هذه صدفة سخيفة.. ابتسم لعماد كالمعتاد وهو ينوي أن يطلق دعابة على هذه الصدفة السخيفة الحمقاء ولكن عندما قام عماد بالركض من أمامه فجأة.. شعر بأن هناك شيئاً خاطئاً.. كان يحاول أن ينادي عليه ويخبره أنه يعلم أنها صدفة سخيفة وأنه لم يشك بصديقه أو زوجته.. ولكن لماذا ركض هكذا؟ أخذ يتعجب من رد فعله.. صوت ضحكات ساخرة متندرة جعله ينظر للأمر بشكل مختلف.. علوان وجد فرصته للانتقام منها عندما سخر منه.. لم يكن ليعتقد أبداً أن يكون القدر سخياً معه هكذا ليرى بعينه فضيحة من قاما بالسخرية منه ومن فضيحته فأخذ يبصق الدماء مع الكلمات اللاذعة من فمه وهو يصف زوجة الأربعيني بالعاهرة وعماد بالعنتيل والأربعيني بأنه قواد.. هنا فطن الأربعيني أن الأمر لم يكن مزحة.. هنا فطن بأنه زوج مخدوع بالفعل.. ماذا يحدث؟ غلت الدماء برأسه وتملك رأسه الشيطان.. ماذا سيفعل؟ ماذا سيفعل؟ إن فضيحته استمع إليها أهل جهينة كافة.. لن يستطيع العيش بينهم مرة أخرى.. لن يستطيع أن ينظر إلى أحدهم بوجهه.. العار فوق رأسه.. أخذ علوان يسخر منه ويسبه ويعايره.. وهنا نظر إليه الأربعيني بغضب شديد.. إنه سوف يقتله.. سوف يقتله وسوف يقتلهم جميعاً.. سوف يقتل من سخروا منه ومن فضحوه أمام

العامة.. أصوات زوجته وصديقه مازالت على الملاء وشبقهما يملاً آذان الأطفال قبل الكبار.. يجب أن يسكت هذا الصوت أولاً.. ولكن كيف؟ أخذ يركض بشوارع جهينة يبحث عن عماد.. نظرات الجميع المتشفية كالخناجر الحادة تنهال عليه من كل حدب وصوب.. أحد الشباب ينظر له ويصنع أفعالاً بذيئة بيده.. نظر له الأربعيني بجنون.. إنه سيقتله.. سيقتلهم جميعاً.. جميع من ينظرون إليه بشفقة، ومن ينظرون إليه شامتين، ومن ينظرون إليه طمعاً في زوجته وأن يكون لهم اللقاء التالي على سريرهما.. سيقتلهم جميعاً.. النساء والرجال والأطفال.. حتى من لم يولدوا جميعاً.. سوف يقتلهم أيضاً حتى لا يعلم أحد بفضيحته تلك أبداً.. ولكن صوت زوجته وعماد مازال مستمراً.. اللعنة!! لماذا لم ينته هذان الوغدان؟!.. أيعقل أنهما يمارسان الرذيلة بمنزلي؟ وهنا انطلق الأربعيني في الحال يشق طريقه إلى منزله.. لا يعلم كيف ذهب، ومتى، ولكنه وجد نفسه أمام باب المنزل بأنفاس لاهثة.. يحطم الباب لكي يدلف عليها فجأة ويراهما رأي العين.. ولكن صرخات زوجته من خلف الباب وهي تترجاه أن يسامحها وأن يغفر لها.. شعر بالجنون أكثر إذ كانت ظنونه حقيقة.. إنها يخوناني أنا.. أخذ يحطم الباب بعنف شديد وصرخات زوجته من خلف الباب وحديثها مستعطفة تفكره بنبرات صوتها وهي تغنج بشهوة شديدة مع صديقه.. شعر بالشیطان يتلبسه.. حطم الباب بضربة واحدة من كتفه وسقطت زوجته أسفل الباب.. رفع الباب بيده بسرعة شديدة وأمسك زوجته من شعرها بقوة شديدة يجرها بأنحاء المنزل كما تجر الشاة الذبيحة وهو يصرخ بها باكياً: «لماذا؟ لماذا ختيني؟ لماذا؟».. صرخات طفليه وهما

يحتضنان بعضهما خائفين وهما يشاهدان أباهم يسحل أمهما أرضاً وهما لا يعلمان ماذا يحدث أو لماذا.. أخذا يستصرخان أباهما وهما يترجيان: «لا تؤذِ أمنا يا أبي.. لا تؤذِ أمنا».. دموعهما الباكية مزقت قلب الأربعيني في لحظة واحدة فترك زوجته مصدوماً وهي تحاول الخلاص من تحت يده وهو يحدث طفليه باكياً: «أنا لست أباكما.. أنا لست أباكما.. أنتما أولاد تلك العاهرة التي فضحتني أمام الجميع.. سوف أقتلها هي وعشيقها.. سوف أمزقها أمامكم جميعاً».. وهنا نظرت زوجته إليه وهو يتقدم جهتها وعيناه حمراوان كالشياطين.. فأرادت النجاة بأي طريقة، ولم يهد سبيلها إلا أن تذهب إلى النافذة وهي تركز مسرعة ورأت زوجها خلفها وهو يصرخ بها أنه سيمزقها إرباً ولن يدعها تهرب أبداً.. وهنا أخذت قرارها في الحال وقفزت من النافذة وهي تصرخ مرتاعة.. لحظات ودوى صوت ارتطام قوي بالأرض.. وقف الأربعيني ينظر من النافذة وشاهد رقبة زوجته على الأرض محطمة أسفل جسدها فقد سقطت على رقبتها أولاً فتحطمت في الحال وأصبح جسدها الجميل كتلة من اللحم المشوه الغارق ببحر من الدماء.. وعلى الرغم من هذا المشهد أمامه لم يبرد قلب الأربعيني ولو لدقيقة وأراد أن ينفذ انتقامه ولكنها هربت من يده.. هربت من يده.. قلبه مازال يشتعل بنيران الغضب.. سأنتقم بالتأكيد.. سأنتقم بالتأكيد.. قالها وهو ينظر للطفلين المنهارين خلفه بالمنزل..

* * *

«حرائق وتدمير وصراخ وعراك وجميع ما تتخيله من اضطرابات حدثت بجهينة بسبب تسجيلات مازن.. لكل شخص سر قدر.. كان مازن يحمل كل تلك القذارة على عاتقه، أما الآن فإنه سوف يعطي لكل شخص بالمدينة نصيبه من القذارة».. هذا ما كان ينطق به كريم وهو يشاهد الاضطرابات التي تحدث بالمدينة وهو يضحك ساخرًا..



أصداء تسجيلات أهل جهينة أخذت تتوسع بكل مكان وتبعاتها تلاحقها على شكل حوادث وحرائق وشجار بكل جهة بأطراف المدينة، وكان الجميع يطاله هيب الغضب المستعر بين جموع السكان، سواء كان طرفاً أصيلاً في تلك التسجيلات أو أن يجعله حظه العثر ضحية بهذا الصراع حتى إن لم يكن له بهذا الأمر ناقة أو جمل..

وقف سرور أمام متجر عزام مندهشاً مما يسمعه وخلفه شعبان وبعض رجاله يتغامزون ويتضحكون على تسجيلات أهل المدينة، وكان المتجر والشارع أمامه شبه خالٍ لا يرى أحد هناك إلا شخص مار أو هارب من هذا الجنون إلى جهة أخرى من المدينة يحسبها أقل وطأة من الجهة التي يعيش بها.. تسريب التسجيلات تلك أشعل الأحداث بجهينة، وعلى الرغم من أنه أقلها غرابة ولكنه كان من أكثرها تأثيراً على المدينة وأهلها، فدائماً ما يتفاعل البشر بترقب أكثر مع ما يجهلونه من أمور طبيعية أو خارقة لمفهومهم، ولكن رد فعلهم يكون سريعاً وعنيفاً مع الأمور التي تكون صنيعة غيرهم من البشر، وهذا ما كان واضحاً وجلياً لدى الجميع، ومنهم سرور الذي شعر بالخوف والقلق الشديد

على زوجته وابنته، وأخذ يتحسس سلاحه الناري بجانبه وهو يتمنى لو كانت زوجته هاجر تستمع إليه وتحضر معه هي وابنته إلى المتجر كل يوم ولكنها دائماً ما كانت ترفض هذا الاقتراح.. وعلى الرغم من رفضها الدائم هذا فإن سرور كان يشعر بالارتياح بداخله حتى لا تراه زوجته وابنته وهو يتعامل هكذا مع شعبان ورجاله، ومع بعض أهل مدينة جهينة وهو ينتقص من كرامتهم؛ لأنه يعلم أن رؤيتها لتلك المشاهد سوف تؤثر على علاقتها بكل تأكيد، ولكن في نفس الوقت كان يتمنى أن تكونا بجواره دائماً حتى تصبحا بأمان وليحميهما.. حاول أن يطرده قلقه وخوفه كثيراً وهو يطمئن نفسه بأنه لن يتعرض لهما شخص ما بسوء لأنه بذلك سوف يجعله يعاديه هو وعصبته، وهذا ما يتجنبه الكل بتلك الفترة، ولكن الهرج والمرج الناتج عن تلك التسجيلات المستمرة لم يجعله يشعر بالاطمئنان أبداً، فالمدينة يغلفها عبق الجنون.. إذا كان للجنون رائحة فستشتمه بجهينة الآن بكل تأكيد.. نظر سرور متردداً بداخل المتجر الذي لم يعد به أحد سوى طاقم العمل المكون من فتاتين وثلاثة شباب وخمسة من رجال شعبان، ثم نظر إلى الشارع الخالي من المارة فأوجس في نفسه خيفة ولم يستطع أن يحتمل قلقه أكثر من هذا فتحدث إلى الجميع خلفه: «يبدو أن هناك شيئاً يحدث بالمدينة الآن.. سوف أذهب إلى منزلي لأطمئن على زوجتي.. وأنتم أيضاً اذهبوا إلى منازلكم لتطمئنوا على عائلاتكم».. ثم تحدث إلى شعبان بجواره: «وأنت يا شعبان ورجالك فلتحرص على حماية المتجر جيداً حتى لا يصيبه أي شيء من تلك الاضطرابات»..

ضحك شعبان وهو يطمئنه: «لا تقلق يا زعيم.. من يتجرأ على الاقتراب من المتجر فسوف....» ثم حرك يده على رقبته كناية عن الذبح.. فتحدث إليه سرور بقلق: «لا تؤذ أحداً يا شعبان.. أرهبهم فقط ليتعدوا عن المتجر».. أخذ شعبان يضحك بملء فيه وظهرت أسنانه السوداء مصاحبة أنفاسه التنتنة اللاهثة: «لا تقلق أنت.. كل شيء تحت السيطرة».. نظر له سرور للحظات متردداً أن يتركه بمفرده، ولكن قلقه على أهله كان أشد وطأة فتركه سريعاً وخرج من المتجر قاصداً منزله.. وهو في بداية الطريق كان يشعر بالصدمة من كم تلك الأسرار التي كان يمتلكها سكان جهينة وهو يتساءل: من يفعل ذلك؟ ولماذا؟ وشعر بالقلق أكثر عندما شاهد من بعد كبير السنة الدخان تتصاعد من مناطق كثيرة بجهينة وهي واضحة على الرغم من حلول ظلام الليل، ولكنه طمأن نفسه قليلاً لأن تلك الأماكن كانت بعيدة عن منزله.. قطع سرور ثلث الطريق وهو يتأمل ما يحدث بالمدينة إما معترضاً على ما يسمع أو ساخراً شامتاً بفضائح الآخرين الشائنة التي -بالطبع- أقل بكثير مما كان يعتبره فضيحة له.. لم يكن سرور يضع باعتبارها أي شيء يحدث.. هو كان يريد أن يشعر زوجته وابنته بالأمان فقط.. إنها بالتأكيد تشعران بالخوف مما يحدث حولهما لأن الجميع بلا استثناء كان يشعر بذلك حتى سرور نفسه.. أثناء اتجاهه إلى المنزل لاحت لعينه ورقة فارغة من قطعة الشيكولاتة المحببة التي تحبها ابنته، وهنا أدرك شيئاً مهماً.. لقد وعد ابنته وعد البنصر أنه سوف يحضر معه لها وهو عائد قطعة الشيكولاتة المحببة لها، ولكنه نسي ذلك في خضم ما يحدث.. فماذا يفعل؟ هل يعود ويحضرها لها أم يكمل طريقه عائداً

إليهما؟.. هو قد نسي بالتأكيد ولكن الأطفال أبدًا لا تنسى أي شيء وعدتهم به، ولن يلتمسوا لك الأعذار أبدًا حتى لو انطبقت السماء وأعلنت عن الفضاء لا يهمهم ذلك بشيء أبدًا.. المهم أنك قد أخلفت وعدك.. وقف سرور بالطريق مترددًا حائرًا لا يدري ماذا يفعل.. هل يعود للمتجر أم البيت؟ إن المسافة إلى المتجر ليست بعيدة ولكنها أيضًا ليست قريبة.. شعر بالحيرة الشديدة.. أغلق عينيه للحظات ولف حول نفسه مرتين وشعر بأنه سيسقط على الأرض فتوقف وفتح عينيه سريعًا ليجد نفسه جهة المتجر.. هذه الطريقة التي كان يحل بها سرور أي موقف يجد نفسه ما بين خيارين.. «إذا تفوز ابنتي ورغبتها».. قالها لنفسه مبتسمًا وهو متوجه مسرعًا جهة المتجر ليلتقط لها قطعة الشيكولاتة.. أخذت التخيلات رأسه.. وأفكاره المشائمة تلعب برأسه، وجعلته يندم على اختياره هذا.. وفكر مرارًا بأن يعود إلى منزله، ولكن مع اقتراب المتجر بكل خطوة يخطوها كان يتراجع سريعًا.. استمر هذا الأمر بتفكيره ثلاث مرات حتى وجد نفسه أمام المتجر الذي كانت أضواؤه الخارجية مغلقة.. ولكنه لم يجد أحدًا من شعبان ورجاله أمام المتجر ليحرسه فحدث نفسه ساخطًا: «اللعة على شعبان ورجاله! إنهم تركوا المتجر بدون حراسة.. هؤلاء الأوغاد.. فتح باب المتجر سريعًا بمفتاحه الذي يحمله فوجد الإضاءة بالمتجر خفيفة ولكن ليست مغلقة.. فذهب مسرعًا جهة قسم المواد الغذائية والتقط قطعة الشيكولاتة من فوق الرف ثم انسحب بهدوء عائدًا وهو ينوي أن يوبخ شعبان على ترك المتجر بدون حراسة.. اتجه سريعًا جهة مخرج المتجر لكن قدمه انزلقت أسفله وكاد يسقط، ولكنه التجأ إلى

رف بجواره واستند عليه واعتدل بالحال، وهنا نظر إلى أسفل قدمه ليرى بمَ تعثر ليجد بركة كبيرة من الدماء وهو يقف بوسطها شاعراً بالصدمة مما شاهده.. أخذ ينظر متفحصاً بركة الدماء وهو يبحث عن مصدرها ليجدها آتية من خلف مكان مسئول الحسابات بالمتجر أو ما يعرف بالكاشير، ليجد خلف مكتبه شخصين يرتديان ملابس مكتوباً عليها «متجر عزام» باللون الأبيض الذي تحول إلى الأحمر القاني بسبب دمائهم التي كان تنفجر كالشلالات أسفل حناجرهم المذبوحة.. لقد تعرف عليهم في الحال.. إنهما العاملان بالمتجر.. إنهما مقتولان ومذبوحان أمامه.. كيف؟ ولماذا؟ ومتى؟.. كل تلك الأسئلة قفزت إلى رأسه الذي كان مزدحماً بالأفكار عما حدث.. قطع تلك الأفكار صوت صراخ شديد للغاية أتى من داخل المتجر.. قفز سرور مرتاعاً بمكانه بسبب تلك الصرخات ولم يشعر بالأمان إلا وسلاحه الناري بيده يضغط عليه بقوة وهو يقتحم الطريق إلى داخل المتجر ليجد تلك الصرخات آتية من الجزء الخلفي من المتجر وأماكن التخزين وغرف ملابس وحمامات العمال.. اتجه مسرعاً إلى جهة المخزن ليجد مصدر الصرخ الفتيات اللاتي يعملن بالمتجر ملابسهن ممزقة وهن عاريات ويعتليهن رجال شعبان العراة، والفتيات يصرخن ويستغثن بجنون أسفلهم، ورجال شعبان يضربونهن بعنف شديد وتلذذ كبير وعلى وجوههم علامات الشبق الشديد، وشعبان يجلس بالقرب منهم يشاهد باستمتاع ما يفعلونه وهو يضحك ويشير إلى رجل بجانبه على إحدى الفتيات وهي تصرخ مستنجدة بأي شخص ولا تجد من يغيثها.. شعر سرور بأنه قد شُل تماماً أمام هذا المشهد..

لم يكن يتوقع يوماً من الأيام أن يشاهد مشهد اغتصاب جماعي أمامه هكذا.. وقف بلا حراك لا يدري ماذا يفعل أو يقول.. شاهدهته إحدى الفتيات أمامها فاستصرخت به أن ينقذها من أيديهم.. ارتجف جسد سرور لم يدري ماذا يقول لها.. قدماء تكادان لا تتحملانه من هول ما رأى.. نظر إليه شعبان قلقاً فسأله مرتبكاً: «سرور.. لماذا عدت؟».. أخذ سرور ينظر إليه مصدوماً دون أن يتحدث.. شاهد شعبان قطعة الشيكولاتة بيده.. فضحك ساخرًا: «هل عدت من أجل ذلك؟!».. أخذت الفتيات يصرخن بسرور بهستيريا شديدة أن يخلصهن.. لم يستطع سرور تحمل أصوات استغاثة الفتيات أكثر من ذلك فصرخ برجال شعبان وهو يحمل سلاحه الناري جهتهم وهو يرتعش.. فتوقف الرجال وهم ينظرون له بغضب شديد بعد أن قطع أوقاتهم السعيدة ما عدا رجلاً واحداً أخذ يغتصب الفتاة بعنف وعلى وجهه علامات الشبق الشديدة، وحدثه بأنفاس لاهثة: «انتظر.. سوف أنتهي قريباً».. أخذت الفتاة تصرخ بسرور بشدة.. فانتفضت جهة الرجل وقام بضربه بعنف على رأسه بمؤخرة سلاحه.. فقفز الرجل من فوق الفتاة متألماً وهو عارٍ تماماً أمام سرور فشر بالتقرز الشديد من رؤيته هكذا.. أخذت الفتيات يصرخن وهن يحاولن تغطية مفاتنهن ودماء عفتن تنساب بين أقدامهن وأجسادهن العارية ممتلئة بالكدمات الشديدة.. تحدث الرجل بغضب جهة سرور وهو يتألم وحاول أن يبطش به.. فقام سرور بإطلاق النيران إلى أعلى وصرخ بشعبان ورجاله أن يذهبوا خارجاً.. فترددوا للحظات فأشار إليهم شعبان بأن يدعوا له فخرج رجاله وصحبهم شعبان وهو ينظر إلى سرور شزراً.. نظر سرور إلى

الفتيات فوجدهن منهارات عاريات فأشاح بنظره بعيداً وتحدث إليهن أن يرتدين أي شيء من غرف ملابس العمال.. فانصاعت الفتيات وهن يبكين منهارات وأخذن يتحدثن بكلمات غير مفهومة من فرط صدمتهن.. وأخذت أصوات عويلهن تمزق قلب سرور كالسياط الحادة.. مرت دقائق كالأعوام على سرور والفتيات، وانتهين من ارتداء ملابسهن وسرور مازال مشيحاً عنهن بوجهه، ثم اصطحبهن إلى خارج المخزن وهو يحميهن من رجال شعبان وهن مختبئات خلف ظهر سرور.. ونظرات الرجال كلها شهوة وحيوانية تجاههن، وأخذ بعضهم يداعب أعضائه وهو يلقي على الفتيات كلمات بذية قدرة.. اقتربت الفتيات بصحبة سرور إلى جهة باب المتجر وهنا لاحت منهن التفاتة إلى زملائهن العمال وهم مذبحون فصرخن بجنون وركضن إلى خارج المتجر مرتاعات، وتركن سرور وحيداً بالمتجر لا يدري ماذا يفعل.. وهنا اقترب منه شعبان ورجاله وحدثه ساخرًا: «هل انتهيت من تلك العاهرات سريعًا هكذا؟».. نظر إليه سرور بغضب شديد: «وهل تظن أنني أفعل مثلكم أيها الحيوانات القدرة؟ هل تظنونني مثلكم؟».. حدثه شعبان مندهشًا: «لماذا أنت غاضب هكذا؟ هل فعلنا شيئًا خاطئًا؟».

نظر له سرور مشدوهاً: «شيء خاطئ؟ هل أنت مختل أم ماذا؟».. هز شعبان كتفيه سريعاً: «لا لست مختلاً.. لم أفعل شيئاً خاطئاً أنا ورجالي.. كل ما هنالك أننا كنا نمرح مع سكان جهينة.. مثلما كنت تمرح معهم كل يوم بالمساء»..

«ماذا؟ أشبه نفسك بي.. هل أنا أفعل أشياء قدرة هكذا مثلك أنت ورجالك؟».

«بالطبع أنت تفعل ذلك.. هل تعتقد أنك حينما تخضع سكان جهينة لك وأنت تستغل حاجتهم للمتجر وتجعلهم يفعلون ما تريد.. حتى لو كان الرقص مثل الكلاب أو البكاء كالأطفال أو الرغاء كالأبقار.. هل تلك الأشياء ليست قدرة؟ تجعلهم ينفذون ما يخيله لك عقلك النجس أمام أقاربهم وأبنائهم.. إذا لم تكن هذه هي القذارة بعينها فبماذا تسمى إذا؟! عقلك أنت الذي به خلل يا سرور إذا ما كنت تعتقد بأن ما تفعله هذا ليس خاطئاً وليس أنا.. أنت مثلي وأنا مثلك ولكني أكثر صراحة منك.. أنا تعجبني فتاة فأضاجعها.. يعجبني شيء فأسرقه.. لا يروق لي شخص فأقتله.. فقط هكذا.. أفعالي صريحة وواضحة لكني لست مثلك أبداً أحاول أن أضع قيماً ومبادئ أعطي بها أفعالي تلك»..

.. شعر سرور بالتقزز الشديد من حديث شعبان ومقارنته معه هو ورجاله.. هؤلاء المغتصبون المجرمون القاتلون.. شعر بالضيق كيف يقف أمام تلك الخنازير القدرة ويبادلهم حديثاً بحديث؟! كيف أصبح الوضع هكذا؟! يترأس شرذمة من القتلة الخارجين على القانون يفعلون ما يجلو لهم بالمدينة وأهلها بسببه هو.. لم يكن يتخيل يوماً من الأيام أن يحدث له ذلك.. قطع تفكيره صوت شعبان وهو يتحدث إليه بنبرة قوية: «حسناً.. يؤسفني قول هذا الآن أيها الزعيم، ولكن حان الوقت لكي يبتعد القرد عن الغابة ويحكم الأسد بدلاً منه.. إذا ومن هذه اللحظة لن يكون لك صلة بالمتجر أو بأي شيء يخصه»..

أخذ يبتسم ويضرب صدره بيده: «منذ اليوم فصاعدًا سوف يكون المتجر والمدينة من اليوم ملكي أنا.. لقد تركتك بلعبتك هذه كثيرًا.. ولأصدقك القول لقد كنت مستمتعًا بتلك اللعبة، فأنت تملك خيالًا خصبًا للغاية لا أملكه.. كنت تفاجئني كل يوم بأشياء جديدة تفعلها بأهل جهينة.. وبالفعل لقد ألهمتني كثيرًا وأعطيتني أفكارًا جديدة سوف أنفذها بأهل المدينة، ولكن بالتأكيد سوف تكون أكثر صراحة مما تفعل دائمًا»..

هنا تجمد العرق على وجه سرور وهو يحدث نفسه: «لقد كنت أعلم هذا.. لقد كنت متوقعًا ذلك ولكنني كنت أكذب على نفسي دائمًا بأن الوضع تحت سيطرتي ولكن لماذا أصبح الوضع هكذا؟».. وأخذ ينظر إلى الشابين المذبوحين بالقرب منه: «لماذا يتأذى الناس حولي؟ أنا لم أكن أعتقد أن يحدث هذا أبدًا.. كنت أريد أن أساعد الجميع.. كل ما كنت أريده أن أحمي ابنتي وزوجتي.. أريد أن يختفي كل شيء وتعود الأمور كما كانت حتى ولو عدت منبوذًا مرة أخرى»..

راقب شعبان سرور وهو ينظر إلى الشابين المقتولين بجواره، فأخذ ينظر له متحسرًا: «خسارة كبيرة.. لقد ماتا بدون داع.. لقد كانا يروقان لي ولكن لم يبتعدا كما أمرتهما.. وهذا جزاء من يعارضني»..

وأخذ ينظر إلى سرور بتحدٍ.. فبادلته سرور النظرات وهو يضغط على سلاحه الناري بيده بقوة.. فتحدث إليه شعبان مبتسمًا: «هل تريد أن تسمع شيئًا مسليًا؟ هذه قصة رائعة أحكيها لرجالي كثيرًا.. عن كيف أصبحت من مجرم صغير إلى ما أنا عليه اليوم.. لقد كنت

معتادًا على الذهاب إلى السجن كل عدة أعوام.. أحيانًا كنت أذهب لمجرد تقضية الوقت ولقاء بعض الأصدقاء القدامى بالداخل.. وأثناء كل تلك السنوات تعلمت شيئًا مفيدًا للغاية.. قراءة ما بداخل الناس هنا.. وأشار بإصبعه جهة رأسه: «أصبحت أعلم ما يفكر به خصمي دائمًا».. أخذ يضحك ساخرًا: «أنت تعتقد بأنني أكذب.. أليس كذلك؟».. ثم نظر إلى رجاله خلفه وأخذ يضحك بشدة وهو يشير إليهم وهم يبادلونه الضحكات: «أنتم أيضًا أيها الأوغاد كنتم تعتقدون بأنني أكذب من قبل».. وأخذ الجميع يضحك وسرور يرقبهم متحيرًا.. فتابع شعبان حديثه إليه: «حسنًا سوف أثبت لك أنني لا أكذب.. أنت مثلًا الآن تعتقد بأنك سوف تستخدم تلك اللعبة الصغيرة بيدك المرتعشة هذه وتحاول أن تتخلص مني أنا ورجالي وتنتقم لهدين الشابين المسكينين وهؤلاء العاهرات الصغيرات.. أليس كذلك؟ أنت تعتقد أنك تستطيع فعل ذلك.. لأنك قوي استطعت أن تتحكم بمدينة جهينة بأكملها بهذا السلاح الصغير لأنك أنت الوحيد من يمتلك سلاحًا ناريًا.. أنت استطعت أن تفوز بكل معاركك.. مع أهل جهينة ومع عزام ومع الشرطة أيضًا.. استطعت أن تتغلب على كل هذا.. ولكن دعني أخبرك بشيء.. أنت لم تتغلب على كل هؤلاء بسبب تلك اللعبة الصغيرة.. أنت فقط تعتقد هذا.. ولكن ما حدث أنك استطعت أن تفعل كل ذلك لأنني أردت أن تفعل أنت هذا.. ليس بسبب ذكائك أو قوتك أو حتى سلاحك.. إنما بسبب شعبان.. شعبان ورجاله هم من جعلوك هكذا.. رأيت كيف أنني أستطيع أن أقرأ ما بداخل عقلك؟ ولكن سوف أخبرك بشيء أغرب من هذا.. أنا

أستطيع أن أقرأ المستقبل أيضًا.. فأنا أعلم بأن تلك اللعبة التي بيدك هنا بها 4 طلقات نارية ونحن الآن خمسة أفراد.. وإذا قمت بإطلاق النار علينا واستطعت إصابة كل شخص بطلقة واحدة - وأنا أستبعد هذا تمامًا - فسوف يتبقي شخص واحد سوف يركض إلى باقي الرجال ليخبرهم بما فعلته، وهنا باقي رجالي سوف يفعلون المستحيل لكي يتحصلوا عليك.. ولا تقلق، لن يقتلوك، بل سوف يجعلونك تشاهد فقط زوجتك ودبتك الصغيرة ونحن نفعل بها مثلما كنا نفعل بتلك العاهرات منذ قليل ولكن بطريقة أكثر شهوة وأشد إيلا.. وأنت لن تستطيع أن تفعل شيئاً أبداً لأنك سوف تكون محطم اليد والأقدام ومنزوع اللسان، ولن تفعل شيئاً أبداً.. لا.. آسف.. تستطيع أن تبكي لأننا لن نقلع عينيك حتى تراهما جيداً.. وسوف نفعل ذلك كل يوم لثلاث مرات لكل فرد منا وسوف تراقبهم كل مرة».. أخذت علامات الصدمة والهلح ترسم على وجه سرور من حديث شعبان الذي كان يشرح ما سيفعله بعائلته بكل سادية.. نظرات شعبان الشيطانية جعلته يتخيل كل ما يقوله، ولم يحتمل عقله ما تخيله أبداً، ولم تتحمل قدماه جسده فسقط على ركبتيه جاثماً.. وهو يبكي متوسلاً..

«أرجوك.. سوف أفعل كل ما تريده ولكن لا تؤذ عائلتي أرجوك».. وانسابت الدموع من عينيه بغزارة وسقط بنوبة بكاء شديدة للغاية وسال المخاط على وجهه.. فضحك الجميع على رد فعل سرور فصرخ أحد الرجال بشعبان: «انظر.. إنه يبكي كالنساء».. وأخذ الجميع يضحك ما عدا شعبان الذي نظر إليه متقرزاً من مشهد المخاط على وجهه.. فأشاح بوجهه عنه وصرخ به: «حسناً.. حسناً.. لا تبك»..

فلتذهب لتغسل وجهك ولتمسح قذارتك تلك وعد إلي سريعاً..»..
أخذ سرور يمسح عينيه وهو يحاول أن يتوقف عن بكائه ويديه سلاحه
الناري ليس له قيمة.. وأخذ شعبان ورجاله يرقبونه وهو منصرف إلى
الجهة الخلفية للمتجر ويختفي عن أعينهم جميعاً.. فصرخ به الرجل
الذي ضربه سرور على رأسه: «هل ستتركه يذهب يا شعبان؟ لماذا
لا نقتله الآن هذا اللعين ابن العاهرة؟ لقد ضربني على رأسي»..

أجابه شعبان بضيق: «ليس الآن.. ليس الآن.. يجب أن نترث
قليلاً.. لن يتقبل أهل جهينة وجودنا بالمتجر فجأة هكذا.. يجب أن
يتعودوا على عدم وجود سرور بالمتجر رويداً رويداً ويشاهدونا نحن
بدلاً منه؛ لأنهم لو شعروا بأننا أخذنا المتجر بالقوة سيتكالبون علينا..
والكثرة تغلب الشجاعة»..

ابتسم له أحد رجاله: «يا لك من شيطان يا شعبان! لم نفكر
بهذا أبداً»..

أجابه شعبان مفتخراً: «دعوا لي أنا فقط التفكير.. لقد كنتم مجرد
مجرمين هارين يجمعكم طمع الحصول على بعض قطع الذهب والآن
أصبحتم تمتلكون بلدة كاملة برجالها ونسائها وأطفالها.. نستطيع أن
نفعل بهم ما نشاء»..

سأله أحد رجاله: «ماذا عن الشرطة.. يا شعبان؟»..

أخذ شعبان يداعب ذقنه قليلاً: «اممم.. سراج هذا هو وجع
رأس.. يجب ألا نحتك بهم الآن.. سوف نجد لهم حلاً فيما بعد»..
هنا قاطعهم صوت باب المخزن وسرور يفتحه عائداً وقد تماسك

قليلاً.. فاتجه إليه شعبان ورجاله وهو يتسم ساخرًا: «لقد كفت عن البكاء.. جيد للغاية.. أنا مشاعري رقيقة للغاية ولا أحتمل بكاء الرجال.. والآن يجب أن تنصرف من هنا ولا تريني وجهك مرة أخرى.. فأنا معجب بك بالفعل ولكن.. بيزنيس ايز بيزنيس.. أعطني مفاتيح المتجر هيا..».. أخرج سرور مفاتيح المتجر من جيبه وأعطاه لشعبان الذي ابتسم له ومد يده إليه مرة أخرى: «أعطني هيا لعبتك التي بيدك تلك».. نظر سرور إلى السلاح الناري بيده قليلاً ثم أعطاه لشعبان الذي أخذ يتفحصه للحظات وهو يتسم: «جيد.. جيد.. هيا تفضل وأرني عرض أكتافك».. أخذ سرور يتحرك إلى جهة باب المتجر وهو مطأطئ الرأس.. وعند اقترابه من جهة الباب استوقفته صرخة قوية من شعبان إليه: «توقف يا سرور»..

وهنا سقط قلب سرور بين قدميه.. ماذا سيفعل شعبان الآن؟ هل سيقتله بعد أن أخذ منه سلاحه الناري؟ أخذ سرور ينظر إلى باب المتجر القريب منه وأخذ يفكر بالهروب للحظات ولكنه تراجع سريعاً خوفاً من أن يلحقه رجال شعبان وينتقموا منه ومن أسرته.. فإذا قتلوه الآن على الأقل سوف يموت بمفرده دون أن يدخل زوجته وابنته في هذا الصراع.. التف سرور ببطء جهة شعبان الذي نظر إليه وهو يتسم ثم قام بإلقاء شيء تجاهه فأمسكه سرور مستغرباً ونظر به فوجده قطعة شيكولاتة.. تحدث إليه شعبان ضاحكاً: «فلتعطِ هذه لدبتك الصغيرة وأخبرها بأنها هدية من عمها شعبان».. وأخذ يضحك هو ورجاله بشدة.. فأخذها سرور وتحرك إلى جهة باب المتجر وفتحه ووقف أمامه للحظات وشعبان ورجاله يرمقونه ساخرين ولكنهم اندهشوا

بشدة عندما وجدوا سرور يقف أمام باب المتجر وينظر إليهم، وأخذ يعث بباب المتجر للحظات فشعروا بالدهشة من فعله، فتحدث أحد رجال شعبان إليه: ماذا يفعل هذا الوغد؟ لماذا لم يرحل؟ شعر شعبان بالارتياح من فعل سرور فتحدث إلى أحد رجاله: «اذهب وراقب هذا الوغد لترى ماذا فعل.. تحرك الرجل سريعاً وهو ينظر إلى سرور وهو خلف الباب الزجاجي فصرخ بسرور: «فلترحل يا ابن العاهرة من هنا».

ولكن سرور لم يتحرك من مكانه، وظل واقفاً أمام المتجر متحدياً.. فصاح شعبان برجله: «افتح الباب ولتأتِ بابن العاهرة هذا هنا».. على الفور قام الرجل بفتح الباب لكي يفتك بسرور وينفذ أمر شعبان ولكنه فوجئ بأن الباب لا يفتح.. حاول مرة ثانية وثالثة ولكن لم يفتح فتحدث إليه الرجل بقلق: «الباب لا يفتح يا شعبان.. يبدو أن هذا الوغد قد قام بغلقه من الخارج».. أمسك شعبان بالمفاتيح التي بيده وأخذ ينظر إليها: «ابن العاهرة.. لقد أخذ نسخ المفاتيح جميعها».. فصرخ به أحد رجاله: «اللعنة! سوف نقتله هذا الوغد».. فجأة صدر صوت انفجار ضخم من داخل المتجر.. فشعر الجميع بالخوف والاضطراب وصرخ شعبان مضطرباً برجاله: «اذهبوا وشاهدوا ماذا حدث».. فذهب رجالان وعادا سريعاً مرتاعين: «إنه سرور هذا الوغد لقد أشعل النار بخزان الوقود.. إن المتجر يشتعل كالبحيم.. امتقع وجه شعبان واتجه مسرعاً جهة المخزن وتقهقر مصدوماً عندما شاهد ألسنة اللهب تنتشر بداخل المتجر والدخان الأسود يغلف المكان بسرعة شديدة.. وارتفعت درجة حرارة المتجر بسرعة رهيبة.. فركض

شعبان ورجاله سريعاً جهة الباب الزجاجي للمتجر وأخذوا يحاولون فتحه بكل قوة ولم يستطيعوا بينما أخذ سرور ينظر لهم من خلف الباب الزجاجي وليس على وجهه أي انفعال يذكر.. ظل شعبان ورجاله ينظرون إلى النيران التي كانت تقترب منهم بسرعة شديدة وهي تلتهم مكونات المتجر كالحوت الجائع وأخذوا يطرقون الباب الزجاجي بقوة ويترجون سرور أمامهم تارة ويسبون تارة وهم يريدون أن يفتح لهم.. أخذوا يسعلون من الدخان المطبق الذي ملأ المكان.. فصرخ شعبان بالجميع أن يبحثوا عن أي شيء يحطمون به الباب.. فذهب رجاله جميعاً وأخذوا يجمعون المقاعد وأي شيء يجدونه أمامهم بيأس شديد ولكن الباب الزجاجي كان يرتطم به كل شيء فيتضرر قليلاً فقط.. أخذ الجميع يضربون الباب الزجاجي بكل يأس والنيران خلفهم والدخان قد ملأ كل شيء وأخذ يخرج من خلف الباب الزجاجي فتراجع سرور قليلاً وهو يسعل ويرقب شعبان ورجاله وهم يسعلون ويضربون الباب.. وفجأة ابتسم شعبان ووضع يده بجيبه فأخرج سلاح سرور الناري وهو يضحك لسرور بهستيريا شديدة.. وقام بالتصويب على سرور وأطلق الرصاص بكل قوة وبعنف شديد، ولكن لم يحدث شيء.. شعر شعبان بالصدمة فحاول مرة ثانية وثالثة ولكن لم يحدث أي شيء.. فقام سرور بإلقاء أربع طلقات من بين يده ببطء شديد أمامه.. فشعر شعبان بقبضة الموت تعانق رقبتة وتسحبه بعنف إلى الجحيم.. فأخذ يصرخ بهستيريا شديدة وهو يحطم الباب الزجاجي ويصرخ بسرور أمامه وهو يشاهده يحترق هو ورجاله: «سوف أقتلك.. سوف أمزق جثتك وأطعمها لابنتك.. كح.. اوووح.. كح.. سوف أقتل... الح..

سوف أضاجع جثتك.. سوف.. ااحح..».. أخذ يسعل.. ويسعل وهو يمسك فمه يحاول أن يمنع نفسه من استنشاق الدخان الملتهب السام بين رئتيه فيشعل الجحيم بداخلهما.. سقط على الأرض مختفياً بين ظلام الدخان الذي غلف كل شيء قبل أن يستحيل المكان كله إلى نيران بصفرتها الحمراء.. على الرغم من أصوات المكبرات التي تعمل بدون كلل أو ملل.. كان صوت النيران وهي تمضغ محتويات متجر عزام أقوى وأشد.. وأخذت تعلو بزهو وغرور وهي تتحدى جميع من حولها بجبروت وقوة تستحقها.. وتنفث دخانها بكل مكان فتشد أنظار المارة إليها وتغوي أعين الرجال والنساء والأطفال.. أخذ سرور ينظر للمتجر وهو يحترق ويتمنى أن تحترق معه ذكريات الأيام الماضية التي كانت تصاحبه بذلك المتجر.. أصوات الهمس حوله أخذت تتعالى: «ما الذي حدث؟ هل احترق المتجر؟ ماذا عن الطعام والشراب؟ كيف سنأكل بعد ذلك؟ من فعل ذلك؟ ماذا يفعل سرور هنا؟ هل هو من فعل ذلك؟ اصمت.. سوف يسمعك ولن يعطيك طعاماً أبداً.. هيا ابتعدوا من هنا.. سرور سوف يأمر شعبان بقتلنا».. أخذت تلك الكلمات تشعر سرور بفداحة ما فعله.. هل كان يتلذذ بما يفعله فعلاً؟.. هل كان بالفعل مثل شعبان ورجاله.. أم كان يفعل ذلك من أجل أن يحمي زوجته وابنته وأهل جهينة؟ لقد كان يريد أن يحمي جهينة من أن يظلمها أحد.. ولكن هل تحول هو بدوره إلى ظالم مثلهم؟ كلمات شعبان هزت أعماقه، وكلمات أهل جهينة الهامسة ألقته به من فوق جرف إيمانه.. لم يعلم كيف يصنف نفسه بعد الآن: ظالماً أم مظلوماً.. كان يريد أن يغتسل من عار ما شاهده.. هل له يد باغتصاب

هؤلاء الفتيات؟ هل يقع ذنب قتل هذين الشابين على عاتقه؟ هل عندما ترك شعبان يفلت بفعلته بقتل عزام كان بتلك اللحظة هو السبب في كل ذلك؟ أخذت تتضارب مشاعره وتلتهمها نيران الأسف كما تلتهم نيران الكيروسين المتجر خلفه.. لم يشعر بنفسه إلا وهو يقف أمام حشد من الناس يشاهدون اشتعال المتجر خلفه ويصرخ بعلو صوته: «ساحوني.. أنا آسف.. لقد كنت مخطئاً.. لقد كنت مخطئاً.. لقد كنت أريد الخير لجهينة ولأهلها.. لم أكن أريد الانتقام من أحد.. لقد أردت أن تخشوني أنا بدلاً من أن تخشوا شعبان.. لقد كنت أعتقد بأن ما يحكم هو الخوف.. الخوف فقط.. ولكن لا.. ليس هذا الصواب.. لقد انتقمتم من شعبان ورجاله.. لقد أشعلت به النيران هو والمتجر.. لقد ألقيت بسلاحي وسط النيران.. لن يشعركم أحد بالخوف بعد الآن.. لن يتحكم بكم أحد بعد الآن.. مازن أو عزام أو سرور أو شعبان.. يجب أن نتكاتف معاً لكي نق...».. قطع حديثه فجأة شيء يرتطم برأسه من الخلف.. وضع سرور يده على رأسه ونظر بها فوجد دماء.. نظر خلفه سريعاً ليجد شيئاً أسود كبيراً ينهال على عينه فيفقؤها بالحال.. ثم وجد نفسه بالأرض وشخصاً فوقه يصرخ عليه: «الآن تريد أن نسامحك؟ هل نسيت أنك أطلقت علي النار من قبل بسلاحك؟ هل نسيت عندما جعلتني أعوي كالكلاب أمام زوجتي وأطفالي؟».. لم يفهم سرور شيئاً مما يحدث للحظات.. لكنه بدأ يفهم أخيراً عندما شاهد الرجل يحطم رأسه بصخرة بيده.. لقد أصبح لا يرى الآن.. لكن كان يشعر بما يحدث.. ها هي الصخرة تحطم رأسه مرة أخرى.. لماذا يحدث هذا؟ ضربة أخرى على جزء آخر من رأسه..

من الذي فعل هذا؟ جزء آخر من جمجمته يتطاير بعيداً عن رأسه.. ثم ضربة ثالثة ورابعة.. انسحق بها تفكير سرور مع انسحاق آخر شيء من رأسه الذي سوي بالأرض.. فجأة انهار الجميع على جسد سرور الذي أصبح بدون رأس.. وأخذوا ينغزونه بالعصي الحادة والأسياخ الحديدية.. ولكن لم يشعرهم ذلك بالرضا.. توجهوا إلى أقرب شجرة بالقرب منهم وربطوه بحبل من قدميه وعلقوا بها جسده الذي أصبح بدون رأس وأخذوا يلكمونه ويضربونه لدقائق فلم يشعروا بالراحة أيضاً فألقوه من على الشجرة وأخذ بعضهم يسحله على الأرض بقوة فتسحل معه أجزاء من جسده وجلده.. أخذ زمرة من أهل جهينة يمثلون بجسد سرور الذي أصبح شيئاً أشبه باللحم المهلهل بدون ملامح دون أن يعلموا لماذا يفعلون به ذلك.. كل ما كانوا يشعرون به أنه وسيلة للتنفيس عمّا بأنفسهم ممّا يحدث لهم.. على الرغم من كل هذا السحل والتنكيل لجسد سرور لم يستطع أي شيء من هذا أن يجعله يسقط شيئاً كان يحمله بقبضة يده كل هذا الوقت.. لم يستطع التعذيب والقتل والتمثيل أو الموت أو أي شيء بهذا العالم أن يجعله يسقط من يده قطعة الشيكولاتة الخاصة بابتته..



خرجت الأمور عن مسارها.. القطار صار مكانه بالمطار.. لا شيء كما كان، ولا بشر أو شجر أو حجر.. جميعهم أصابهم مصاب ممّا يحدث بداخل المدينة المغلقة.. أصبحت مشاهد النيران لونها أساسياً بلوحة المدينة.. الغربان تنعق وتلتف أصواتها فوق أصوات المكبرات لتنشر

رياح الرعب فوق الخائفين، وتزيد الجنون بمن أصبحوا مختلين.. صارت التيمة الأساسية بأفكار جهينة أصوات الرعب والفرع والصراخ من النساء وعلى الأطفال.. محاولات البعض التثبيت بعقله والهرب من وسط ذلك الجنون كانت أشبه بمقاتلة فأر لفيل ضخمة.. الحرائق التي التهمت أجزاء كبيرة من المدينة بعضها بفعل الريح ومن قبيل الصدفة العثرة والكثير منها أشعل بوقود الانتقام أو الحسد والغيرة، أو من باب الجنون الذي كان ينتقل بسرعة كما ينتقل البرد بموسم الشتاء.. مهما كان وضعك بجهينة.. مهما كانت شخصيتك، ومهما كان دافعك أو محركك فكانت تلك المشاهد المقبضة تنثر الحزن والقلق من المجهول فوق ملامح الجميع.. الجميع بلا استثناء إلا شخصاً واحداً فقط: العمدة مازن الذي كان يضحك بهستيريا شديدة وهو ينتقل بأنحاء المدينة يشاهد أهلها وهم يركضون خائفين أو يحاولون إطفاء النيران بشتى الطرق.. ها هو يقهقه بشدة وهو يشير بيده إلى سيدة مسكينة تركض والنيران متعلقة بها وتتلوى على الأرض صارخة.. أخذ بعض الحاضرين يحاول إحاطتها وإطفاء تلك النيران ولكن بلا جدوى.. يصرخون مستنجدين: «ابحثوا عن ماء.. أحضروا ماء.. فلتحضروا ماء».. بعضهم مرتاع يبحث عن الماء ببعض المنازل التي هجرها أهلها خوفاً من الحرائق وبما يحدث بالمدينة.. أما مازن فظل يشير إليهم وهو يضحك شامتاً: «هذا جزاؤكم أيها الخونة.. هذا ما تستحقونه أيها الملاعين.. فلتحرقوا بنار الجحيم.. هههههههههه».. وظل يضحك ضحكات من قلبه تظهر لجميع من يراها حينها بأنه شخص فقد عقله تماماً.. ظل يردد هذا الحديث لجميع من يراه وهو يركض فرحاً

مهلاً: «فلتحترقوا بالجحيم.. فلتحترقوا بالجحيم.. فلتحترق جهينة.. فلتهلكوا جميعاً أيها الخائنون».. وظل يركض ويركض واختفى وسط الجموع الهاربة جهة مخارج المدينة.. فلقد قرر الكثير من أهل جهينة أن يتركوا منازلهم ويفروا إلى مخارج المدينة التي كانت مغطاة بالضباب.. هم كانوا يعلمون بأنهم لن يستطيعوا الهروب خارج المدينة ولكنهم اكتفوا بأن يجتمعوا بداخل هذا الضباب لعله يختفي فجأة ويكون منفذ الهروب من ذلك الجنون الذي اجتاح المدينة، وكان من بين هؤلاء متولي ويومي مساعدا مازن السابقان وعائلتهما.. كانوا من أوائل الفارين من جحيم جهينة التي كانت جنة ينعمون بثمارها كل تلك السنوات الماضية.. وكان وسط كل هؤلاء الجموع يوسف فهمي وهو يقود عائلته وعائلة أخيه الأكبر جهة الضباب بهمة كبيرة، وكان يتفقد أفراد عائلته كل بضع دقائق حرصاً على عدم ضياع أحدهم أثناء تلك الفوضى، ونجح في النهاية في إيصالهم إلى الأمان فوقفوا مع الجميع ببداية الضباب وكلهم حرص حتى لا يتوغلوا هناك أكثر فيعودوا إلى أنحاء متفرقة من المدينة مرة أخرى.. عندما تنفس يوسف الصعداء أخيراً صرخت به زوجته وهي تلطم خدها: «يا ويلتى.. يا ويلتى!!».. هنا سقط قلب يوسف بقدمه فصرخ بها قلقاً: «ماذا هنالك؟ لماذا تلطمين وجهك هكذا؟» فأجابته بارتياح شديد: «لقد تركت حقيبة نقودنا ومصوغاتي فوق السرير ونسيت أن أحضرها».. صرخ بها يوسف غاضباً: «اللعة عليك يا امرأة!! لقد خشيت أن يكون حدث شيء لأولادنا».. أجابته بخوف: «يجب أن تحضرها.. إن بها جميع مدخراتنا.. لن نستطيع أن نعيش بدون تلك المدخرات بعد اليوم»..

أجابها يوسف: «أي مدخرات تتحدثين عنها؟! ألا تشاهدين ما يحدث بالمدينة؟ ادعي الله فقط أن نخرج من جهينة هذه على خير.. هذا إذا استطعنا الخروج من تلك المدينة اللعينة».. أجابته غاضبة: «يجب أن تحضر الحقيبة.. حتى لو خرجنا من المدينة بدونها لن يكون معنا نقود لكي نأكل حتى.. أنا سوف أحضرها إذا لم تذهب لتحضرها أنت»..

رمقها يوسف بنظرات مستنكرة، ثم أشاح لها بيده وهو غاضب: «حسنًا.. حسنًا.. سوف أذهب أيتها اللعينة.. لا تتحركوا من أماكنكم تلك حتى أعود.. هل فهمتم؟».. أخذت زوجته وأطفالها وزوجة أخيه وأطفالهما يهزون له رءوسهم تأكيدًا على كلامه.. فزفر بضيق وهمَّ عائداً إلى المدينة التي أصبحت أجزاء كبيرة منها كتلة من النيران، وأخذ بعض الصبية يلقون العصي والدراجات وأي شيء يجدونه أمامهم بالنيران المشتعلة وهم يهللون فرحين بمشهد النيران وهي تستعر أكثر فأكثر.. توقفت مكبرات الصوت أخيراً بما تحمله من أسرار قدرة لجهينة، ولكن لم تنطفئ ثورتها، وظلت المعارك والخلافات قائمة.. أخذ يوسف يشاهد كل تلك المشاهد وهو مصدوم من كم هذا الدمار والحقد الذي ظهر بين ضلوع سكان جهينة.. هل كان كل ذلك الدمار مختبئاً بقلوبهم وهم في غفلة؟ هل كل هؤلاء أثمون؟ وظل يحمد الله أنه نجا هو وزوجته وأسرته من تلك الأسرار القذرة التي كانت بأرجاء المدينة.. وهنا لاح أمامه فجأة.. ظهر جلياً وبكل وضوح.. يتحرك ببطء من بعيد جهته.. ظهر فجأة كمن انبثق من نيران العنقاء أو نتج عن مخاض الجنون.. ها هو يقترب منه.. لم يعلمه في البداية..

ولكن شعر أمامه بالألفة.. هذا شخص يعلمه بكل تأكيد.. تسمرت قدماه بالأرض ولم يستطع أن يتحرك.. ملابسه الممزقة المتسخة.. لحيته الشعثاء الكثة.. كلها جعلت ملامحه تختلف قليلاً.. ولكن هيئة جسده الصغير كما هي.. جرح رأسه فوق حاجبه كما هو.. هل يعقل أنه هو؟ هل عاد من الموت حقاً؟ هل يعقل أن هذا عزت أخي الأكبر؟ ارتعش قلب يوسف واشتعلت الدماء بجسده.. هل بالفعل يشاهد أمامه أخاه الأكبر يوسف الذي رباه مثل والده وضحي بكل شيء من أجله؟! هل بالفعل لم يمت غرقاً؟ أخذ قلبه ينبض بجنون شديد، والمتشرد يقترب جهته أكثر فأكثر.. ها قد أضاءت النيران بجانبه وجهه وظهر جلياً بوضوح.. إنه وجه عزت بالفعل.. إنه وجه أخي.. ولكن يجب ألا يكون هو.. يجب أن يكون شخصاً آخر.. يجب أن يكون شخصاً آخر.. عزت أخي حبيبي قد مات.. لقد أقمت له عزاء وبكىنا عليه أنا وأسرتة.. لقد أخبرتني الشرطة أنه مات.. أخبرني عمله بأنه مات.. أخبرتني زوجته وأولاده بأنه مات.. الجميع كان يصرخ بي بأنه قد مات.. الجميع كان يلومني على تمسكي بذكراه.. الجميع قال إنه مات.. لقد صدقت الجميع.. لقد مات أخي الحبيب.. لقد مات أخي الحبيب.. عزت قد مات.. أخذ يوسف يحدث نفسه بذلك عندما اقترب منه المتشرد ووقف أمامه ينظر له.. ثم تحدث بصوت خافت للغاية: «يوسف.. أخي».. هنا لم تتحمل قدما يوسف جسده وجثا على ركبتيه مصدوماً.. حتى لو أخبره الجميع بأن هذا ليس عزت فإنه لن يستطيع أبداً أن ينسى صوته وهو يناديه باسمه.. إذاً هذا عزت

أخي الأكبر بالفعل.. ابتسم يوسف بشدة وهو يبكي فرحاً ويصرخ بعزت أخيه الأكبر الذي ضحى لأجله بكل شيء: «عزت.. لماذا قد عدت؟».. قالها وهو يبكي بشدة ويصرخ غاضباً بعزت: «لماذا قد عدت يا أخي؟ لماذا قد عدت؟ أنا الآن أصبحت خائناً.. خائناً لعشرتنا.. خائناً لطفولتنا.. خائناً لصدقتنا.. خائناً لك.. سمعت كلام الجميع وتقبلت موتك.. لقد أخذت مكانك بالعمل شفقة من أصحابه.. أخذ أو لادك أموال معاشك ويعيشون حياة رغدة.. زوجتك تزوجت شخصاً غيرك وأنجبت منه طفلين.. لماذا عدت الآن لكي تدمر حياتنا جميعاً؟ لماذا لم تعد قبل هذا وأنا أتحدى العالم جميعاً لكي أخبرهم بأنك حي.. لقد نعتوني بالمجنون بسبب ذلك.. لقد كرهني أو لادك وزوجتك لأنني كنت أقف بطريق سعادتهم.. لقد انحنى ظهري وعظامي وأنا أعمل لكي أعطي غيابك.. لماذا لم تعد حينها وعدت الآن؟ لماذا وبالرغم من حبي الشديد لك لم أكن سعيداً بعدوتك من الموت؟ لماذا عدت يا عزت؟ لماذا عدت؟».. قالها يوسف وهو يبكي بحرقه شديدة أمام أخيه الذي ظل ينظر له صامتاً.. ثم تقدم جهته ببطء شديد.. طأطأ يوسف رأسه بالأرض وهو حزين للغاية.. لا يدري ماذا يقول أو يفعل.. ما ذنب أخيه عزت؟ ما الذي اقترفه بحقهم؟ هو لم يفعل أبداً أي شيء يضيرهم هو وأسرته، فلماذا شعر بالضيق الشديد عندما شاهده مرة أخرى؟! كيف سيرر له أنه أنكره من قبل؟ كيف سيواجه أخاه بعد ذلك وهو فعل كل شيء من أجله وكان جزاؤه هكذا.. لم يستطع يوسف أن يعبر عن أي شيء إلا ندمه وهو

ينظر لأخيه عزت وهو يقترب منه ويتمنى من كل قلبه أن يصفعه على وجهه.. أو يضربه بقدمه، أو يلكمه برأسه.. يبصق عليه.. يمرغ رأسه بالتراب.. يفعل أي شيء له لكي يجعله يكفر عما فعله بحقه.. وقف عزت بالنهاية بالقرب منه فرفع يوسف رأسه وهو ينظر لأخيه بعيون دامعة فوجده ينظر أمامه ولا ينظر إليه، ثم مر بجواره وهو يتحدث بصوت خافت: «يوسف.. أخي.. أخي يوسف».. أخذ يوسف ينظر إليه وأخوه عزت ينصرف بجواره ويتركه مبتعداً ولا يتردد على لسانه أي شيء إلا اسمه.. أخذ يوسف يرمق أخاه بمرارة شديدة وهو يتجاهله ويكمل طريقه، فأخذ يبكي بحرقه شديدة وهو يحمل قبضة من التراب اغترفها بيده ووضعها فوق رأسه وهو يشاهد أخاه يردد اسمه وهو يتعد بعيد ويختفي بهدوء ورزانة وسط الجموع الهائجة المجنونة بجهينة..

تمت بحمد الله

مع تحياتي / إسلام عبدالله

الفهرس

7	الوحوش
14	(صديق قديم) عام 1987
30	(تحت الركام)
43	(العائد)
62	(الشبح)
89	(لا أتذكر)
104	(مدينتي)
130	(انقلاب)
158	(مواجهة)
178	(مهرجان الضحك)
228	(تجربة ذاتية)
259	(أسرار قدرة)

للتواصل مع المؤلفة:

البريد الإلكتروني: eslamthefighter@gmail.com

الصفحة الرسمية: <https://www.facebook.com/eslamthefighter>